Twitter: @ketab_n
13.4.2012

غدي فرنسيس

ketab.me

قلمي وألمي

مئة يوم في سوريا

دار الساقي

Eqla3 Library
All rights reserved - eqla3.com

غدي فرنسيس

ketab.me

قلمي وألمي

مئة يوم في سوريا

دار الساقي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تصميم الغلاف: سحر مغنية
خطوط العناوين: علي عاصي

Twitter: @ketab_n

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2012
ISBN 978-1-85516-845-9
دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342 بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033-6114
هاتف: 442-866-1-961، فاكس: 443-866-1-961
email: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

Twitter: @ketab_n

إهداء

إلى أبي وأمي وأخويّ، الذين سهروا يقلقون عليّ ويوقدون ثورتي...

إلى أصدقائي المجانين الذين لهم أسهمٌ في عقلي وقلبي وقلمي بمجرّد وجودهم في حياتي، شادان جمال، شدا شديد، ريم طالب، إيلي الغصان.

إلى كل الذين يكتبون كما يتكلمون في بلاد الأطر البالية والمحرّمات: غسان سعود، حسين أيوب، فواز طرابلسي، إبراهيم الأمين، خليل حرب، أسعد أبو خليل، حسن عليق، ريان الهبر، نجيب نصير، سناء خوري، صباح أيوب، ريتا إبراهيم فريد، لمياء الساحلي، مريم البسّام، رامي الأمين، أحمد البرقاوي، زيد القطريب، جود سعيد، إبراهيم شرارة، سحر مندور، مازن السيد، وسام متى.

شكر خاص لكل الأسماء التي وردت في كل المقالات، كانت نوافذ لرؤية البلاد أكثر. ولكل أهلي ورفاقي وإخوتي في سوريا الذين فتحوا بيوتهم وصرفوا من وقتهم في مساعدتي وإيوائي وقلقوا عليّ وأحبوني وصنعوا بي هذه التجربة على هامش الدوامة. لم أكتب أسماءهم حرصاً عليهم.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

إهداء 5
مقدّمة 11

الفصل الأول: من الشام إلى اللاذقية وحمص

هواجس على طريق الشام 23
الجبهة مقبرة الأحزاب 28
جمعة دمشق ولا ضربة كفّ 32
وجوه معارضة 35
غالبية صامتة 41
سوريا تستعد للحوار: بستان دمشقي ومزهرية لبنانية 47
تاريخها في شوارعها 52
سوريا لا أسود ولا أبيض 53
محامون يدّعون على الجزيرة 57
من دمشق إلى عشيقتها اللاذقية 60
جمر اللاذقية بعيون أهلها 67
وعي شبابي؟ 79
حمص: في الشارع رعب ودم وأمل 82

الفصل الثاني: نظرة عن كثب

جولة حول دمشق: مشاهدات عصر يوم الجمعة 91
وزير الإعلام 98
أيّ قانون لأيّة أحزاب سورية 103
ما غاب في الإعلام والضجيج السياسي:

Twitter: @ketab_n

جذور اقتصادية للاحتجاجات السورية 109

الفصل الثالث: من السويداء إلى حلب مروراً بحماه

قمح حوراني واحد في محافظتين: جبل الدروز النائم فوق درعا 119
شيخ عقلها وعقولها:
ماذا يقول أهل الثورة السورية عن جارتهم درعا؟ 126
حماه وجراحها وإرث الإخوان: أعطني حريتي 135
هدوء حلب 143
حلب السياسة تمارس ألعابها المفضلة 148

الفصل الرابع: سوريّا العارية في زمن الأقنعة

كي يبقى القائد قائداً 159
ما الذي قلب ربيع دمشق إلى ثورة ريف 163
منبر العقل الشاغر: أيّ جزء من الحرية لا يفهمه النظام؟ 171
مفاجآت جمعة العشائر 178
ما بين دمشق وأنقرة خبز وملح في حلب 182
سوريا العارية في زمن الأقنعة 194
لكم ثورتكم ولنا ثورتنا 199

الفصل الخامس: المعارضة السورية: ما لها وما عليها

ما بعد سميراميس: أول يوم جمعة سياسي في دمشق 207
نقاش مع لؤي حسين وسلامة كيلة وريما فليحان:
استفاقة الحياة السياسة السورية 212
ماذا تفعل لو كنت بشار الأسد؟ 222
في مطبخ قانون الإعلام 229
زيارة السفراء وخصوصية حماه ولبننة سوريا 238
ارتفاع السقف بغياب الأعمدة: مؤتمر الحوار في صحارى 245
حماه: للحرية غضبها ومواجعها 253

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس: الفراق

ساعات الأمن الجنائي: تجربة من واقع سوري 265
ترحيل وحرمان من بلادي 272
سلسلة «ولاه حقير» 276
قانون أصول الثورة 278

فهرس الأعلام 281
فهرس الأماكن 284

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقدّمة

كم جميل ألم المتمزّق بين اثنين. وحده الحر، من لم ينتق لنفسه موقعاً محدداً وخطوطاً حمراء. في تغطية الانتفاضة السورية كبرت، وأصبحت اسماً على الطاولات...لأنني أثرت التساؤل. وبينما كانوا يتساءلون عن الجهة التي تشغلني، أو المعلّم الذي يهديني، كنت أخوض ثورتي الداخلية على ذهني وأكسر رأسي بجدرانه.

في فوضى بيروتنا وأوراقها، وضعتني الاستفاقة العربية أمام مرآتي أسأل «من أريد أن أكون؟». حملت المرآة ورحلت أبحث عما يساعدني في إجابتي. تحديت نفسي وحزبي ودوائري وبيتي ومسلّماتي. فتحت يديّ وشرّعت قلبي لرياح سوريا. صرت أرض معركة... فأصبحت دفتر آخر من دفاتر مذكراتها.

حين سقط بن علي، بدأت أشعر بأنني صحافية. صعدت المرة الأولى إلى مكتب الناشر حاملة قصاصة صفحة كاملة من الجريدة وورقة عليها إهداء. يومها كتبت قطعة بعنوان «أمل التغيير يهل من تونس» وتحتها صور الرؤساء العرب وأنواع أنظمتهم. كانت صفحة شباب السفير كالروزنامة، وبدأنا نخربش على صور الحكام. شحطة على بن علي الأميركي، شحطة أخرى طيّبة على مبارك الصهيوني... ونصف شحطة على القذافي. كنا نسهر حتى ساعات الفجر في مكتب صغير مخصّص

Twitter: @ketab_n

لملحق الشباب ونتابع تغطية مباشرة للثورات العربية. شربنا أطيب شامبانيا أمام السفارة المصرية عندما سقط مبارك.

وقفت قرب أصدقائي وكان في عقلي سؤال كبير. ماذا يحدث فوق مصائرنا؟ وكم بإمكاننا أن نكون نحن الثورة؟ هل نستطيع أن نحمل سجادتنا السحرية ونطير مثلهم. هؤلاء على التلفاز يغيرون حياتنا... علينا أن ننهض، وإلا نُمتْ... علينا أن نصرخ في الضوضاء، وإلا فسيظنون أن لا صوت لنا...

في حفلة الجنون التي هي حياتنا وحياة بلادنا، علينا دائماً أن نكون مجانين... ألا نفكر. حين يحمل واحدنا بندقيته، لا يفكر. حين يصرخ واحدنا في التظاهرة لا يفكر. حين نغرم لا نفكر... علينا ألا نفكر أحياناً، كي نعبر إلى حواسنا... إلى اختلافنا... إلى الحرية...

حين ساءلت حراك قيادة الجيش المصري المكوكي إلى البنتاغون لم أخجل... كتبت خوفي المؤامراتي أمامهم. مع موعد نشر «من يخاف من المؤامرة» كنت قد أصبحت مختلفة عن معسكر الثورة في ملحق الشباب... بدأت أغرّد خارج سرب التطرّف المطلق للانتفاضة. بدأت أختلف مع أقرب الأصدقاء. كان مسؤول الملحق عبثاً يحاول إقناعي بأن الشعب عفيف وأن الإخوان المسلمين حزب كالأحزاب له حقوق وحريات... كنت راديكالية كثيراً في حكمي على إسلامية الحراك ومشاريع الغرب فيه. وكنت في ذلك الحين أدافع عن حبيب الشعب بنظري، بشار الأسد... وإبراهيم ينفخ سجائره متحاملاً ونبتعد أكثر كل يوم... لأنني لم أكن منحازة بالمطلق للثورة كيفما جاءت، وخاصة في سوريا.

Twitter: @ketab_n

قبل أن تنتفض درعا بدأت تتسرّب مجموعات لبنانية في الفايسبوك وتفتح صفحات لإسقاط الرئيس بشار. حينها، بدأت أعاني من انفصام الموقف حيال الثورات. لم يكن باستطاعتي أن أنسى أنني أنا نفسي شربت الشامبانيا حين انتصرت الثورة المصرية. و لم يكن باستطاعتي أن أعتبر بشار الأسد طاغية. كان بيني وبين الأسد محبة تعود إلى عام 2006.

نحن جيل بشار الأسد... نحن اللبنانيين والسوريين الذين ولدوا عام 1989، كبرنا وكان الأسد رئيس سوريا... رافقنا في 2005 ومن بعدها 2006 وكان بقربنا. كنت أحبه... كنت!

قامت قيامة درعا... قلت أريد أن أكتب من سوريا عن سوريا.. أريد أن أذهب وأرى ما يحدث. حينها قال بوب: لا نريد منك كتابات من سوريا. لم أتوقف عنده، طرقت باب صفحة العربي والدولي وقلت لهم أنا ذاهبة إلى دمشق، وسأكتب لكم ما أرى. فرضت نفسي على الأرض ففتحوا لي صفحاتهم.

حين ذهبت إلى دمشق في أواخر آذار، كانت مفاجأتي أن بشار الأسد له وجوه أخرى، وأن الثورات لها وجوه أخرى، وأن ما يجري في المنطقة معقد ومتشعب، وأن الشعب السوري فيه أطياف متنوعة. منهم من يستعد لأن يموت في تظاهرة ضد الرئيس ومنهم من يستعد لأن يموت على باب القصر مدافعاً عن الرئيس، وأن في سوريا طائفية، وأن في سوريا 14 و8 آذار، وأن في سوريا من يكره حزب الله، وأن في سوريا من يعلق صورة سمير جعجع ومروان حمادة... بدأت أرى بعينيّ سوريا التي كنت أعشقها بطريقة سطحية... أصابني فصام الغرام...

كنت أرى بحواسي العبثية فأجد نفسي مرة حبيبة الشبيحة ومرّة

Twitter: @ketab_n

حبيبة المندسين. كلهم يحبونك حين تقول ما يحبون سماعه. وكلهم يكذبونك حين ترى ما لا يحبون رؤيته.

كتبت «هواجس على طريق الشام»، ثم «الجبهة التقدمية: مقبرة الأحزاب».

بعد المقالتين، رحب الناشر باقتراحي وبدأ بتمويلي لأكتب المزيد من سوريا شرط أن أتحمّل أنا مسؤولية نفسي وأمني. اتكلت على مدينتي وحبي لأزقتها وتعلّقي بهويتي التي فيها. اتكلت على صداقاتي الكثيرة، وحملت أمتعتي وذهبت. وبدأت تكبر الحكاية. صرت أعبر الحدود أسبوعياً بأوراقي والكاميرا والكتب، بحثاً عن كل شيء وكل لسان وكل عين. أردت أن أراهم وأريهم للدنيا، هؤلاء أهلي يَقتلون ويُقتلون ويصرخون. واجبي إن لم أصرخ أن أسمعهم.

كتبت عن المعارضة وعن الغالبية الصامتة... كتبت ما لم يعره الإعلام أي اهتمام، فبدأت آخذ مساحة أكبر. تسلّقت السفير مكتباً مكتباً بسرعة كبيرة. بتّ أذهب وأعود بكامل الصلاحيات وأنشر ما تلهمني أم كلثوم أن أكتبه... لم ألتزم بأي معيار. ما لم يعرفه الجميع أنني حين كنت في أرض التغطية الأبرز، كنت مجرد مبتدئة في الصحافة لم تكمل العام من عمرها المهني. لم أعرف أن أدوّر الزوايا كما يفعل الصحافي المتزن. كنت «أخبّص» تخبيص المبتدئ وأتميّز بتخبيصي. التزمت معيار المنطق في الكتابة. أبتعد عن التصفيق للنظام وأبحث عن علل المعارضة. أتكلّم بلغتنا السياسية البيروتية الوقحة. أقول الأشياء كما هي في عقلي. كان قانوني الأول ولا يزال: اكرهِ الجميع وأحبَّ سوريا.

صارعت خطوطي الحمراء، فخلعت جلدي عنّي. طردني الحزب

Twitter: @ketab_n

السوري القومي الاجتماعي من صفوفه بسبب الكتابة. ازدادت موضوعيتي. شعرت بالثورة أكثر وتحرّرت من قيود المؤسسة الحزبية الضيقة ومصالح أشخاصها. أوقفني الأمن، فانتشر اسمي أكثر. كانت الأحداث سريعة من حولي وكنت مشغولة بالكتابة وزيارة المناطق.

***

يتهمني البعض بالانتهازية. محقون. انتهزت كل الفرص، لكنني لم أكن أعي ما يحصل. ركبت السيارة الخاصة إلى قصر الشعب، وركبت السيارة الخاصة إلى مكتب وزير الإعلام، وركبت سيارة الأمن في طريقي إلى التحقيق. جلست مع أقرب المقربين من الرئيس، ودخلت بيوت المعارضين كابنة لهم. شربت القهوة في الأماكن العامة مع أشرس المعارضين والمعارضات، وشربت الشاي عند المحقق...

عشت سوريا العارية. كنت البلاد على فترة 4 أشهر. حفظت المفارق والجوامع والتظاهرات والأعداد والتواريخ. حفظت أرقام هواتف المعارضين. شربت النبيذ الأحمر على مأدبة العماد مصطفى طلاس، وشربت النبيذ الزهري مع فايز سارة. شربت القهوة مع علي فرزات ومشيت دمشق مع لؤي حسين. أعرفهم وأعرفها... ابنة البلد أنا، لست صحافية...

بقيت حتى اشتد الضغط كثيراً عليّ، وما عاد مسموحاً أن أسرح وأمرح على هواي. انتقدت الجميع حتى بات لي أعداء في النظام وفي المعارضة يعرفونني دون أن أعرفهم. أحرقت كل المراكب خلفي.

بحلول الشهر الرابع من التغطية السورية كنت أعرف حلب وحماه

Twitter: @ketab_n

وحمص والسويداء وريف دمشق وأتواصل يومياً مع عشرات الأصدقاء المتناثرين في الأرض السورية. كنت أعرف ما يجري تحت وجه البلد. آكل في مطاعمها وأنام على سطح بيتي في دمشق القديمة بأمان تحت النجوم. لي أصدقاء وأولاد جيران وحيّ يسأل عني، يصبّحني بأغانيه الموالية فأمسّيه بأم كلثومي الصارخة.

***

أعلن يوم الأحد حواراً وطنياً برئاسة فاروق الشرع. وبينما حضر ناشر الجريدة كضيف شرف، كتبت مقالة تنسف الحوار: «خطاب معارض في دار النظام: ارتفاع السقف بغياب الأعمدة». يومها أتاني مقدّم من المخابرات على مقهى فندق الشام ليحذرني: «رسالة من المعلم خففي عنا شوي».

كان رئيس تحرير جريدة لو موند الفرنسية آلان غريش في دمشق، وعرفته عليها في عيني وأصطحبه سيراً على الأقدام في المدينة ليراها كما أراها. في اليوم التالي ذهب إلى حماه مع وفد فرنسي وعاد وقال لنا في دمشق بلهجته المصرية «حماه حرة، كانوا بيهتفوا لينا.. وكانت هتصير مظاهرات تأييد لفرنسا». يومها كتبت عن لبننة سوريا بزيارة السفراء إلى حماه. في ذلك الوقت، كان التوتر والقلق يسرقان أوكسيجين دمشق. قصة العشق بدأت تحتدم. بتّ أبكي أحياناً، بت أرى عيونهم تستدير كرهاً. بات يزعجني صوت «ضرب اليدين على الطاولات» الدائم بعد أن كنت أطرب إليه.. وبدأت تظهر أكثر معالم المعركة المؤلمة.

أصبح يمشي معي ظلهم جميعهم، ويتعب عنقي من حمل الظلال.

Twitter: @ketab_n

حين استدارت عيوننا إلى حماه، تسللت إليها مع صديقي عبر السلمية. تجولت في حماه الحرة، وكتبت ما رأيت. أزعجت الجميع، النظام أخذ منه جزءاً في تلفزيونه الرسمي وكلّف وزارة الإعلام بترحيلي. بعض أشكال معارضة المثقفين وقعت ضدي بيانات الشتم فيما استقبلتني معارضة أخرى لكفكفة دموعي.

اجتمعت عليّ كل القرارات في يوم واحد. أمسكني مقدّم المخابرات نفسه ورماني خارج البلد، ومنعني من العودة إلى سوريا. طردتني جريدة «السفير»، فحضنتني جريدة «الأخبار» ونشرت تجربة اعتقالي. تخلى عني ناشر «السفير» بعد يوم واحد من تسلّمي بطاقتي الرسمية من الجريدة. ضغطوا عليه، ضغطوا عليّ، ضغطوا على أصدقائي وأوقفوهم. ضغطوا على سوريا وعلى شعبها وعلى اقتصادها وعلى سيادتها وعلى حقها وعلى ألوانها... منطق الغاب يسود هنا والحسابات وحدها تحيا على الورق.

سقطت كل الأقنعة. ما عاد يعنيني من يبقى ومن يرحل ومن يهوي ومن يعلو. ما عادت تهمني الأسماء ولا المواعيد ولا الامتيازات ولا المكاتب الفخمة. في رأسي المزدحم أم كلثوم مسائية وفيروز صباحية وما بينهما شارع الحمراء وثوراته وتشوّهاته. كنت أشعر بأنني بيروت السورية وسوريا البيروتية. كأنني جناح متمدّد بين المدينتين. جننت بكل الحدث. ما عاد عندي كلام إلا عن سوريا.

***

لا أعرف متى سيسقط النظام السوري، لكنني كنت أقول لهم في

Twitter: @ketab_n

سيارة المخابرات بينما يرحلونني «أنتم سبب سقوط نظامكم، لأنكم تطردونني سيسقط النظام...» لم أكن أعني أنني قضية كونية تتوقف عليها مصائر الدنيا. لكنني نموذج... عن قلم وألم سوري.

اخترعت وهماً وعشقته في وحدتي بينهم. رجل أحلام عسكري سوري قديم جديد، في يساره سيجار غيفارا وفي يمينه قصائد المتنبي. عطره يشبه التراب يمشي حافياً في دمشق كالأنبياء. كان ملاكي الحارس ذاك العشيق الصوفي. أحببته أكثر من جميعهم و لم أقبله ولا قبّلني. كنت مغرمة بروحه وكان مغرماً بروحي. ميّزني عن الجميع... رأى وطناً خلف عينيّ ورأيت جبلاً في صدره.

ثم طردوني من قلب الحبيب.

طردوني من قلب النبض السوري. حملوني ورموني خارجاً بوقاحة... كل أنواع الصحافة في دمشق، لكنها لا تكتب ما تعرف، بل تنسّق مع معلّميها... ذنبي أنني كتبت، فمنعوني من دخول بلدي... جميعهم بالتواطؤ، معارضين وموالين ونظاماً وشركات مساهمة ومؤسسات... جميعهم يعربدون فوقنا وفوق آلامنا.

لا أثق بأحد من الذين رأيتهم في المكاتب والمقاهي المرفّهة. أثق بالباعة الفقراء وبالمزارعين وبالعاشقين وبالحفاة، أولئك أقربهم إلى الأرض. أثق بشارع الثورة وأكره شارع أبو رمانة... حبيبي لا يمشي في أبو رمانة الكاذب، حبيبي فقط أعثر عليه خلف الوجوه السمراء المتعبة الصادقة... ليس معارضاً ولا موالياً، ولا يقاس بحجم الأشخاص. حبيبي لا يصفّق. يقف كجبل فوقهم وفوق ضوضائهم. كقاسيون الحامي صامت على شامه.

Twitter: @ketab_n

كسروا صورته. شوّهوني وشوّهوه.

رأيتهم وأعرفهم واحداً واحداً... الرجال جميعهم رجل واحد يضربني. السوريون جميعهم حبيب واحد يكرهني. الجراح جميعها سيف واحد على عنقي. وحدي. منفية في شقتي البيروتية، قلبي وعقلي عند حبيبي السوري.

خرجت من سوريا و لم تخرج سوريا مني. أرى قاسيون يكلل دمشق كلما أغمض الرمش. أسمع صوت أم كلثوم من دكاكين الحارات القديمة. أرى وجوه الكادحين السمر تحت جسر الثورة كلما نزلت إلى شارع، تلاحقني سفوح السويداء كلما زرت الجبل.

أشتهي... أشتهي «السودا النية» التي تباع على الطرقات في حلب. أشتهي سجائري المليونية في تجربة ساعات التحقيق. أشتهي قهوة ميشال كيلو المرة. أشتهي الهروب والعزلة في مكتبة مصطفى طلاس الضخمة بين كل تلك الصور والحكايات. أشتهي النوم على الرصيف مع الأطفال الفقراء. أشتهي ان أبيع العلكة مع بشار في حمص وأن أتلقى الضرب مع علي في الشام. أشتهي أن تلاحقني المخابرات وتستقصي تحركاتي مثل الروايات. أشتهي أن أستمع لماضي حسن وأبحث مع حفيده عن المستقبل. أشتهي العودة إلى ساحة سوريا في مفرق عمرها هذا.

في قلب المعركة أنا والحب يجلدني بسياط من صمت وضجيج. بت تائهةً مريضة. تكسرت كل أجنحتي. لَم يقاضيني بعد قصتي؟ فليعذرني. فليعذر وقاحتي. ستنتهي... سأقتنع يوماً ما بأن الحبيب فصل خيال تصنعه حاسة العشق في قلب العاشقة. سأهدأ بعد قليل.

سأقتنع مجدداً بالوجه الآخر للفارس العربي. سأقتنع برجولة المشرقي

Twitter: @ketab_n

الزائدة. سأقتنع بأنك أنت لست حبيبي، ولكن دعني أقل ما أريد الآن مهما كرهت كلام الفراق... دعني أسمعك حزني يئنّ في ذكراك رغماً عنك وعني. أنت لا تجيبني فلماذا تكره الكلام... دعني أصرخ وحيدة وأسمع صدى صمتك فتأكلني الجراح... ويولد الشجن وبعده الموسيقى.

دعني أخض معركتي إلى النهاية لا تقاطعني. لا تتدخل بيني وبين سمائي، دعني أطر وأهبط مثلما يحب الجناح... دعني أتقلب في آلامي حتى أنتصر، فأكون...

هذه المقالات، بعض فصول قصة العشق، ومن بعدها الفراق.

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

من الشام إلى اللاذقية وحمص

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هواجس على طريق الشام

منذ أسابيع قليلة فقط، كان أكثر ما يغري في زيارة الشام، ذلك القسط من «راحة البال الدمشقية» التي لا تعرفها بيروت. كان عبور الحدود فوق الجبل الشرقي، كالقفزة من قلق مدينة مجنونة، إلى حضن مدينة حجرية السور، هادئة، منظمة ومنضبطة. كان المشوار، كالذهاب من الفوضى إلى النظام، وكالانتقال من خاصرة راقصة مثيرة مجنونة، إلى رأس فتاة مؤدبة ومصَففة الشعر. أما بعد درعا، فقد راحت «راحة البال» الدمشقية بعاصفة مفاجئة أمطرت علامات استفهام.

بين الإعلام المخوّن والإعلام المخوَّن في زمن «الثورات» العربية، وبين «سمنة» الإعلام الرسمي الكاريكاتوري و«زيت» الفضائيات العربية وأجنداتها، تبقى الحقيقة الواحدة المؤكدة أن الجميع يعيش في حالة قلق طارئة، ويمشي مع ظل من المخاوف. بين شارع المؤامرة وشارع الثورة، المواطن السوري مختلف عن الجميع. يعيش في حارة متلاصقة البيوت. بيوته صغيرة الأبواب. ستائر نوافذه مسدلة دائماً. حياته الشخصية، كما آراؤه الحقيقية، محجوبة في الداخل. وخلف الباب الخشبي الصغير في الحيّ العتيق، دار واسعة لا سقف لها، تكتفي بقطعة من السماء في الداخل، وتحتجب عن الخارج. هكذا يعيش في داره العربية في الحارة الدمشقية العتيقة داخل السور الحجري.

Twitter: @ketab_n

سائق السيارة الصفراء

في مرآة سيارات الأجرة كلها عينا سائق واحد هو المواطن السوري. كأنهم جميعاً شخص واحد، في عينيه قلق وفي كلماته ارتباك. لا يثق بك وأنت لا تثق به، كل بنت شفة، هي تصريح مدروس في العقلين. فلا السائق تريحه اللهجة اللبنانية ولا الزائر تريحه أسئلة السائق الكثيرة. غالبية السوريين تظن أن اللبناني هو ذلك العنصري الذي حمل المكنسة في التظاهرة عام 2005. وغالبية اللبنانيين، بمن فيهم سكّان دمشق، تظن أن السائق رجل استخبارات.

تحت وطأة الازمة، تغيب الثقة نهائياً. كما يغيب الاطمئنان. هي تمثيلية غرباء مصطنعة، «حكي سرفيسات». وفي حكي السرفيسات المتنوعة وسائقيها من مختلف المناطق السورية، وجه واحد وحيد، موالٍ للرئيس، علّق صورته، فتح إذاعته، خاف من الفتنة الطائفية، ومن المؤامرة الإسرائيلية.

يتأرجح القلق من المقعد الأمامي إلى المقعد الخلفي في السيارة الصفراء إذ يدور حديث لبناني سوري سياسي. يخاف السوري من أن يصبح لبنان الفوضى، ويكاد يسيل لعابه شهوة لأن يصبح لبنان السماء العالية والحرية والانفتاح، بينما يخبره اللبناني عن مآسي الطائفية وضريبة الحرية والإعلام الذي حوّل الشعب إلى قطيع طائفي. ويرقص القلق في السيارة الصفراء.

ماذا سيتغيّر بإلغاء الطوارئ؟ تستقر التكهنات على أن هذا يعني أن السجن ستسبقه محاكمة... ماذا أريد من النظام؟ هذا سؤال صعب جداً، فسائقنا، المواطن السوري الذي ولد في حمص وعاش في دمشق

Twitter: @ketab_n

حيث فرص العمل، يجيب: «لا أريد شيئاً لنفسي، لو طلبت، فسأطلب شيئاً عاماً، كأن يسمح بفتح المحال والمشاريع التجارية للجميع». ربما، ربما سأطلب الحرية، لكنني لا أعرف كيف. لكنني أخاف من الحرية التي تجعلني مثل كابوس اللااستقرار، لبنان. سائق الأجرة الآخر الذي يسكن في السويداء، أي قرب درعا، ويوالي نهج الرئيس وأبيه، لا يجد مكاناً للتفكير ولا المساءلة، «معه وفداه حتى انقطاع النفس». يعرض فيديو على هاتفه الجوال بفخر شديد، وفي التسجيل، صورة الرئيس وهو الأطول بين جمع من القرويين، يتهافتون على تقبيله وعناقه، وتعلو من حوله زغاريد النساء وأبيات الشعر. يسترجع هاتفه، وتضحك عيناه «الله، سوريا، بشار وبس»... سعيد بالتظاهرة المؤيّدة لأنه «يوم وطني، الشعب يثق برئيسه».

معارض القهوة

خلف حاسوب جديد يتابع الاخبار بنهم. مواطن سوري معارض يعيش حياته العامة بحرية نسبية. إعلامي أو فنان أو رجل أعمال، يعرف كل الناس أنه معارض، و لم يأكل «فلقة» بعد. لا يريد أن يكون ضحية. ففي الدائرة المغلقة، هناك من يتكلّم عنه كالرقم، كالشيء، كالملف، هكذا وباستهتار بأدنى حقوقه ومطالبه بالأحزاب والإعلام الصحيح الصحي. وفي مكاتب الصحف، يتوزع موظفو الحكومة والناطقون باسمها.

صحافي لا يستطيع أن يكتب ما تحبّه الحكومة، وجد نفسه معارضاً. فنان مجنون ماركسي ثائر، يرفض التوريث من أصله، وجد نفسه معارضاً. رجل أعمال يغيظه نسيب الرئيس المعروف، الذي ينافس كل

Twitter: @ketab_n

رجال الأعمال ويسبقهم على كل المجالات بسبب تنعّمه بالامتيازات، هو أيضاً يجد نفسه معارضاً. ابن دير الزور العصامي الذي يريد أن يستمر بالنجاح ويواكب التطوّر في دمشق، دون الاضطرار إلى مسايرة أحد من أجل شيء. لكنه خائف على فلسطين وعلماني وضد التقسيم. وبرغم معارضته لنهج الأب ومن بعده الابن، يؤمن أو يهادن قائلاً إن «بشار» يستطيع أن يصلح، إذا أبعد عنه ضريبة الحاشية الفاسدة. لا بل أكثر، يعترف ويقر إبان عاصفة رقصة القلق: لا أريد حريةً على شكل تقسيم، لكن أليس هناك سواها من حرية؟

تتنوّع أسباب المعارضة ودوافعها، ليست كلها بريئة ولا كلّهاعلمانية، لكن معارضة المقهى تتخذ هذا الشكل. وحديث الصوت المرتفع في المقهى في منطقة شعلان، يأخذ هذا الشكل. والجديد الملحوظ في دمشق أن للمعارضة أشكالاً وألسنة وأسباباً مختلفة، لكنها لم تكن تتكلم في الماضي. الجديد الطارئ على طاولات الشام أنها أصبحت تضم أصواتاً عالية تقول «لا» لعدة أشياء، وتعود آمنة إلى بيوتها في الليل.

وجها السلطة ووجهاؤها

واحد يمثّل العصيّ في دواليب الإصلاح الحقيقي والثاني يمثّل الأمل المنطقي بالإصلاح. لا الأول ولا الثاني علوي. فالحاشية الحاكمة تتداخل في شبكتها جميع الطوائف... في مقهى نادي الصحافيين، يجمع الأول حاشية تهز رأسها إذ يخطب. يوزّع شهادات الوطنية وسوء النية. وإلى مائدته، يستريح بعض أعضاء مجلس الشعب ورئيس تحرير جريدة وبعض «الوجهاء». بعثي قديم سبعيني، تتهافت على مكالماته الهاتفية القنوات

Twitter: @ketab_n

الفضائية. يرد على الهاتف فيرفع صوته ليسمع الجميع «منهو الضيف الآخر؟» وحين لا يعجبه الاسم، يعتذر عن الحلقة، ويهين الجهة الأخرى من الاتصال، كما يهين جميع وسائل الإعلام باستثناء التلفزيون الرسمي. ولأن نبرته الشمولية تستفز السامع حتى لو كان موالياً، هو نموذج عمّا يجب إزالته لحماية النظام وإصلاحه.

أما الوجه الجميل للسلطة، فيلبس العلم السوري على قميصه الرياضي، يدخن سيجاره ببطء وينفخ بعمق إذ يفكّر قبل أن يتكلّم رويداً رويداً، بتكرار الكلمات المهمة ذات الدلالات. يعترف بالخطأ في التعامل مع درعا. يعترف بأن الدماء التي سقطت غالية وأن السلطة عالجت الموضوع مع الأهالي... يتكلم عن المرحلة المقبلة «ليست الحاجة الآن إلى رجال أقوياء، بل إلى رجال حكماء، وقد حان وقت الإصلاح». بحسب النافذ المقرّب من الرئيس، الإصلاح سيرفع سقف الإعلام ويحضّر لقانون أحزاب يرعى تمثيل جميع الناس، ليصار من خلالها إلى آلية صحية في الحكم. لا يبالغ في التبرير، ورغم طمأنته الدائمة إلى أن كل شيء تحت السيطرة، لا يكف هاتفه عن الانشغال، ولا تكف عيناه عن الذهاب بعيداً في التفكير. هؤلاء من يعترفون بالخطأ ويؤمنون بالنقد البنّاء الصحي، هم الوجه الآخر للسلطة. الوجه الذي يقرأ كثيراً ويتنبّه للمشروع الأميركي. العقل الذي يتابع ليبيا يومياً. رجل السلطة الذي يعلّق صورة تشي غيفارا في مكتبه في المزة، ذلك هو الثائر الموالي، الذي إذا مشت عجلة الإصلاح، فستمشي على أكتاف أمثاله، وتخلع أمثال الموالي الأول بما فيه مصلحة الوطن الحقيقية ومصلحة الإصلاح الحقيقي.

Twitter: @ketab_n

الجبهة مقبرة الأحزاب

أخيراً، اعترف النظام السوري بكاريكاتورية «الجبهة الوطنية التقدمية». فحين تعلن السلطة نيتها استحداث قانون للأحزاب، فهي بذلك تـقر وتعترف بأن آلية التمثيل الحـزبي التي أنشاها الأسد الأب منذ أربعين عاماً، فشلت. ولو سُمِح للنضال الحزبي الحقيقي أو التمثيل الحزبي الصحـيح أو النقـاش أو الحـوار أو المطالب أو الغضب أو الأيادي التي تضرب على الطاولات، لما أوصل النظام نفسه إلى يوم يعلن فيه ضمناً أنه لم يراع تمثيل الناس، وأنه يبحث عن آلية مختلفة.

اليوم، تسود الشام خلافات واختلافات كثيرة على طاولات المقاهي. ورغم ذلك، لا يختلف اثنان على السخرية من الجبهة وأعضائها. عضو مجلس الشعب يسمّيها «اجتماع العجزة لمقاومة النعاس!». المعارض يسمّيها «المؤامرة على الأحزاب». الحزبي يعتبرها «سبب خروجه من الحزب». والمستقل، أو المعارض الموالي، فيقول: «هي منبر توزير الأولاد والأقـارب». وهذا جـزء ضئيل جداً من فيض النكات والتسميات التي يحصدها السؤال: «ماذا عن الجبهة الوطنية وأحزابها؟».

عضو مجلس الشعب: «أوعى تنام»!

في سياق عرضه للماضي والمستقبل، وبين ما يسمّى «الحرس القديم» وما يتفق على تسميته «الحرس الجديد»، يعرض الفساد فصولاً وأسماءً.

Twitter: @ketab_n

لعضو مجلس الشعب هذا نبرة صوت مرتفعة وعينان مستديرتان تحت حاجبين يرقصان صعوداً وهبوطاً. أربعيني يعتبر نفسه من أولئك المعارضين الموالين للرئيس، أو ما يسمّى «الحرس الجديد». وفي عرض الفساد الخشبي في النظام وآلية التفكير التقليدية، يعرّج بتهكّم حاد على الجبهة الوطنية التقدمية: «إنه اجتماع عجزة، تراهم فيه يقاومون النعاس، وبعضهم يستسلم فيغفو قليلاً. هذه ليست ديموقراطية شعبية، هذه تمثيلية تقتل وهج الأحزاب وتدجّنها».

مناضل «قومي»: أعلنت انسحابي

منذ أن كان طالباً جامعياً في السبعينيات، والرجل يناضل لجمع الشباب والناس حول فكر آمن به لتغيير المجتمع والنهوض به وبناء وطن علماني. صعد من مسؤولية حزبية إلى أخرى، فتولى المكتب السياسي ثم كان مفوّض الحزب في «الكيان الشامي». الدكتور الهادئ ينتقد حزبه بالفم الملآن وبفيض غضباً ومرارة. «ناضلنا وناضلنا ودفعنا الدم والسجناء وانخرطنا لسنوات طويلة في العمل السري، فكان الحزب يبني عمود نضاله الفقري، إلى أن هادنوا باسمنا وباعوا النضال مقابل أبخس الامتيازات السطحية». ورغم المرارة الفاقعة في عينيه، لا يلوم القيادات، ولا تمثيليّات ممثلي الأحزاب: «اللوم على البنية التي تضرب خاصرة الأحزاب، البنية التي تدخلها في سيناريو المشاركة في الحكم، من دون المشاركة في القرار. الحزب القومي كان أقوى بعشرات الأضعاف قبل أن يهادن الجبهة ويدخلها في 2005. أنا وغيري كثر، خرجنا عندما رأينا حزبنا يجلس على طاولة هز الرأس لقاء الوزراء والنواب».

Twitter: @ketab_n

معارض موالٍ... وخطاب نموذجي

يبدأ السخرية الذكية من أول سؤال. هل أنت حزبي؟ لا ونعم. لست حزبياً لكن بصفتي كنت تلميذ مدرسة في الصف السابع الأساسي في جمهورية الحزب الواحد، أصبحت بعثياً.

متى سمعت بالجبهة للمرة الأولى؟ منذ بضع سنوات، حين مررت في الشارع ورأيت أن هناك مركزاً يدعى «الجبهة الوطنية التقدمية».

ماذا حققت أحزاب الجبهة؟ حصاد الامتيازات لأبناء أعضائها. مكتبان في المركز لكل عضو، سيارات، وزارات، نواب، وتصفيق للخطابات والبيانات السياسية.

إذاً، أنت معارض؟ ضد كل النظام باستثناء شخصين، الرئيس وزوجته!

وبينما تتأرجح السخرية في حديث الشاب الداعي للإصلاح السريع، وبحثاً عن أي شيء إيجابي قد يقال عن الجبهة، يعلن: «حين يأتي النادل وليد نعثر على المواطن السوري النموذجي. ذاك الوحيد الذي سيقول شيئاً إيجابياً عن الجبهة».

دقائق ويصل وليد، بعثي، يعمل في المحافظة قبل الظهر، وفي المطعم بعد الظهر. «الجبهة الوطنية هي رأس الهرم، وهي صانعة القرارات! تخطط لسياسة البلد وترعى التمثيل الشعبي!».

فسيفساء معارضة وموالاة تبحث في المستقبل

فسيفساء تتباين فيها نسبة المعارضة والموالاة. خمسة آراء تراوح بين

Twitter: @ketab_n

من يدافع عن «الممانعة بوجه المؤامرة» ومن يخوّن «نظاماً يقتل أبناءه». والخمسة يتشاركون الصفات التالية: يساريون، حريصون على سوريا، علمانيون، ويسخرون من الجبهة. يختلفون على معظم الأشياء، لكنهم يجدون مكاناً للنقاش حول المستقبل.

عند السؤال عن الجبهة وأحزابها، تضرب يد الحزبي السابق على الطاولة: «لا يمثلني ولا يعبّر عني. لو كان من جبهة حقيقية، لرأينا فيها شباباً يكسّرون رأسهم في البحث عن البدائل الآن». يردّ الصحافي: «لو كانت هناك أحزاب جبهة حقيقية وجبهة ديموقراطية، لسمعنا موقفاً واحداً واضحاً من الأزمة والأحداث، ولحصّنت النظام بتعدديتها وتمازجها».

ومن الزاوية الأخرى في الطاولة يرتفع الصوت: «اليوم أنا أنتمي لفسيفساء هذه الطاولة، لا لحزب. أنا اتفق معهم على مشروع لا على أيديولوجيا. لقد هرمنا وهرمت أحزابنا، والجبهة الوطنية هي المسؤولة».

يكفي فقط أن تجلس بين الرؤوس الخمسة لتلمس تعريف الجبهة الوطنية التقدمية. من أقصى المعارضة إلى أقصى الموالاة، الرأي واحد: هي مقبرة الأحزاب منذ 40 عاماً.

Twitter: @ketab_n

جمعة دمشق ولا ضربة كفّ

في الشام الآن هنا، سواء كنت معارضاً أو موالياً، يلتبس عليك الموقف بين أحقية الدماء، وبوادر الإصلاح. سواء كنت أمام الإعلام الرسمي السوري أو أمام فضائيات العرب والغرب ووكالات الأنباء، الخبر المؤكد أن يوم الجمعة الذي كان مرتقباً كامتحان للسلطة وللثورة، مر من دون ضربة كف تذكر، مثلما جرى في الأسابيع الماضية. وبرغم التحركات التي تراجع عدد متظاهريها، لم يقع عمل عنفي واحد.

وفي الشارع الدمشقي وجهات نظر جديدة، أبرزها:

الجيش السوري خط أحمر، والمساس به شوّه مطالب الحرية... ما حدث في درعا خطأ، يجب محاسبة من كان مسؤولاً عنه رغم صلاته بالرئيس. الإصلاحات بدأت تصبح ملموسة أكثر، وراحت تكر سبحة القرارات. تم عصر دملة الغضب في درعا مساء الخميس في لقاء الأهالي مع الرئيس. فوعدهم ألا يدخل الجيش والأمن إلى مواجهة التظاهرات شرط تعهدهم بعدم التعرّض لمباني الحكومة بالإحراق والعنف.

هذا في الإطار العام، أما في الخاص، فلنموذجين من المواطنين السوريين الكلام:

موالٍ مع بعض التعديلات

أولهما تلميذ فنون من اللاذقية ويدرس في الجامعة اللبنانية في

Twitter: @ketab_n

بيروت، أرجأ فصله الدراسي بسبب أحداث سوريا. فلم يستطع أن لا يكون في قلب الحدث. يمضي نهاره بين تناقل الأنباء عبر الهاتف والإنترنت والتلفاز، وبين المشادات الكلامية والنقاشات السياسية في المقهى. صباح الجمعة، كان صالح خائفاً من مفاجأة تستفيق في جامع ما. «تنطلق التظاهرات من حيث ما يحل القرضاوي، وتنقل كلمته متلفزة، هناك تحل المفاجأة».

هو ضد التحركات التي تناهض النظام، رغم حرصه على انتقاد النظام والمطالبة بإعدام من كان مسؤولاً عن خطأ درعا. هو التعديل الذي أصاب موالاة سوريا: مع الرئيس، ومع النظام، ومع الجيش السوري، لكنه متضامن مع الدماء، ويعارض نهج القسوة المطلقة الذي يؤذي النظام ويهدر دماء الأبرار. صالح الموالي النموذجي يخاف من خطر يتهدّد بلاده ويكره الفرز الجديد الذي يصطدم به على الطاولات مع أصدقائه.

صباح الجمعة كان خائفاً، منتظراً، مترقباً. وكلما اقترب موعد خطبة الجمعة، ازداد توتره. إلى أن مضت الخطبة ومضت الجمعة من دون رنين الهاتف، ومن دون أخبار سوى في فضائيات لم يصدّقها يوماً. بعد الخطبة عند الظهر، انفرجت أساريره فوق طاولة الزهر في وسط البلد وانقلب تعليقه القلق إلى مزايدة وطمأنة وفرح وبسمات: «قلت لك انتهت، الجيش السوري خط أحمر».

معارض دوما الذي لم يكن في التظاهرات

على بعد خمس دقائق من منزله في دوما، يعمل «محمد سكرية»

Twitter: @ketab_n

كغالبية أهل دوما، قصّاباً. في «ضاحية الأسد» في حرستا، يرتفع صوت العشريني المعارض الذي أعلن امتناعه عن التظاهرات أخيراً.

خلف وجهه الغاضب، يتكلم محمد سكرية بتردّد، وبكثير من الجرأة. كما معظم «الثوار»، تأخذ مطالبه شكلاً عاماً: «الحرية» المجرّدة من أيّ شرح. وبعد الإصرار يشرح مطالبه ويفصّلها، يرتفع الصوت ويلمع الغضب: كنا نحتاج إلى إذن الأمن إذا أردنا أن نقيم عرساً أو أيّ نوع من التجمّعات، الحرية هي بتخفيف قبضة الأمن على حياتنا وأعمارنا. مخالفات البناء تكسر الظهر، والبناء القانوني يكلّف أضعاف البناء المخالف. كنت أطالب بالعمار من دون رخصة، نعم، فالعمار المخالف يكلف 500 ألف ليرة سورية بينما العمار القانوني يكلف 3 ملايين... ومنذ فترة تم توحيد النقل العام لشركة خاصة اسمها «ملوك»، أنا تظاهرت أمام الجامع ضد «ملوك» التي حلت محل 400 عائلة تعيش من دوما كانت ترتزق من العمل في النقل. لكن الجميع في حالة تريّث، فقد قيل إن المطالب وصلت، واجتمع الأهالي مع الرئيس.

بين الموالي الذي يريد إعدام مسؤول درعا، والمعارض الذي كف عن التظاهر بعد الاجتماع مع الرئيس، مرة أخرى تقول دمشق: أنا مختلفة. مرة أخرى تبرهن دمشق أن لكلمتيْ معارضة وموالاة، قدرة مطاطة على الاتساع لتشمل تناقض وجهات النظر واختلافها. وقد مرّ يوم الجمعة، بحكومة جديدة من 14 وزيراً جديداً وشارع دمشقي مر في امتحانه من دون ضربة كف.

Twitter: @ketab_n

وجوه معارضة

لدمشق قاموس خاص، يوسّع رداء المعارضة ليضمّ تحته مختلف وجهات النظر وطرق التعبير .فالمعارضة تراوح وتمتد من طالب الجامعة الذي لا يثق بأي تغيير يأتي على يد هذا النظام، إلى المثقف الحموي الذي لا يرى مخرجاً لائقاً للبلاد سوى بتغيير حقيقي يقوده الرئيس بشار الأسد. ولا أحد يستطيع أن يطبع جبين أحد ويصنّفه معارضاً أو موالياً، فيومياً، تتعدّل وجهات النظر، أو تتبدل. طاولات المقاهي والبيوت والمكاتب خير شاهدٍ على الحراك الفكري والنقاش المفتوح الآخذ بالتوسع.

لا حزب يجمعهم ولا اجتماع ولا جمعية، بل رفض مشترك لواقع مفروض منذ 50 سنة. هي وجوه تخبر عن دمشق التي تتخبط بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها. من شوارعها وبائعي خضارها وسائقي سياراتها الصفراء، تعرف المدينة أنها تشارف زمناً جديداً. تعرف أنها تقلب صفحة، وتكتب صفحة جديدة في كتاب زمانها. وتستفيق الكلمة السحرية من حرفين: «لا» بأشكال وأنواع مختلفة، بعد هدنتها الطويلة.

مدينة قضت عقوداً بلباس واحد، وحزب واحد، ونمط تفكير شمولي واحد. ذراع الأحزاب قطعت منذ استحداث «الجبهة الوطنية التقدمية» عام 1972، المجتمع المدني مغيّب عن العمل السياسي. المدينة التي تريد أن تصنع وجهاً جديداً، تبحث عن أدوات العمل السياسي اليوم،

Twitter: @ketab_n

وتصرخ، في كل ضربة طاولة، وكل وجه محتقن يحمرّ غضباً أثناء الحوار، وكل مشاجرة بين صديقين، وكل فرز جديد في الدوائر التي تعيد ترتيب نفسها بعد الشهر العاصف الذي مضى. تصرخ من كل الوجوه: أعطني حريّتي لأبني وطني بأفكاري، أعطني رقعة أعمل عليها.

ابن السويداء الجامعي الثائر

شادي يمارس لعبة «اللقيطة» مع قوات الأمن منذ عام 2007. زار السجن للمرة الأولى بعمر العشرين على خلفية اعتصامه أمام قصر العدل ضد حالة الطوارئ. لم يكفّ، إلى أن أصبح في دفتر مذكراته النضالية اليوم، 8 اعتقالات تتراوح بين يومين وأسبوع، مرة بسبب بيان ومرة بسبب اجتماع، ومرة بناءً على تقرير مخابراتي.

عينا العشريني يلفّهما إرهاق بفعل ساعات السهر أمام الحواسيب، يتكلّم بنبرة واضحة قاسية من قلب دمشق، وعلى مسمع الجميع: أريد كرامتي، أريد أن يجرّد الأمن من أخذني إلى السجن اعتباطياً كلما أراد، بسبب وبغير سبب. يهزّ رأسه عند السؤال عن الحكومة الجديدة رافضاً: لا أصدّقهم، الإصلاح الحقيقي المنشود سيؤدي حتماً إلى تداول السلطة، وإلا فلا يُسمّى إصلاحاً.

أمس، شارك شادي في احتفال عيد الجلاء في السويداء حيث رفعت شعارات: لا للفساد، لا للتسلط الأمني، واحد واحد واحد الشعب السوري واحد.

Twitter: @ketab_n

المرأة الحموية العلمانية

«لا» رلى ركبي، ليست جديدة. أربعينية عصرية مكحّلة العينين تدير فندقاً في وسط المدينة، جعلت منه خلية نحل ثقافية، ورش عمل وأمسيات شعرية ونشاطاً علمانياً مدنياً. منذ ثلاث سنوات، حاولت مع مجموعة من العقول المثقفة إنشاء جمعية علمانية تكون إطاراً لنشاطهم، فرفض الطلب. وحتى اليوم، لم تعط الجمعية العلمانية ترخيصاً.

تعليقاً على آلية التفكير الجماعي الضروري اليوم ترد رلى: «لا وجود لمجتمع مدني سياسي في سوريا، فالجمعيات التي تعطى ترخيصاً، تكون إما خيرية أو بيئية، أما تلك التي تطلب تحريك العقل سياسياً، فمؤجلة دائماً».

رغم رفضها خطاب الرئيس الأول في مجلس الشعب، شكلاً ومضموناً، وضعها الخطاب الثاني في حالة انتظار وترقب: «ما قاله في مجلس الوزراء مساء السبت جيد، رغم أنه متأخر، ونحن الآن بالانتظار، هل ستلغى حالة الطوارئ كما وعد؟ ولِمَ الوعد؟ لِمَ لا يقول هكذا وبسهولة «أنا أرفع حالة الطوارئ اليوم»، لِمَ التأجيل والدرس؟ أمضينا 11 سنة ونحن «ندرس الإمكانية»، اليوم حان وقت التطبيق. نحن في تخبّط وانتظار بين أسئلة كثيرة. هل حقاً ترفع القبضة الأمنية، هل تلغى المادة الثامنة من الدستور التي تقضي بحكم الحزب الواحد؟ هل وهل وهل... الأسبوع المقبل يبشرنا، فلنرضَ اليوم بالانتظار».

وتعليقاً على الشكل الإسلامي الذي تتخذه «الانتفاضة السورية» تقول: لا أريد ثورة من الجامع، لكنه المكان الوحيد الذي يُسمح فيه بتجمّع.

Twitter: @ketab_n

لو قال «أرفع حالة الطوارئ»، لأسكت المطالب وامتص الغضب، وتختم الثائرة السافرة القوية بجرأة مشهودة لأولاد حماه «أليست المماطلة تشويشاً؟»

أستاذ الفلسفة المتنوّر

يكفي أن تسأله «أنت معارض؟» ليجيب: مَن هو الموالي؟ الموالاة إهانة. قبل الشروع في رفض منطق القمع السائد منذ 50 سنة، يعرض مخاوفه. «تلاميذي فلاسفة صغار، رأيتهم ينقسمون إبان الأحداث على أساس طائفي، فجننت. لا يختصر المشهد السوري بكلمة أو جملة أو موقف. هذا مجتمع حقيقي وهذه حركة شعبية أشعلها قمع دام سنوات. ابتدأت في المناطق البعيدة حيث المحافظ المستبدّ والأمن الخانق».

اليوم يرى الأستاذ الجامعي، الذي فضّل عدم ذكر اسمه تفادياً للمشاكل، أن «لا أحد يستطيع أن يقف في وجه التاريخ». مطالبه نموذجية: الإفراج عن السجناء السياسيين، تنفيذ المطالب التي وعد بتنفيذها، عدم الاكتفاء برفع حالة الطوارئ بل اتساع ذلك ليشمل إلغاء القوانين التي استحدثت بسبب الطوارئ، كالمحاكم العسكرية ومحاكم الأمن والمصادرات بما فيه ضمانة لتغيير سلوك الأمن مع الشعب. يراهن على الحوار المجتمعي واستفاقة سوريا الطارئة. «إذا وجد حوار حقيقي بتقنياته المتعددة وكان النظام أحد أطرافه، يمكن الوصول إلى صيغة تفاهم موقتة تمهّد السبيل لصيغة نهائية».

يريد تغيير النظام، ولكن بتعقل ومنطق تسلسلي يشرحه باختصار: «قانون الأحزاب سيؤدي حتماً إلى إلغاء المادة الثامنة من الدستور.

Twitter: @ketab_n

إلغاء المادة الثامنة بدوره سيفرض نمطاً جديداً من الانتخابات. وقانون الانتخابات الحديث المرجوّ، سيؤدي إلى تغيير النظام».

سائق أجرة حمصي ومزارع من درعا

على ضفاف الجلسات الخاصة وحلقات النقاش الكثيفة والكثيرة، يكتشف المواطن السوري اليوم شخصيته السياسية الجديدة. من يومياته ومطالبه الصغرى، بدأت نهضته التي فرضت نفسها تغييراً في منطق تعامل النظام مع الشعب. اليوم في سيارة الأجرة، هناك من يعبّر عن الحرية التي يريدها بأبسط المطالب. فابن حمص الثلاثيني لم يتخصص في قانون الطوارئ ولا يملك رأياً واضحاً في قانون الأحزاب. ابن حمص العامل يرفع يده باتجاه سيارة أمن ممر على يساره. «هذا يحق له أن يركن أينما يشاء، بينما نحن سائقي الأجرة، نغذّي مدخول الدولة يومياً بسبب عقوبات مخالفاتنا».

أما ابن درعا الذي أطلق الشرارة الأولى، فيقول «قد لا أعرف الحرية التي أريدها، لكنني أعرف أنني لست حرّاً». كان يتحكّم بالري والبناء والزراعة، محافظ فاسد مستبدّ، لولا دمويته ربما لما توسّعت الانتفاضة. كان يتحكّم بحياتنا رجل يذلّنا باسم سلطته. نحن بدأنا بمطالب محقة، و لم نرفع صورة الرئيس يوماً ولا هتفنا بأي شيء سوى «الحرية»، و«الشعب السوري واحد»، و«الشعب السوري ما بينذلّ» ورفعنا 14 مطلباً للرئيس ومنها قانون الطوارئ والأحزاب. ربما لم نبدأ بحركة واعية لها إطار جامع، لأننا بدأنا من غضب، لكننا يوماً بعد يوم، نعي حرّيتنا أكثر بالحوار، وبوأد الفتنة وحفظ الأرواح. ولا مكان للمؤامرة بيننا، نحن

Twitter: @ketab_n

شعــب يملك ما يكفي من الوعي لقصف الفتنة حيثما وجدت، فقط نريد الحرية، لنتشارك في بناء وطن.

Twitter: @ketab_n

غالبية صامتة

بين شارع التملق للنظام وتخوين كل هاتف باسم الحرية، وشارع التعطش المطلق للثورة كيفما جاء شكلها وحسبما أتت مفاعيلها، هناك شريحة كبرى لم تحسم موقفها، وقد تكون الأكثر عقلانية، والأقل عاطفية في سوريا.

لم تتكلم هذه الغالبية بعد، وذلك لأسباب كثيرة، أبسطها أن لا أحد يسمعها في الضوضاء وفي احتقان ولّد لوائح شرف وعار تصنّف الناس نسبةً لآرائهم. وأعقدها أن آلية العمل السياسي الجماعي التي اخترعها العقل البشري تنعدم في بلدٍ يحكمه حزب واحد إلا إذا كان كما حال الغرب، تتناوب الأحزاب وتتنافس على السلطة، وهذا ما يسمّى بحلم اليقظة في حالة سوريا. فإذا عبّرت الأحزاب المتوافرة في دمشق، تعبّر عن النظام الذي سمح لها بالوجود كما تعبّر بما يتعارض مع مفاهيمها كأحزاب تغييرية وبالتالي مع قواعدها الشعبية الحقيقية.

تتمدد هذه «الأغلبية الصامتة» في مختلف المناطق والشرائح الاجتماعية. من كلية الهندسة في جامعة دمشق إلى دوائر المثقفين الراقدين على ضفاف الماركسية والقومية السورية والقومية العربية، إلى نوادي الليل الشبابية، إلى أسواق دمشق القديمة وتجارها. وهي تتسع أيضاً لتشمل الفلسطيني الذي لم ينخرط في حزب البعث لكنه شاكر الجميل لنظام منحه الشعور بالمواطنة من حيث حق التملك والعمل والتعلم وبالتالي

Twitter: @ketab_n

حق العيش بعد أن سلبت أرضه، من دون عنصرية اجتماعية. تكبر دائرة هذه «الغالبية» أكثر لتضم المفكرين والناشطين الذين يصرخون مقالات وتصريحات تدعو للتغيير ولكف العنف كما تدعو المتظاهرين للهدوء، فيما يستمرون بالتظاهر. هذه الغالبية هي بمثابة «شبكة الأمان» التي تستطيع أن تقود التغيير مهما كان شكل انطلاقته إلى النهاية السعيدة المرجوّة بما يضمن أمن البلاد ووحدتها، كما يضمن استمرار «لاءات» الثورة حتى تتخذ الدولة شكلاً سليماً.

جامعة دمشق مصغّر عن سوريا

يقف فرع جامعة دمشق لحزب البعث في تجمّع البرامكي حيث كليات الحقوق والهندسة والعلوم والاقتصاد والشريعة والسياحة. صرح كبير بحجم نصف كلّية تقريباً، على يسار كلية العلوم حيث علا هتاف «حرية» صغير الأسبوع الماضي فارتفع قبالته هتاف تأييد وتخوين. من لم يبال بالهتافين، ربما اكتفى بالجلوس في الكافتيريا حيث تعلّق إجمالاً صورة الأسد الأب على حائط والابن على حائط آخر. من لم يصرخ ليس بالضرورة صامتاً، لكن «لا أحد يسمعه» تحت «الضوضاء».

حسن حميدوش أحد أولئك الصامتين. تلميذ سنة خامسة في كلية الهندسة يقتبس محمود درويش: «اكتب صمتي». فلا تقنعه «الثورة»، تماماً مثلما لا يشبهه التملّق السائد وحملات التخوين ولا تعبّر عنه تظاهرات التأييد وشكلها. حين سقط شهداء درعا وخرجت تظاهرة التأييد كان يسأل: ما المانع أن تهتفوا بالروح بالدم نفديك يا درعا مع هتاف فداء بشار؟ ثم انكفأ، ثم سكت، واليوم يجد نفسه ميّالاً إلى

Twitter: @ketab_n

البحث عن إمكانية الحل الذي وعد به الرئيس لكنه يعارض آلية التواصل مع المعارضة.

من حديقة كليّته يسأل «لِمَ الاستماع إلى من يملك القواعد الشعبية فقط؟ لِمَ لا يعطى المفكرون المعارضون مكاناً لإيجاد الحل؟ ثم يعدد الأسماء التالية بسرعة المطّلع: ميشال كيلو انتقد شكل الوجود السوري في لبنان والخسارة اللبنانية وكان معارضاً مقنعاً. هيثم منّاع يتحدث باسم اللجنة العربية لحقوق الإنسان من منفاه. عام 2003 إبان غزو العراق أعلن أنه يفضّل الموت على الدخول فوق دبابة أميركية. برهان غليون، أستاذ الاستشراق في السوربون والطيّب تيزيني مفكّر أكاديمي... أنا أريد أن أعرف دولة يصلحها هؤلاء وأمثالهم، لا شيوخ العشائر والقبائل والطوائف».

كل القصة صورتان

تحت صورتَي الكافتيريا حيث تنشغل طالبة شقراء بهوايتها كبصارة في القهوة مع زميلتها، وتنقسم المحجّبات بفرز مذهبي فاقع مؤلم، لا تكاد تسمع نفسك إذ تتكلم. طاولة تصف المؤامرة وتفصّلها، وطاولة تبحث في الحل. وقربهم على مسافة جانبية، تجلس فلسطين. لا تجيب عند السؤال، تعبّر عن التباسها الدائم بظل نكبتها. «هي القضية الوحيدة في حياتي» يقولها مناف معجل فيختصر السؤال. لا يريد أن يحكم ويحكي فهو «ضيف لا دخل له». ورغم ذلك ينعطف قائلاً: بالنسبة لي كفلسطيني، النظام أعطاني حقوقاً لم تمنحني مثلها دول العرب. في التصنيف نقول: حوراني، حلبي، فلسطيني... ولا نفرّق! هويتي مثل

Twitter: @ketab_n

هوية حسن بفارق واحد من حيث الشكل، فعلى بطاقتي صورة القدس بينما بطاقة السوري عليها صورة الجامع الأموي...

وإذا بحثت عن «الفلسطيني» في دمشق تجده في أستاذ جامعي وطالب هندسة وطب وصيدلي وقومي سوري أو قومي عربي أو ماركسي أو فتحاوي أو حماسي أو أي شيء آخر، باستثناء موظف الدولة.

يضحك سائق السيارة العمومية راجياً أن تنتهي الازمة لأنه يعيش مع قلق دائم. لأنه لا يجد سبيلاً معبّداً إلى قريته في صفد، ولأن بيته في مخيّم اليرموك ليس جنة عدن. أما سمير عيسى، الخمسيني، فيعدّد أسماء الصحافيين الفلسطينيين في بيروت، ويدرك مساوئ نظامه ويعدّدها ثم يصلي لصموده بأي ثمن: حتى لو كان تغييراً جذرياً عميقاً، ولكن ليبقى هناك من صمود، ليكن تغييراً على يد هذا الرئيس، فأنا لا أملك من أثق به أكثر بين الحكام العرب.

المثقف العلماني: الكاتب والجرّاح

من يطلق على نفسه تسمية «شغّيل ثقافة» يجلس في قمقم إبداعه ويمتنع. نجيب نصير لا يعجبه شيء. لا شكل الثورة ولا شكل الحكم يعبّر عنه. «فصام» هي الحال: في حزبه وفي وطنه كما في شخصيته المجنونة الخمسينية وبرّاده الذي يحوي شاياً وفودكا في مكتب صارخ باللوحات وصور أعمال مسرحية ومسلسلات درامية وكتب ومكتبات صغيرة مفتعلة في أرجائه. لكاتب السيناريو ومدير تحرير فكر، انفصامه المعبر:

«كنت في العمل السري منذ عام 1977، عشت معارضاً، كنت بين الموقعين على «بيان 99» الذي رفعناه من مقاهي دمشق حين تسلم

Twitter: @ketab_n

الرئيس الحكم وطالبنا برفع الطوارئ وتعديل الدستور. كنا اثنين فقط من القوميين السوريين: أدونيس وأنا، حينها وصفنا عبد الحليم خدام بعملاء السفارات الخونة. اليوم ظهر الخائن، وأين عبد الحليم خدام اليوم، وأين مطالبنا؟

يصيبنا الفصام، فصام أن ترى الاستفاقة الاقتصادية مصحوبة بتخلّف وفساد وتراجع زراعي. لا تقنعني بأن أدونيس وبائع المازوت في نفس المكان. لا تقنعني بأنني مثل أي واحد في جامع النور ولا تقنعني بأنني لست معارضاً.

كلمة «معارضة» تثير السخرية فالمعارضة أثبتت لاجدواها، وأثبتت أن لا شخصية لها. الدليل هو ولادة ما سمّي «قوائم العار والشرف» لتصنيف المثقفين بين خونة وعملاء وشرفاء. قوائم للمحتجين وقوائم للمؤيدين، فترى أسماء الكثيرين من المفكرين والفنانين والممثلين في قوائم المجموعتين!! كيف هذا؟ المعارضة كفكرة ثقافية هي «النكش في المستقبل، الاستشراف».

الأمر لا يعالج بروحية «ريال مدريد – برشلونة» يا شباب. المثقف دوره أن يكون جرس مستقبل، وإلا فما قيمة ثقافته؟

لا تكاد تهادن ثورته حتى تعود من جديد: كيف لشيخ الموالين «البوطي» قناة دينية وأنا محروم من قناة بموجب هذا النظام، ومحروم من إنشاء جمعية أو نادٍ. أما الحل، بحسب قاموس الشخصية الغريبة الملوّنة: الدولة أيضاً تكنولوجيا، فلنستورد دولة.

بكلمات أخرى وفي دائرة الفكر ذاتها، يفسّر حسان سلوم: الدولة المدنية الحقيقية. الدستور يحوي مواد دينية، قانون الأحوال الشخصية،

Twitter: @ketab_n

انبعاث السلطات، الحل هو بالدولة المدنية العلمانية. التغيير يستدعي العقل وليس وقت ثورة عاطفية، بل إنها أكثر فترة تطلباً للتفكير والعقل، والمطلب اليوم هو الدفع باتجاه دولة مدنية بوحدة الحقوق لا تميّز على أساس الجنس والعرق والطائفة. لا مانع لي من أن أدفع الثمن باتجاه هذا التغيير. لكن الأسئلة تراود عقلي:

ما الصيغة المطروحة؟ لم وصلنا إلى مرحلة الدم بسرعة؟ قطعاً ليست الدولة وحدها من يحمل السلاح، هل هناك قوى تدفع باتجاه السلاح وإلا فمن أين يأتي؟ في تاريخ سوريا، في عام 1978 استُعمل السلاح بوجه السلفيين ودخلت البلاد في حمام دماء، وانتهى بحسم عسكري.

رغم الأسئلة الكثيرة والأفكار الكثيرة والقلق الوفير في كل المكاتب وعيون الطلاب والعمال، تنام دمشق بفصامها على بصيص أمل وحيد هو التغيير الذي تنتظره بقلق العذراء، أو بقلق الأرملة منذ 50 سنة. كاتب السيناريو يختصره بضحكة شقية: أعطيناكم طنجرة عام 1963 وحتى اليوم لم تنته الطبخة، ردّ لي طنجرتي لأصنع أنا الطبخة.

Twitter: @ketab_n

سوريا تستعد للحوار
بستان دمشقي ومزهرية لبنانية

في أواخر آذار الماضي، ظهرت في شوارع دمشق لافتات تبث النفس القومي السوري مثل: «طائفتي سورية». مع تصاعد وتيرة القلق ظهر نوع جديد برسائل مباشرة أكثر: «احذروا رموز الفتنة، حاصروهم». ثم تحوّلت الرسائل إلى وصايا: «سرّ مناعة سوريا استقرارها». وعشية رفع حالة الطوارئ، توضحت الرسالة بإعلان جديد يقول: «للإصلاح طريق واحد، يقوده بشار». ماذا يدور في عقل القيادة السورية؟

تستمر القيادة السورية في تعزيز قنوات التواصل مع العشائر ووجهاء المناطق والقيادات الشعبية، فيما تسوّق لحل سياسي مفاده حوار وطني شامل وجامع للبحث في المستقبل، يكون برنامج عمله: إيجاد آلية انتخاب مجلس الشعب، ومشاركة الأحزاب في الحكم واستحداث قانون الأحزاب. يستمرّ قصر الشعب في طمأنة السوريين «نعم، تتربّص بنا خيوط خارجية، لكنها محدودة وغير قادرة على إسقاط نظام. الحراك طبيعي، وروح الشباب وثورة التغيير ضرورية ولكن ضمن الثوابت القومية التي لا نقبل تجاوزها، كما لا يراد للحراك أن يتحول إلى «ديني» بل يبقى المسعى إلى تأطيره علمانياً.

Twitter: @ketab_n

العشائر في مقابل التطرّف

بينما تحرص دمشق على معالجة أزمتها، تصرّ على عدم تفصيل حلول على مقاس السلطة، وتتمسّك الآن بالتريّث إلى ما بعد الاستماع إلى جميع وجهات النظر، ريثما يخرج الحوار بنموذج بديل للّعبة السياسية الداخلية. ورغم ظهور وجهة نظر «نخبوية» تعارض الاستماع للعشائر... يعتبره البعض الآخر ركيزة لاحتواء التطرّف الذي هو نقيض الإسلام السوري التقليدي.

وينقسم الإسلام السوري، بحسب المصادر المختصة إلى ثلاث شرائح:

إسلام المدينة بنسبة حوالى 25 في المئة من سوريا، وهو الإسلام المعتدل الذي يستطيع أن يكون بوصلة، وهناك إمكانية تحاور معه.

إسلام العشائر بنسبة تقارب 50 في المئة، وهو مزيج بين عادات وتقاليد وموروثات حضارية اجتماعية ودينية، وهو الذي يتابع قصر الشعب اللقاءات مع وفوده والتواصل مع قياداته.

وإسلام الأرياف بنسبة 25 في المئة، وهي الساحة حيث تتسرّب السلفية عبر بعض شرائحها إلى المجتمع، وحيث نبتت الأحزاب المتشددة.

ومن قصر الشعب اليوم، بنظرة إصلاحية مختلفة، يبدو الخطر الأبرز هو التطرّف، أينما وجد. «المتطرف واحد، مسيحياً كان أو إسلامياً، سنياً أو علوياً، لأنه عدو الوحدة الوطنية»، والرهان على النسبة الأكبر، وهي الإسلام المعتدل، القادر على الحوار، لاحتواء التطرف وتدجينه بما يضمن استقرار البلاد والوحدة الوطنية.

Twitter: @ketab_n

اللاذقية تصارع شبح المذهبية

في اللاذقية، يقرع التطرف أجراسه الدموية، وكانت تجلياته الأولى: التنكيل بجثث الشهداء الذين حملت أجسادهم وشوماً دينية. معظم الأهالي يحذرون من تصاعد خطر الانقسام الطائفي، ومنهم الزملاء الذين يؤكدون تصاعد خطر ملامح الفتنة المذهبية يومياً. ويشرح هؤلاء كيف يجري اللعب الأمني بين الحارات المصبوغة طائفياً. وفي هذا الإطار تؤكد المصادر الأمنية ظهور «طابور خامس» في الشارع، يلعب على الوتر الطائفي بين الحارات وبين الاحتجاجات. هذا فضلاً عن الصفحات «الفايسبوكية» التي نشرت أخباراً عن مجموعة من المطلوبين بتهمة التخريب الأمني بالأسماء والجنسيات السورية، العراقية، اللبنانية، والتركية، ناسبة معلوماتها إلى «مصادر أمنية مسؤولة».

ابن اللاذقية يعرفها. لهذا السبب كرّس الممثل صالح مخيبر وقته، وترك جامعته ليتابع ما يجري في المدينة. ابن اللاذقية يعرف الفرز الطائفي بين شارع وشارع في منطقته. وللسبب ذاته تواصل معي محمد عجان، وهو مدير شركة في دبي، طالباً أن يعبّر عن مخاوف الشباب السوري المغترب، بسبب ما يصله من أهله والإنترنت والهواتف عن منطقته...

آلية الحوار الوطني: مع مَن ومتى؟

في توجيهاته للحكومة الجديدة، لمّح الرئيس السوري بشار الأسد إلى حوار وطني يخرج بنموذج عن قانون الأحزاب. كذلك يدور همس بأن أجندة الحوار ستتسع لتشمل البحث في آلية انبثاق مجلس الشعب، ما يعني أن كل شيء قد يتغير.

Twitter: @ketab_n

وعلى حافة هذه الأفكار، يعلو صوت مخاوف «النخبة» باختلاف وجوهها بين صاحب سلطة وصاحب نفوذ ورجل أعمال و«مشروع وزير» ورجل ثقافة: الحل ليس بإرضاء زعماء العشائر، بل شباب التظاهرات. الحوار يجب أن يشمل النخب المتعلمة، وألا يقتصر على أصحاب الخلفيات العشائرية. نريد المفكرين السوريين والشباب السوري الرافض الواعي على طاولات الحوار الوطنية، نريد أن نرى المتظاهرين الشباب حول طاولة الحوار... الحلّ بالتخلي عن كل طبقة الفساد تحت سقف الرئيس، ولو كان الثمن بمسامحتهم، ولكن فليرحل كل من أساء للمواطن والدولة. ورغم ذلك، لا تستطيع الأقلية المحتجة أن تتكلم باسم الأغلبية الصامتة.

استمرار الاحتجاج، ضمانة الإصلاح؟

رغم تباين وجهات النظر حول المرحلة الآتية، والمخاوف الكثيرة، يرتفع النَّفَس الإصلاحي تدريجاً بين معظم الأوساط التي تتمتع بالنفوذ، ويعلو السقف. تتسع حريةً تسمح لمن كان موالياً أن ينتقد النظام، ولمن يصرخ في الشارع أن يثق برئيسه، وللناشطين بالإعلان عن أنفسهم وأسمائهم والتصريح للإعلام من قلب سوريا وأمام العالم.

في الوقت ذاته، تبذل القيادة السورية جهداً لامتناهياً للوصول إلى الحل والخروج من الأزمة بحنكة وإصلاحات ترضي أصحاب الحقوق. ويبقى رهانها على قبضات حديدية متعقلة تصف المرحلة بالدقيقة لكنها تصرّ على «ترويضها»، ومن دمشق إلى بيروت تبشّر بالآتي:

حساسية المرحلة العالية، لم تلغ إمكانية العمل على حل منطقي

Twitter: @ketab_n

وسريع، لكنه كالسير على «خط النار». الدفع الشعبي ضرورة ضاغطة باتجاه الإصلاح، والشارع هو ضمانة استمرار مسيرة الحقوق، شرط تنظيم نفسه للمحافظة على سلميته بما يصون الوحدة الوطنية.

ثلاثة أشهر، ونريكم أين ستصبح سوريا، يقول قيادي سوري. الحلّ سيستدعي وقتاً للحوار وإيجاد آلية التغيير. المحنة «ستنكمش»، لكنها ليست كبسة زر. تشرح الكلمات السورية نفسها وموقعها ختاماً: «لبنان مزهرية بينما سوريا بستان. المزهرية تُعدّها وتنسقها يد معيّنة، أما البستان، فينتج أزهاره بنفسه ويفرضها على الصورة. نحن نبحث في الحل، ولكن حل أزماتنا من الداخل السوري. نحن لا ننهي أزماتنا بالصفقات، ولا بالتسويات مع الخارج، فسوريا ليست لبنان، ولا قطر. لن ننتظر حلاً من الخارج. البستان يمرّ في فصول ليجدّد نفسه، بينما المزهرية هناك من يجدّدها».

Twitter: @ketab_n

تاريخها في شوارعها

في سوريا آثار هوية تفتقدها بيروت. سيراً على الأقدام أو في جولة سيارة، ترمق دمشق زائرها بنظرة الانتماء: عربية أصيلة تحتفظ بذكريات الأبطال ومعارك التحرير، عيدها الأول عيد الجلاء، وساحتها الأكبر ساحة الأمويين. تشرب بيرة اسمها «بردى» وتحج في الزمن الذي لا تزال آثاره واقفة وسط العواصف. تغار العين البيروتية العابرة في شوارع دمشق القديمة. لو أن بيروت احتفظت بثوب زمانها! تؤلمها سوليدير إذ تمر تحت باب شرقي أو باب السلام أو القوس الروماني في الشام العتيقة.

ما تفتقده عين زائر بيروت من تراث لوقفات العز، يتناثر فوق لافتات شوارع الشام. هنا شارع ميسلون وهناك شارع أبو العلاء المعري وخلفه ساحة العباسيين وبقربه جادة الشرف الأعلى. هنا في دمشق، للصحافي الشهيد الأول شارع، وللقيادات المقاومة البطلة ساحات: سلطان باشا الأطرش، ويوسف العظمة والتغلبي وعلي الأرمنازي وكثر كثر. ساحة للعباسيين، وشارع باسم بغداد وملعب لذكرى جلاء الفرنسيين. أما بيروتنا، فتنام في بعض شوارعها على أسماء ضباط استعمارها الفرنسي: شارع لغورو في الجميزة، وشارع لسبيرز قرب الصنائع وشارع لكاترو وشارع لكليمنصو في قلب رأس بيروت. ينقصنا شارع بلفور أو سايكس بيكو لتكتمل خريطة المحتل فوق أسماء شوارعنا!

Twitter: @ketab_n

سوريا لا أسود ولا أبيض

تغمر سوريا لبنان في الخريطة، كما في كل شيء، بدءاً بالمنافذ الحدودية وصولاً إلى الأمم المتحدة. لبنان شأن سوري. ومقاومة لبنان لطالما احتمت بدرعها الدمشقية، وعقول الشارع اللبناني مستنفرة حيال الأزمة السورية اليوم. حلول لبنان الحكومية وغير الحكومية تنتظر على الأرجح الحلول السورية. ومن لبنان إلى دوما ودرعا وحمص، يحق للخوف أن يقرع نواقيسه. الخوف على لبنان، الصيغة، المقاومة، الأقليات، كما الخوف على استقرار سوريا.

لا أحد يستطيع أن ينزع عن الدماء أحقيتها، ولكن لا بد من مشاهدة أرض الواقع. رغم أحقية المطالب والشهداء، ثمة هواجس قوية حول محاولة للتسلل من خلال هذا الحراك المتنامي، فالناس الذين يتظاهرون تحرّكهم دوافع عديدة: معظمها طائفية نظراً لطبيعة المجتمع في دوما أو في درعا أو في مناطق التظاهر في حمص. تلبيسة مثلاً هي كالضنية، وإن نزلت إلى «أشرفية دمشق»، فذلك لا يعني أن حريتهم صائبة بالكامل. لا أحد يبرّر حكم الحزب الواحد، ولا أحد يعبّر عن إعجابه بالطريقة الاستخباراتية السورية التي تخنق حياة الناس، كما لا أحد يستطيع أن ينكر أن دمشق اليوم مختلفة عن دمشق الأمس القريب.

في المقاهي والصحف والشوارع، علا سقف الكلام والمطالب وحتى الشتائم، الأمر الذي كان غائباً كلياً عن سوريا منذ بضعة أشهر.

Twitter: @ketab_n

في الدكاكين وسيارات الأجرة والجامعات والمكاتب والشوارع، الجميع يعيش هاجس الخوف والقلق. لم يعتد السوري طرح الأسئلة الكبرى. أصلاً لم يكن يحلم، قبل أيام بأن يشهد إزالة حالة الطوارئ أو أن يولد في زمنه قانون جديد للأحزاب. ابن دوما انطلق من مطلب بسيط أشبه بمطالب ترفع لانتخابات مجالس بلدية، لكن الإحاطة الإعلامية بالموضوع والمعالجة الغبية من قبل بعض الإعلام الرسمي، أوصلتا سوريا إلى ما هي عليه اليوم، من دون إغفال دور الناشطين الحقوقيين و«تيارات المجتمع المدني» والمنظمات غير الحكومية التي تنشط من لاهاي إلى السويد إلى لبنان باتجاه سوريا. المواطن السوري لا يملك أصلاً شجاعة أن يفكر بإمكانية رفض النظام، وما يحركه مختلف عمّا يسوَّق له. مطالبه إصلاحية بسيطة، من الحرية إلى الوظيفة والشقة ولقمة الخبز الكريمة.

إذا حاولت أن تنظر من زاوية شبه حيادية، ترى أن فريقي السلطة والمحتجين عرضة للإساءة من قبل مناصريهما. فلا الخطاب التخويني يصلح اليوم، وهو ما تتبعه الدوائر الموالية في وصف التحركات، ولا التغطية الإعلامية، والتعطّش المطلق لأي نوع من الثورة يصلح في معالجة الوضع السوري بينما تتربّص به كل أنواع المؤامرات: من تركيا إلى الخليج إلى العراق إلى إسرائيل وأميركا، كل ذي مصلحة يحاول انتزاع مصلحته على حساب الدم السوري اليوم. لكن كيف يمكن وضع حد لكل هذا؟

لا أحد يعتقد أن الحل الأمني خاطئ، خاصة بعد سماع وجهة نظر القيادات السورية التي تعد بالحوار. فإذا كان الحوار آتياً لا محالة، يستحسن أن يحصل الفرز، حتى يمكن أن يجد النظام من يجلس معه حول الطاولة، في شراكة لا بد منها ولا مفر منها. يستحسن أن يوضع

Twitter: @ketab_n

كل نوع من المعارضة في خانة معيّنة. المعارضة بصورة بانورامية هي كالآتي:

نخب ثقافية وفكرية معظمها علمانية، وبعضها من أصول بعثية وقومية عربية، نخب شبابية مطلبها الوحيد الحرية، «إخوانجيون» يجدون أرضية استقطابية خارج سوريا أكثر منها في داخلها، ولو أنهم قوة منظمة وبعضهم يريد إسقاط النظام والبعض الآخر يريد تسوية تجعله شريكاً في الحكم الخ... هناك سلفيون يريدون إسقاط الحكم العلوي، تيّار المجتمع المدني (هنا ترتفع علامات الاستفهام الكثيرة)، رجل أعمال يريد حصة في السلطة، وصاحب امتياز يخاف على مصالحه وغيرهم.

حين تفرز المعارضات، يصبح الحوار ممكناً. والحوار خيار حتمي. الحل الأمني الذي اعتمد، سيؤثر على كيفية الحوار وجديّته. فحين ترى ميشال كيلو أو برهان غليون حول طاولة الحوار يختلف المشهد عن رؤية أزلام القرضاوي ومقلديه.

الرئيس السوري بشار الأسد يستطيع أن يكون الرابح الأكبر من كل ما حصل، لأن لا قدرة لأحد سواه على قيادة سفينة بناها والده (ووالده هنا ليس حافظ الأسد فقط، بل حزب البعث الذي أصبح لزاماً أن ينتهي دوره التأسيسي ليضمحل نهائياً تبعاً لقوانين العصر والتحديث). لا يزال حتى اليوم يمتلك درعاً ثلاثية لم تهتز: تجار دمشق، صناعيو حلب والأقليات الطائفية، ثقة عامة الناس به نظراً لسياسته الخارجية وخياراته القومية، والجيش السوري الذي تتنوّع فيه الطوائف.

الحل بنزع الصبغة الشمولية عن الفريقين: المعارض والموالي. كل من يعرف سوريا يعرف أنها متنوعة ومختلفة وأشبه بموزاييك طوائف وإثنيات

Twitter: @ketab_n

وأفكار وأيديولوجيات. كل من يعرف سوريا يعرف أن أغلبيتها لا تزال صامتة، وهواجسها وثوابتها لم تتغيّر. كل من يعرف سوريا يعرف أن المواطن السوري ليس كما تصوّره «الجزيرة». والدليل: آلاف الشباب في مجموعات «الفايسبوك» الموالية ينشطون أكثر يوماً بعد يوم، أعلنوا يوم الجمعة المقبل «جمعة الأسد» مقابل من أعلنوها «جمعة غضب». هؤلاء الشباب لهم كلمتهم أيضاً، الآلاف يضعون صورة الأسد على مواقعهم الشخصية، و لم تتغيّر وجهة نظرهم بعد تقدّم الحل الأمني، بل صمّموا صوراً تحيّي الجيش السوري.

ليس هناك أسود وأبيض، ألوان كثيرة في الشارع السوري، وأي حكم مسبق يظلم سوريا وأبناءها مهما كان اتجاهه وحرصه وصدقه. على كل من يريد أن يعطي رأيه بالأزمة السورية أن يزور درعا ودوما وتلبيسة ودمشق أولاً ثم الخروج بحكم. سوريا ليست مصر.

كل من لا يلتبس عليه الوضع السوري يصبح مطعوناً بمصداقيته، وكل من يملك رأياً واضحاً مسبقاً هو غير الواضح، وكل من يبرّر لظالم هو جاهل وكل من يتعطش للفوضى هو مغامر، وكل من لا يصرخ بصوت أعلى من صوت السلفية ليس بثائر حقيقي... لأن الحرية والثورة لن تكونا على يد سلفيّة ولا عشائرية ولا رجعية ستعيدنا مئات السنين إلى الوراء. من لم يحرّر نفسه لا يستطعْ أن يحرّر وطنه. سوريا في أمسّ الحاجة للمعارضة الواعية اليوم، لأنها تحوك لباساً جديداً لجسمها، أما الرأس فواحد.

Twitter: @ketab_n

محامون يدّعون على الجزيرة

أينما تذهب في دمشق، تسمع الشتائم والتخوين بحق بعض القنوات الفضائية التي تتابع أحداث سوريا، وعلى رأسها «الجزيرة» التي أطلقت عليها بعض المجموعات الشبابية على موقع «فايسبوك» لقب «الخنزيرة». وفي هذا السياق، قرّر الجسم الحقوقي التحرك عبر القانون، فتقدّمت «نقابة المحامين السوريين» بادّعاء على القنوات التي «تبث الفتنة وتؤدّي دوراً تحريضياً في سوريا بتلفيق الأخبار وافتعال الأحداث».

تشكلت لجنة قانونية مختصّة لجمع الأدلة والوثائق لدعم الادّعاء. وكانت «رابطة الحقوقيين السوريين»، التي تضم أكثر من خمسة آلاف رجل قانون، قد بدأت منذ أسبوعين بجمع الأدلة لرفع دعاوى قضائية ضد بعض الفضائيات أمام المحاكم السورية، والمحاكم في البلدان التي تبث منها تلك الفضائيات.

اللائحة السوداء: «الجزيرة»، «العربية»، «بي بي سي»، «فرانس 24»، «بردى»، و«أورينت».

ورغم أن النقيب نزار سكيف لم يذكر أياً من تلك القنوات بالاسم أثناء إعلان الدعوى، لم يمتنع محامون آخرون عن تسمية القنوات التي تطالها الدعوى ومنهم: ياسر الحاج من حماه، أنطون خليل من حمص، حسام حنيظل من حلب، وأحمد عيد من السلمية، الذي يرى أن استقالة مدير

Twitter: @ketab_n

مكتب «الجزيرة» غسان بن جدو خير دليل على ابتعاد القناة عن المهنية، بالإضافة إلى زملاء آخرين، منهم جومانة نمور ولينا زهر الدين. وفيما يركز اتهامه على القناة القطرية، يوسّع المحامي أنطون خليل اللائحة: «الجزيرة»، و«العربية»، و«بي بي سي»، و«أورينت». ويضيف إلى ذلك المحامي حسام حنيظل الذي يخدم كمجند إجباري في الجيش في ريف دمشق، قنوات «فرانس 24» و«بردى» التي يصنّفها «شريكة في الفتنة والدم». أمّا المحامي ياسر الحاج فيرى أن القنوات المتهمة تعاملت كأي طرف يشارك في الأحداث وإحداثها، ويؤكد إمكانية معاقبتها بموجب قانون العقوبات السوري، ويوضح أنطون خليل كيف يمكن إدانتها بالدلائل: الشهود العيان وكيفية جمعهم وإدلائهم بشهادات كاذبة، إعطاء منابر إما لرموز الفتنة كالقرضاوي، وإما للناشطين من الخارج مع المنظمات الدولية المدعومة علناً من حكومات غربية، وإما لأعضاء الكنيست الإسرائيلي للبحث في وضع سوريا، واللعب على الوتر المذهبي في طريقة عرض الخبر وتقديمه وتوصيفه، فضلاً عن بث خبر قبل أن يحدث، لتجييش الناس وافتعال مقاطع فيديو مركّبة.

«بعض القنوات تقول سنّي هنا وعلوي هناك للّعب على الغرائز المذهبية، خاصة «بردى» و«أورينت»، يكشف حسام حنيظل من مكان خدمته في المعضمية في ريف دمشق: «الحركة هنا طبيعية، وبين الفينة والفينة أسمع أنباءً عن انفجارات، وصرخات غضب، وما من صوت حولي. كما أنني يوم الجمعة وإثر إذاعة نبأ عشرات آلاف المتظاهرين، هاتفت عدداً من أصحابي وأقاربي في مكان التظاهر، وأكدوا لي أن الخبر عارٍ من الصحة. الدقة مفقودة، والأجندة جاهزة لتقولب ما

Twitter: @ketab_n

يحدث بحسب مخططات كل قناة. فهي تصنع الخبر أولاً ثم تنقله كما يناسب أجندتها».

وريثما تكتمل عملية جمع الأدلة، لم تحسم الدعوى مصيرها. لكن الجسم القضائي عموماً يرجّح أنها ستقدم في المحاكم السورية، ويمكن تطبيق أحكامها في الدول التي يتم التنسيق القضائي معها بموجب الاتفاقيات القضائية. وهذا لا ينفي أن أية دعوى لن تقف بوجه حرية الإعلام الإلكتروني المطلقة: «تويتر» «وفايسبوك» و«يوتيوب». وفي ظل ضعف الإعلام السوري وبحثه عن المبرّر قبل البحث عن الحقيقة التي تبرّر، وفي ظل التباس الخلفيات السياسية لمعظم القنوات العربية، سعودية كانت أو قطرية أو أميركية الهوى: لا يزال الشارع مجهولاً، والمواطن السوري غريباً عن كل ما يسوّق عنه. هذا ما تقوله مفارق دوما ودرعا وحمص ودمشق. الواقع يختلف كثيراً عن الشاشة، هذا ما تأكد لنا عبر جولة ميدانية.

وللوقوف على رأي بعض القنوات المتهمة، اتصلت بـ«الجزيرة» و«العربية»، فرفض أحد المعنيين في الأولى التعليق، مشيراً الى أنه مطلوب من المعنيين في «الجزيرة» عدم التصريح في هذه المرحلة، فيما رد أحد المسؤولين في «العربية» بأن بيان الدعوى المرفوعة بحق بعض الفضائيات لم يذكر اسم القناة، وهذا ما لايتيح له التعليق.

Twitter: @ketab_n

من دمشق إلى عشيقتها اللاذقية

رحلة الساعات الأربع براً تبدأ بالقلق من محطة الحافلات في حرستا –دمشق. عليك أن تقصد مكتب ضابط محطة «البولمن» لتجده صباحاً بلباس الرياضة مع جمع ببزاتهم الرسمية. تناوله هويتك ليختم تذكرة الرحلة بكلمات: «لا مانع» كي تتمكن، أيها اللبناني، من الصعود إلى الحافلة. على المدقق الأمني أن يوقف الحافلة على المخرج، ليمرّ بين المقاعد سائلاً عن بطاقات الهوية بصوت مرتفع. لكنه لا يقترب إلا منك. يطلب هويتك أنت تحديداً من بين كل الناس. تتنقل عيناه من وجهك إلى صورة الهوية إلى مكان ولادتك وكنيتك (التي يعرف منها الطائفة) مرات عدة متسارعة في ثوانٍ قليلة. يخيّل إليك، من خلال نبضات قلبك المتسارعة، أنك في جلسة أمنية صامتة، سيتقرّر فيها مصيرك في المستقبل القريب. بعد أن يتحقق بعينيه من دون أن يسأل أي شيء، يعيد البطاقة بهدوء وتهذيب. لكن هذا لا يزيل القلق ولا الخوف، فمن نافذة الباص ترى سلاحاً روسياً بين يدي أمني بلباس مدني يمشي حول القافلة قبل الانطلاق. هذا كله قبل مغادرة المحطة، والسبب البسيط: أنت لبناني ذاهب إلى المكان الذي يصفه البعض بأنه الأكثر حساسية اليوم: مدينة اللاذقية.

مروراً بالقوافل المتوقفة في المحطة قبل الإقلاع النهائي، يشير السائق إلى إحداها: «ست رصاصات عليها»، شارحاً ما فعله القناصة بالباص

Twitter: @ketab_n

المركون، فيعلن ضمناً لكل السامعين أن الرحلة لن تخلو من الخوف عبوراً ببانياس وطرطوس وحمص وجبلة، وصولاً إلى اللؤلؤة البحرية في اللاذقية.

الحمصي: مزحة ثقيلة

ساعات الرحلة الأولى تزيّنها سلسلة جبال على اليسار ومساحات شاسعة من الأراضي التي لم تلمسها يد بشرية إلا لتعلق أسلاك الكهرباء وعلب الإرسال الصفراء التابعة لشركة الخلوي mtn على امتداد الطريق، وتمثال للرئيس الأب فوق الجبل، وبعض المشاريع الزراعية والصناعية في جبرود ويبرود.

لا أحد ينبس ببنت شفة، والقافلة ممتلئة بعمال ونساء وفتيات وشيوخ يتوجهون إلى بيوتهم النائية عن دمشق لمناسبة عيد العمال. الصوت الوحيد في المذياع يغنّي أحياناً للشام بأصوات مطرب أو مطربة لبنانية، لينتقل بعدها إلى نقاشٍ صباحي مفاده «ماذا نسمّي التحرّك؟» وجوابه الدائم: «هذه ليست ثورة». ويقرأ موجز الأخبار سريعاً بين الفينة والفينة ليبث مزيداً من القلق: عصابة مسلحة هنا، إرهابي هناك، شاحنة أسلحة من هنا.

ساعتان وتصل إلى محطة حمص. يترجّل المسافرون للأكل والراحة. يجلس السائق ليتناول فطوره، إذ يقصده بعض الرجال لتبادل الحديث. ويدور عمال الاستراحة الكثر حول الطاولات وخلف براد الأكل، بمختلف الأعمار. يفتعل أحدهم النكتة مع الوجه اللبناني الطارئ على الاستراحة فيقول: أنا من «تلبيسة»، فتلتفت كل الوجوه إليه، ليعقّب

Twitter: @ketab_n

ضاحكاً: «عم بمزح أنا مو من هنيك».

بان البحر السوري الكبير وبان الأمن

من حمص إلى طرطوس يختلف المشهد. أراضٍ تكثر فيها البيوت البلاستيكية الزراعية وخيم لبعض العمال. بيوت فقيرة تسكن الحقول، ومحال ومشاريع تجارية متواضعة تتناثر هنا وهناك، إلى أن يطل بحر طرطوس لترى فيه عشرات السفن الكبيرة الراقدة على كتف المدينة المتنامية على اليسار. عبوراً بجسر بانياس حيث «وقعت الحوادث»، تنطق ميسون عن الفتنة والمؤامرة والسلفيين. ابنة إحدى قرى جبلة الموظفة في وزارة الثقافة السورية، من مقعدها: «نحن لا نحب الرئيس فقط، نعبده عبادة، لأنه أعطانا كرامة أن نكون آخر وطن عربي يحارب إسرائيل»... عبوراً بمنطقة عبد الحليم خدّام لا تكتم كرهها له ولجماعته «المخربين» في بانياس.

تنتهي رحلة ميسون في محطة جبلة حيث تقف الحافلة مرة أخرى لدقائق قليلة فتتكلم زحمة الشارع سريعاً عن أحوالها. يمر عمّال بثياب فقيرة وميسورة، متسخة ونظيفة، فتيات محجبات وسافرات، ملوّنات متبرّجات ومهملات، سيارات من كل الأعمار والأحوال، محالّ متناثرة إلى اليمين واليسار، في سوق ملوّنة كثيفة، ورجال أمن يتوزعون زمراً زمراً، مسلحون وغير مسلّحين، مدنيين وعسكريين، في أرجاء جبلة. كل من يتكلّم يقول: أرأيت الفرق بيني وبين دمشق؟ أنا فقيرة وعشوائية وقروية ومتنوعة ويخيّم فوقي ظل أمني أشدّ ظلامة.

Twitter: @ketab_n

اللاذقية: «لا» طائفية، لا – طائفية، و«لا للطائفية»

هي المرفأ البحري الأكبر وفسيفساء الطوائف. يلقّبها بعض أبنائها بمدينة «التنابل». وبحسب إحصاءات وزارة الشؤون الاجتماعية، اللاذقية هي الأكثر بطالة في سوريا. في الحديث مع وجوه عشوائية، تلمس فرزاً طائفياً يجمّل صورة الطائفية اللبنانية بالمقارنة. «بصفتي سنياً معتدلاً»، «أنا كعلوي»، «أنا مسيحية»، كثيرون يستهلون كلامهم هكذا. وفي الشارع أيضاً شائعات عن كنيسة بمحيط حيّ «الأميركان» طبع عليها «ممنوع الشعانين يا ولاد عم العلوية»، وهتاف انطلق من حيّ «القنينص» مفاده: «العلوية عالتابوت، المسيحية عبيروت».

جيش في دشم من أكياس رمل وخوذ وسلاح على جميع مداخل «الرمل الفلسطيني» و«السكنتوري»، تجمّع كثيف لآليات الجيش في ساحة أوغاريت المتاخمة للجامع الذي تنطلق منه التحركات في «الصليبي». أمنيون بالسلاح على خطوط الفصل الكثيرة في المدينة التي تتشابك فيها الطوائف. قلق يضرب المجتمع والاقتصاد والحركة. فالمدينة التي كان يحلو فيها السهر على كتف البحر حتى ساعات الفجر الأولى، تنام الساعة الثامنة مساءً هذه الأيام. بعد ساعات الليل الأولى تصبح دروبها كمدينة أشباح. أسياخ الشاورما في المساء لا تزال سمينة و لم تؤكل، المقاهي قليلة الطاولات، والفنادق شبه خالية. وحده المرفأ البحري ينقض المعادلة، فيكاد يضاهي المدينة ازدحاماً بالسفن والمستوعبات والعمّال والشاحنات طوال الوقت.

تعبّر اللاذقية عن نموذج حقيقي لتداخل الطوائف في سوريا. فيهاالحارات حيث يغلب اللون الواحد والمشاريع السكنية المتنوّعة. لون

Twitter: @ketab_n

علوي في الرمل الشمالي، حي الأزهري، والدعتور. ولون سني واحد في الصليبي ومشروع الصليبي، قنينص، بستان حميمي، الرمل الفلسطيني، سكنتوري وغيرها. بينما يتوزع المسيحيون في حيّ الأميركان والمشاريع المختلطة التي هي الأكثرية ومنها: مشروع الزراعة، مشروع البعث، المشروع الثاني، الريجي، الأوقاف، المشروع العاشر، وغيره.

أيام أحداث الثمانينيات في حماه حيث تحرّكت الذراع المسلحة للإخوان المسلمين، وبحسب رواية الأهالي، حاول الرئيس الأب أن يعالج مشكلة التقوقع الديموغرافي الطائفي في الصليبي عبر بناء «مشروع الصليبي» وجعله سكناً للضباط وعائلاتهم، فتمتزج الطوائف هكذا. ثم بعامل الزمن، انشقت وانتقلت كثير من العائلات لتعود الغلبة للون الواحد في المشروع كما في الصليبي الذي هو أحد أساسات اللاذقية المدينة.

ورغم أن التحرّكات انطلقت من جامع الصليبي الذي تنام خلفه آليات الجيش السوري في تجمّع هو الأكبر في المدينة، كان المعتصمون بمعظمهم من «سكنتوري والرمل الفلسطيني» اللذين يتغيّر شكل الوجوه عند السماع بهما. فما هي هذه المنطقة؟

السكنتوري والرمل الفلسطيني: حزاما بؤس

تعرفها من الجيش الرابض على كل مفارقها ومداخلها في دوائر لا تظهر منها سوى خوذة الجندي المتمركز فيها. منطقة تنطبق عليها مواصفات أحزمة البؤس كما مواصفات مخيّم عين الحلوة أو نهر البارد من حيث الشكل و«الصيت». الفرق أن هذه الاحزمة ليست مأهولة

Twitter: @ketab_n

بالفلسطينيين كلهم ولا بالفلسطينيين وحدهم. هي أشبه من حيث الشكل بحزام البؤس النموذجي الذي تجده حول معظم المدن: بيوت عشوائية كثيرة لا تتعدّى الطابقين ارتفاعاً، ازدحام كثيف، «صيت» عن إيواء بعض المطلوبين وتجار المخدرات والمجرمين والسلفيين. يزيد بؤسها انعدام فرص العمل اللائق أمام أبنائها. يقطن فيها من تسمّيه اللاذقية «شريقي» وهو الوافد إما من محافظة إدلب، وإما من «جسر شغور» أو تلك المناطق المحيطة.

كلفة البيت هناك لا تتعدى ستة آلاف دولار أميركي، ما جذب الفقراء واليد العاملة الرخيصة التي تسد حاجات اللاذقية. ففي المقاهي، معظم النادلين من «الشريقيين» وفي البيوت التي لم تستعن بخادمات أجنبيات، تعمل نساء «شريقيات». وفي الوقت نفسه، غسان سلواية الملقّب بأبي نظير، الذي ظهر بصفة «إرهابي منظّم للمخربين» على التلفزيون السوري هو أحد رؤساء حاراتها. وأبو نظير اليوم وعبارته المتكررة «ربي يسّر»، هو الأكثر شعبية في المقاهي والبيوت والشارع. الكل يمازح الكل قائلاً «ربّي يسّر». ففي «جلسة اعترافه» كان «الإرهابي أبو نظير» المحكوم خمس سنوات بتهمة المخدّرات وما شابه، يعقّب كل جملة من روايته بعبارة «ربي يسّر». ولأن شخصيته وصيته، بالإضافة الى هدوئه الذي يسخر منه البعض في الشارع مرجحاً أنه بسبب «الحشيش والحبوب»، لقيت إعجاب جماهير التلفزيون السوري وموقع «يوتيوب»، أصبح الأكثر شهرة لدرجة إنشاء مجموعات «فايسبوكية» على شرفه. وطالبت به إحدى صفحات «الفايسبوك» بعنوانها: «الشعب يريد أبا نظير مرة أخرى على التلفاز!».

Twitter: @ketab_n

بين روايات الإعلام واللافتات التي تقول إن الحرية يجب أن تلتزم القانون، قلق وخوف من التخريب. في ظل «جمر الطائفية الذي كان نائماً تحت الرماد»، تتنوّع وجهات النظر والآراء اللاذقانية اليوم. سفكت الدماء في شوارعها في الأسابيع الماضية، كما ظهرت تحرّكات سلمية بعد صلاة الجمعة و لم تقمع لكنّها حوصرت في الصليبي. اعتصم البعض في ساحة تقاطع «أديداس» وقصدهم المحافظ ليسمع ما عندهم. تعرّض البعض لأملاك عامة وخاصة مثل مبنى يضم مكتب «سيرياتيل» في ساحة الشيخ ضاهر في وسط البلد، بالإضافة إلى حافلتين للجيش. منذ أربعين يوماً، والمدينة مرتبكة وقلقة ويلفّها وجوم. وتستفيق فيها الطائفية بينما يشدد البعض على ميزة تعايشها المشترك. فماذا تقول وجوه اللاذقية؟ وما الحل الذي تطرحه؟

Twitter: @ketab_n

جمر اللاذقية بعيون أهلها

لا يمكن معرفة تاريخ ميلاد الطائفية في اللاذقية، كما لا يمكن نكران صوت المذهبية المرتفع في الشارع والأفواه والمقاهي والأجيال الفتية. معظمهم يشدّد على أنها استفاقت بعد درعا. يتفق المعارض والموالي والرمادي، سائق الأجرة والدكتور والرسام، الصيدلي والمهندس وصاحب المطعم، الكاهن والصحافي وبائع الجنارك، يبرّئون أنفسهم من التهمة. تتفق كل حاراتها على أن الطائفية طارئة و لم تكن من ميزة ناسها يوماً. كثيرون يستعملون عبارة: «الجمر الذي كان نائماً تحت الرماد» لوصف الشبح المذهبي المخيّم فوق مدينة الهوى. إذا كانت جمراً تحت الرماد، فما الذي أيقظه؟ ولماذا؟ وما الذي أتى به على جميع الأفواه؟

رواية الشارع: يوميات جمعة اللاذقية

خلف ساحة «سينما أوغاريت» التي تعج بالجيش في الصليبي، يقف الجامع الذي تنطلق منه الصرخات. كل يوم جمعة، بعد الصلاة، يخرجون من بابيه، فيمر بعضهم تحت اللافتة التي تقول: «معهد الأسد لتعليم الشريعة». يصرخ أحدهم، يرد الباقون، يمشون الشارع باتجاه الجيش بطريقة سلمية أحياناً و«تخريبية» أحياناً أخرى. في الوقت نفسه، والجمعة نفسه، يحرق البعض منهم عربتَي الجيش في ساحة الشيخ ضاهر في وسط البلد، ويحطم مكتب شركة «سيريتل» ويحرقه، ويمتد الحريق والتكسير إلى طوابق المبنى الآهلة بالمكاتب والسكان. وأيضاً ضمن

Twitter: @ketab_n

أحداث الجمعة يطلق الرصاص، وأحياناً بالاتجاهين، ويسقط الدم في الطرفين.

لذلك سرعان ما تحوّلت الحرية إلى شعار الحكومة في لافتاتها العامة المعروضة، ولذلك طغى مطلب الأمن والاستقرار. ومنذ درعا حتى اليوم، يشكو السوق من الكساد، والطاولات من فرز طائفي فاقع حد الألم. وفي الشارعين، ثوابت وأرضية مشتركة وانكسار لحاجز الشمولية التامة، فمن أقصى الموالاة في المقاهي الشبابية، إلى أقصى المعارضة في مرسم الرسام الشاعر، الرأي العام اللاذقاني شبه موحد خلف التالي: نعم هناك فساد وظلم، نعم نريد مزيداً من الحريات، والحرية ليست تهديداً للسلم الأهلي.

رسام وكاتب مشاكس

«إذا نظرت إلى الشارع لا أجد لنفسي مكاناً... وإذا مددت رأسي لأنظر إلى الحراك، لا أجد لنفسي مكاناً. كنا ننتظر أن يتطوّر الحراك بما يجمع الشعب السوري بمكوّناته لكنه اتخذ درباً آخر... نتيجة العنف لا نجد مكاناً... كل ما نملك أن نفعله اليوم: أن نلقي النظر ونتمنى السلامة».

هكذا يستهل منذر مصري الكلام في القبو الذي جعله مرسماً ومرتعاً ثقافياً ملوّناً. هو ذاك الشاعر الرسام الثائر الذي يعبق زمن السبعينيات في كل أغراضه. هو كاتب المقالات في الصحف اللبنانية والسورية وكاتب الشعر الثائر الذي صودرت كتبه من الأسواق في سوريا والعالم العربي. وبطبيعة الحال، هو المعارض الذي حدث أن زار المكاتب الأمنية مراراً

Twitter: @ketab_n

نتيجة استدعاء من هنا واعتقال محدود من هناك. لم يُمنع من السفر يوماً لكنه كان يضطر إلى أخذ الموافقة كلما أراد أن يسافر، حتى يسمح له. فلم تكن كلمة «لا» رخيصة الثمن يوماً.

وبرأيه، فإن المعارضة السورية معارضة تصالحية، ويطرح اسم ميشال كيلو مثلاً. يرفض أن يعترف بالطائفية ويلقي اللوم على السياسة: «لبنان المثل، السياسة فيه ولّدت الطائفية وهنا أيضاً حين يبدأ الموضوع السياسي تظهر الطائفية. الناس يعيشون معاً و لم يكن هناك فرز في ما بينهم من قبل».

ويخلص في كل حوار إلى النتيجة التالية: سوريا تعيش أزمة، والدليل أن هناك دماءً، لكن مفاتيح الحلول جميعها في يد السلطة. أظن أن النظام يملك الحل حتى الآن ويدعم وجوده إقامة حوار حقيقي وصادق مع الشعب السوري بكل أفكاره وليس المعارضة فقط، بل حوار موسّع ليبرز منه ناس لهم قدرة وموهبة التكلم باسم الآخرين فيتحوّل رويداً رويداً وبهدوء إلى حوار يقرر مستقبل البلد. حوار يأتي بحياة أفضل وبمواطنة حقيقية. الشعب السوري عانى، لكن الحل لا يتم إلا إذا كان جميع السوريين معاً.

المقاهي أيضاً «طائفية»؟

من طاولة الشباب إلى طاولة البنات في المطعم هذا وذاك، الحديث متشابه في وصف «المخربين» و«السلفيين» وأعمال العنف وجرحى وقتلى الجيش والشائعات والأقوال والتصاريح والفضائح والمؤامرات و«المندسين». لكن الحديث لا يمر من دون صفارة إنذار مذهبية. من

Twitter: @ketab_n

الطاولة الشبابية يصر جاك بخعازي على أن الطائفية الطارئة في اللاذقية، تعكس الواقع العربي كالمرآة وآتية من الخارج، مؤكداً أن ابن اللاذقية بسيط و«حباب» ووطني.

هنا يقاطع الحديث محمد مشرقي شارحاً كيف ضرب الشرخ الطائفي زمر الشباب. «للزمر طابع واحد ولون واحد، لكن الانقسام سياسي أكثر منه دينياً والموقف حسّاس، ترانا نبتعد بعضنا عن بعض ونعيد ترتيب لوائح أصدقائنا على الفايسبوك، لكن لا يمكن نكران أن الحراك وخاصة في اللاذقية انطلق من مناطق متخلفة، أنا عشت 3 سنوات في اللاذقية و لم أدخل إلى السكنتوري يوماً».

وهنا يرد جاك «أنا ابن اللاذقية وعمري 30 سنة و لم أدخل يوماً إلى هناك، الكل في المدينة يدرك طبيعة المجتمع في السكنتوري والرمل، و«أبو نظير – ربي يسّر»، ملك الشاشة يصلح كعيّنة، فهو «عقيد» حارة في السكنتوري.

هذا فضلاً عن كيف يشرح الشباب ولادة ظاهرة تصنيف المقاهي المخجلة: «فيو« للعلويين، «جغنون» للمسيحيين، «وبيوتي» لأهل السنّة!!

ويدخل «طارق» على الجلسة، وهو سني ومع الرئيس وضد الحراك، فيعدل الشباب عن رأيهم ليقولوا «الانقسام سياسي وطائفي أو حتى طبقي».

يترامون بين ما يحصل أمامهم ومعهم وما يحصل حولهم وفي الإعلام. ما يعرفونه أنهم ليسوا طائفيين لكنهم يتنبهون للمشاريع السلفية والوهابية التي تتنامى في مجتمعهم. ويخافون على الغد،

Twitter: @ketab_n

ويشدون اليد على سلاح الجيش وحلّه الأمني الذي برأيهم يحمي الوطن من المخاطر والمؤامرة.

طاولة بنات

حول طاولة مسائية يجتمعن بألوانهن المختلفة. جامعيات مثقفات جميلات، كل واحدة من منهل طائفي واجتماعي مختلف. إلى طاولة الصديقات: صبا وكريستال ونيرمين... تتكلم عايدة أمون باسمهن بيدين تشيران وعينين تتسعان مع الغضب وتبتسمان مع العبارات الطريفة. تدافع بشراسة عن النظام وتدين التخريب كما تنتقد حراك الحرية: «يريدون لبن العصفور ولا يعرفون الحرية، هل الحرية هي التخريب والقتل والسلاح؟ خرجوا بمطالب وأيّدناهم ثم تحوّلوا إلى حركة طائفية... سمعنا هتافات تقول بالروح بالدم نفديك قرضاوي من هنا من قلب اللاذقية كما رأينا أصحاب لحى بلا شوارب يقطعون الطرقات أمام الناس في بانياس... بعضهم يدعو للجهاد. لا ننحاز لجهة على جهة بل نرفض التطرف في كل الأديان... التطرّف يخنق التنوّع الطائفي الذي تتمتع به اللاذقية. الرئيس استجاب لمطالبهم، مسؤول درعا الذي أخطأ هو ابن خالته، لكنه يحاسبه. عيب أن ننجر خلف الغرائز، هل يُعقل أن تنتقد سيدة الرئيس على إحدى صفحات الفايسبوك المعارضة لأنها تلبس تنورة؟ أهذا ما يريدون تغييره في النظام؟ نعم هناك مطالب محقة، لكن خوفي على استخدام الحق لتمرير الباطل. ليتهم يحترمون القوانين التي يطالبون بها، عندها لكنا نزلنا جميعنا للهتاف، نحن لسنا قطعاناً طائفية ولا موالاة منقادة لكن هذا الحراك لا يعبر عنّا».

Twitter: @ketab_n

مدينتنا حالة خاصة

صباحاً في صيدلية إياد مرهج في شارع 8 آذار، يجتمع أطباء بشكل عفوي لفنجان قهوة سريع بينما يجلس أبو هيثم السبعيني ليفصّل المؤامرة الإسرائيلية ويخوّن كل من يقول أيّ نوع من الـ«لا». جندي قديم كان يخدم على الحدود اللبنانية، لم يمر بعد في تاريخ عمره أن أحداً يستطيع أن يعارض الحزب الواحد والنظام الحاكم، ثم إن قتل الجيش جعل كل الخطوط حمراء. يدعو للمخربين بالموت والحريق والاندحار عن الكوكب، كما يصف كل من نزل إلى تحرك بأنه «مخرّب». يمثّل أبو هيثم شريحة كبيرة من أهالي المدينة، وبغضّ النظر عن صوابيتها من عدمها، فإن هذه العقلية منتشرة في اللاذقية.

ووسط مداخلات أبو هيثم «المتطرفة»، يحاول الدكتور أن يكون «معتدلاً». يستعين بحجج وشهادات من أطباء المستشفى عن جرحى يحملون آثار إصابات أو طعنات. كما يروي تجربته الخاصة مع المناطق التي أتى منها هؤلاء: أنا طبيب وأحياناً أضطر للذهاب ودخول البيوت في السكنتوري وغيرها. ناس يعيشون حالة بؤس شديد وفقر مدقع. هناك من ينام من دون وسادة... هذا لا ألومه أنا، لكنه بالتأكيد لا يمثلني. هذا ابن وطني وأريد أن أحسّن حياته وظروفه، لكنه لا يمكن أن يأخذنا إلى حيث لا نريد.

كاهن اللاذقية

في شقة صغيرة تحوي عشرات الأيقونات الأثرية في حي الأميركان، يعمل الأب سبيريدون ميشال فياض، على ترميم ما بقي من إرث

Twitter: @ketab_n

الأرثوذكسية في المشرق. كاهن «كنيسة رئيسي الملائكة» في اللاذقية يعرف الكنائس الأرثوذكسية في كل المنطقة. في مرسمه مجلدات عن مشاريع ترميمه لأيقونات كنائس لبنانية تكاد تضاهي عمله في اللاذقية. متخرج ماجيستير اللاهوت من البلمند، يتابع دكتوراه في الرسم البيزنطي من اليونان، كما أسّس مدرسة لتعليمه في اللاذقية.

رمّم ويرمّم أيقونات تعود للقرون الأولى بعد الميلاد، عثر في بعضها على آثار نقوش باللغة العربية. أصلح ومسح آثار الزمن عمّا طمسته من الأيقونات في الشاطئ السوري امتداداً إلى الساحل اللبناني. على رفوف مكتبه مجلدات مشاريع الترميم في الكنائس وأسماؤها: المينا – طرابلس، أنفه وأميون وكوسبا في الكورة، عكار، كفرحبو، الجديدة، شكا، المنية ثم حمص واللاذقية ووادي النصارى، فضلاً عن سلسلة كتبه التي تتناول المدن والآثار والمسيحية في الشرق وعلى رأسها «اللاذقية عبر التاريخ».

على مكتبه كتاب «أين كنت في الحرب» للكاتب اللبناني غسان شربل وحاسوب يتابع منه «الفايسبوك» والبريد الإلكتروني والبحث والصحف. لا ينقطع هاتفه الجوال عن إنشاد رنة «المسيح قام».

يُسمعك عظة الأحد على الحاسوب. فبعد الأحداث، بدأ بتسجيلها منعاً لتقويله أي شيء. من العظة وكلام الجلسة والكتب والخطاب، يأخذ كلامه طابعاً وحدوياً وطنياً يحتاج إليه الشارع اليوم وتحتاج إليه اللاذقية. في حديثه عن السياسة يشدد دائماً على أن احترام الرئيس هو احترام رمزيته الوطنية، يصفه بالحكيم والمنفتح والشاب الإصلاحي النظيف. ورغم ذلك لا يقف كلامه عند سقف أحد، ينتقد الفساد

Twitter: @ketab_n

والرشوة والظلم بينما يشدّد على المواطنة ونبذ الطائفية:

«الفساد سني وعلوي ومسيحي، والفقر سني وعلوي ومسيحي، كل مواطن يدفع رشوة هو شريك في الفساد، كل من يحصل على رخصة قيادة بالرشوة هو شريك في الفساد، وهكذا دواليك. هذا الفرز جديد على أهل اللاذقية وناسها، أسهمت فيه قنوات التجييش الطائفي مثل «وصال» و«الصفاء». هناك تيارات إسلامية متشدّدة من مصلحتها أن توصل صوتها، كما هناك ضغوط على سوريا وأوراق رابحة في يد القيادة وهي دعم المقاومات. وفي المقابل هناك مخطط واضح يحلم أن يقسّم سوريا إلى خمس دويلات. لننظر إلى العراق اليوم مثلاً، هناك لن تقف الحرب إلا بتقسيم العراق إلى دويلات. هذا ما لا يسمح به الشعب السوري. شعبنا شعب واعٍ يعرف أن يجابه المؤامرات وأنا لست خائفاً، بل إنني على إيمان بأن سوريا ستخرج أقوى وبإصلاحات كثيرة تحسّن علاقة المواطن بالدولة. الرئيس الأسد لم يعطَ فرصة للتفرغ للداخل السوري لكنه عمل على الانفتاح الاقتصادي ومشاريع نشر المعلوماتية وقدّم المنح والدعم وزاد الرواتب. رئيس الدولة لا يمس، فهو رمزها، كم بالأحرى إذا كان قائداً حكيماً صادقاً مع شعبه ونفسه؟

يرى الأب سبيريدون المشكلة في أن الناس فقدوا الأمان، أما الحل فله عدة وجوه: من جهة الدولة، عليها تنفيذ القوانين الإصلاحية التغييرية. ومن جهة الشعب: عليه ألا يسهم في تأخير وصول الاستقرار من خلال تقوقعه في البيت وخوفه غير المبرّر. ماذا لو خرج عشرة شباب يصرخون في السكنتوري؟ لماذا نغلق متاجرنا ونشل حركتنا؟ فلنفرض نحن، الحياة الطبيعية.

Twitter: @ketab_n

بانياس

يمر في بانياس نهر يقسمها إلى شرقية وغربية. واليوم، تستعيد هذه العبارة خبثها اللبناني وذكريات قتل على الهوية. وللأسف، تنقسم بانياس اليوم إلى الغربية السنية، والشرقية المسيحية العلوية. في القسم الغربي الذي يقع جنوبي نهر بانياس، حيث تكثر الجوامع التي ضبط منذ ثلاث سنوات سلاح في أحدها، أنزل شبه احتلال من قبل تنظيم أعلن نفسه إمارة وشكل حكومة خاصة لنفسه. كما يدور بين الأهالي حديث عن حواجز تدقيق في الهويات، وزمر مسلحة تفرض سلطتها في الشارع.

لا ينتمي جميع سكان الغربية إلى هذه «الإمارة» أو يؤيدونها. ويقول كثيرون إنهم ينتظرون فك ما أصبح بمثابة «حصار سلفي» أعلن نفسه عبر مكبّرات الصوت. يتجنّبون العبور من الغربية إلى الشرقية اليوم إلا للحالات الضرورية، لكنهم يتواصلون عبر الهواتف مع أهلهم وأقاربهم في الطرف الآخر من النهر.

هذا بحسب رواية أهل بانياس الغربية لأقاربهم، وبحسب رواية ابنة المدينة الزراعية التي تعمل موظفة في شركة شحن في اللاذقية. تخبر بخجل وقلق قبل أن تنطلق بعد الظهر للعودة من عملها في اللاذقية إلى بيتها في بانياس: «هذا تصنيف جديد علينا ولا يليق بنا، لكنه يحصل الآن، ونتمنى أن يدخل الجيش ويزيل هذا الخطر عن المدينة».

وتتابع «يصح مثل مصائب قوم عند قوم فوائد، فأفران الشرقية وسّعت عملها لتسد حاجة المنطقة لأن الوصول إلى مخابز الغربية يتعذّر علينا. وأصدقائي من الداخل من عائلتي الخدام والأعسر، يهاتفونني وينقلون

Twitter: @ketab_n

الأجواء يومياً ويعيشون حالة رعب ويترقبون المجهول».

هناك أحاديث عن أن الجيش يفاوضهم ويتبع سياسة «ضبط النفس» قبل اللجوء إلى الحل الأمني الأخير. ويقال إن الجيش يحاول منذ أيام أن يتوصل معهم إلى تسوية وسط عروض قدمها «زعيمهم» أنس عيروت، لتسليم مجموعات من عناصره المسلحين مقابل فتح الطريق البرية أو البحرية.

وبين يوم وآخر، لا تزال بانياس تنتظر حلاً للحصار «السلفي» المسلّح على الشرقية بينما يطوّقه الجيش ويستمر في محاولة استيعاب الموقف والمتورطين فيه.

خلف هذه الصورة، سقط «شهيد الطائفية الأول» في انقسام الغربية والشرقية هذا في بانياس. بائع البندورة نضال جنود، لم يكن مسلحاً، وحين عرف المسلحون انتماءه المذهبي، أخذوه وسط السكاكين والمسدسات التي كشفتها صور التقطوها ووزعت على الإنترنت والتلفزيونات. سار بوجه مضرّج بالدماء وسط حشد وحشي ساقه إلى الإعدام والتنكيل بجثته. الصور على صفحات «الفايسبوك» الكثيرة والـ«يوتيوب»، تروي حكاية بائع البندورة الشهيد تحت عنوان «كلنا نضال جنود».

في المقابل، حين هب أهله وأهل منطقته رغبة بالثأر، عملت المرجعيات المحلية والسلطة على ضبط الوضع حفاظاً على المدينة وأهلها من تفاقم فتنة مذهبية تتربص بهم...

مزيد من الدماء السورية تسفك في المكان الخطأ والقضية الخطأ. كان ذنب نضال جنّود، البائع الفقير، أنه من مذهب آخر. مات ظلماً.

Twitter: @ketab_n

مابعد الطوارىء

ما إن أعلن رفع حالة الطوارئ حتى تنفست دمشق الصعداء، انفرجت قليلاً حركة السيارات في الطرقات، تغيّرت نبرة الصوتين: المعارض والموالي.

أبرز المعارضات الشابات التي أوقفت في بداية «الانتفاضة»، سهير الأتاسي، عبّرت، بعيد إعلان رفع حالة الطوارئ، بوصفها خطوة عظيمة لكنها غير كافية، رافعة سقف المطالب: «نريد طيّ ملف الاعتقالات السياسية والإفراج عن المعتقلين السياسيين».

وكما سهير، رأى الناشط الإلكتروني المتنقل بين التظاهرات شادي أبو كرم أنه إنجاز عظيم لكنه لا يزال «مشروع قانون» والإعلان النهائي يكون بعد اجتماع مجلس الشعب، أي بعد الثاني من أيار المقبل. كذلك الزميل الصحافي محمد دحنون، الذي اعتبر أنه نبأ رائع لكنه ليس كافياً، بل يجب أن يكون فاتحة عهد التغيير. ورغم معارضته الظاهرة ختم دحنون: كلياتنا مع الرئيس.

أما الشارع الآخر، الأوسع شعبياً، فعبّر عن رأيه في مسيرات سيارة حملت أعلام الرئيس بشار الأسد وصوره في عدد من النواحي الدمشقية، أكبرها في منطقة المزة الغربية بعد أقل من ساعة على إعلان القرار.

بدوره، خرج الفنان مصطفى علي، مؤسس جمعية «المكان» الثقافية عن صمته، الذي لف المرحلة الأخيرة كما ارتاحت علامات القلق التي طغت على حديثه في اليومين الماضيين، قائلاً «إنها خطوة مهمة باتجاه الحرية، وفاتحة لعهد الإصلاح الحقيقي». أما الفنانة رنا النقشبندي من

Twitter: @ketab_n

جمعية «نحن» الثقافية فقالت إنها مرحلة أولية للمزيد من الإصلاح، ويجب ألا نقف هنا.

بين خطاب مساء السبت الماضي، وعصر أمس الثلاثاء، ثلاثة أيام. بين الوعد وأول تجليّات الصدق، ثلاثة أيام. وبينما تشهد المدينة طعماً جديداً من الهواء والنقاش، يعوّل السوري على ثلاث ركائز أساسية للتصدي للعبة أمنية لا تكف عن محاولة «تطييف» المطالب: الوعي السوري، الحوار الوطني، والجيش الذي هو الركيزة الأكبر.

Twitter: @ketab_n

وعي شبابي؟

تعيش اللاذقية اليوم تحت وطأة شبح الطائفية الطارئ عليها، وهذا ما لم يعد ينكره طرف أو وجه. وتحت أصوات التخوين والاتهامات التي يتراشق بها الشباب من الطرفين، هناك طبقة وعي لم تتكلم بعد، طبقة تنبذ الطائفية وتصنّف الشبح الجديد بأنه نتيجة لشمولية الخطاب من الجهتين.

وبعدما اهتزت الكثير من الصداقات بين الشباب بسبب انعدام آلية الحوار الصحي، ابتعد أصدقاء المدرسة بعضهم عن بعض وزملاء الصف الواحد في الجامعة، فبنوا جدراناً في ما بينهم، وكثر أزالوا أصدقاءهم من صفحاتهم «الفايسبوكية»، حيث نشأت مجموعات تضم مئات الشباب وتضعهم في مواجهة بعضهم لبعض مثلاً:

مجموعة معارضة أطلقت على نفسها اسم «المندسون» تثابر على السخرية من كل روايات النظام والإعلام السوري واتهام شباب الطرف الآخر بأنهم «مخابراتيون» وتطلق عليهم تسمية «أبواق النظام».

ومجموعة موالية أطلقت على نفسها اسم «الله سوريا والأسد حاميها» تثابر على تخوين كل من يقول «لا» أو يتعاطف مع الاحتجاجات بأنه إما متعامل مع الصهاينة وإما جاهل وإما طائفي وإما سلفي، وتواظب على عرض صور شهداء الجيش وضحايا القتل والتنكيل المذهبي.

من المقهى البحري تشكو لورا نعمان: «خسرت ابن خالتي بسبب

Twitter: @ketab_n

اختلافنا بالرأي، وخسرت الكثير من أصدقائي». كما تعاني ليال بادي من مشاكلها الدائمة في مكان عملها مع زملاء لها، بعد ازدياد الاتهامات والتراشق الكلامي والاحتقان في النفوس.

وفي ظل ظاهرة التقسيم تلك، والفرز الكبير المتفشي بين صفوف الشباب، انطلقت مبادرة تصالحية لشباب اللاذقية على «فايسبوك» تحت عنوان «اللاذقية بتجمعنا». وأعلنت في بيانها التأسيسي نداءً يناشد جميع أطياف الشباب في اللاذقية العودة إلى المحبة التي هي من صفات ابن هذه المدينة، وتطرح ضرورة وأد الفتنة بالجلوس معاً، برغم اختلاف وجهات النظر وتخلي جميع الأطراف عن اللغة الحادة في الخطاب. وجاء في النداء:

نحن شباب وبنات اللاذقية نعلن خوفنا من الفرز الطائفي والسياسي الذي يخيّم فوق مدينتنا والذي بدأ يظهر في الشارع والأفواه وحتى الإعلام... بالأمس كنا نتغنى بوحدتنا الاجتماعية، واليوم نشاهد خلافاتنا ومشاجراتنا، ونرى بعضنا نبتعد ويزداد الشرخ في ما بيننا ولذلك، وبناءً عليه، وانطلاقاً من حرصنا على وحدة الشباب السوري عامة واللاذقاني خاصةً، ولأن مدينتنا تعبّر عن نموذج صغير عن تنوّع سوريا الديني والإثني، نطلق مبادرة المصالحة التالية:

نناشد كل الشباب اللاذقاني الواعي، مهما كانت وجهة نظره من الأزمة السورية، أن يعود إلى رشده وحقيقته فيتخلى الطرف الأول عن لهجة التخوين، والطرف الثاني عن لهجة اتهام الآخر بأنه استخبارات ومن أبواق النظام.

سوريا وطننا، ونحن نحميها بوحدتنا وحوارنا. فلتختلف وجهات

Twitter: @ketab_n

النظر، ولنتناقش ولتتنوّع ولتتعدّد رؤانا، ولكن نناشد بعضنا بعضاً التقرب والحرص على توحيد الصفوف، لنخرج البلد من أزمته ونبرهن وعي الشباب السوري.

لتكن صفحتنا الصفحة التصالحية الأولى اليوم، وتجمع تحت لوائها أبناء اللاذقية على اختلافهم وتمازج آرائهم. لتكن حجراً أساساً لبناء حوار وطني شامل صادق وحقيقي من اللاذقية باتجاه كل المحافظات السورية.

وختاماً نناشد السلطة أن ترعى حوارنا لما فيه مصلحة وحدة المجتمع وارتقاؤه إلى القيم الوطنية السورية التي لم نتخلّ عنها يوماً.

Twitter: @ketab_n

حمص: في الشارع رعب ودم وأمل

حمصي لبنان بطل نكات البساطة والتهكم، أما حمصي سوريا فهو من بين حمَلة أعلى الشهادات وأكثر شباب سوريا تفوقاً. حمصي «الانتفاضة السورية» هو من بين الشهداء الشباب الذين شيّعتهم مدينتهم في أيام الجمعة المتسلسلة في الشهر الأخير لأنهم صرخوا للحرية. أما حمصي «المؤامرة على سوريا»، فهو العالم عيسى عبود صاحب عشرات براءات الاختراع الذي استشهد يوم عيد الجلاء في «حيّ النزهة» مودّعاً أعوامه السبعة والعشرين. وهو أيضاً العميد المتقاعد عبدو التلاوي الذي قتل ونُكّل بجثته هو وجاره وابناه وابن عمّهما، لمجرد «ذنب» أنهم كانوا يستقلّون سيارة عسكرية في منطقة تطرّف مذهبي. وهم أبناء المذهب ذاته لكنهم قتلوا...

ظهراً في حمص، تحاول الشوارع أن تستعيد نبضها القديم، ولكن كل الوجوه والمفترقات تصرخ بالفاجعة. يعجّ رمز المدينة التقليدي مطعم «كريش»، بالطلاب والعمال المسرعين. نساء سافرات ومنقبات، بالجملة والمفرّق، ينتظرن «الشيش» بينما ينظر كل وجه إلى الوجه الآخر بعيون فيها قلق، وفيها أيضاً غضب. في وسط المدينة، وتحديداً على تقاطع سوق «الدبلان»، يقاوم التجار كساد شهر بسبب الدماء والأزمة ومحاولات الفتنة بين أهل المدينة. برغم تعاطفهم مع الدماء، يغضبهم كل حراك يطيل مدة إغلاق المحال ويكثر من الدماء البريئة، فيصرخون للأمن أولاً

Twitter: @ketab_n

ثم للحرية. أما في الساحة القريبة، ساحة «الساعة الجديدة»، فللمشهد الكلام: مصارف حجبت واجهاتها الزجاجية بألواح خشبية لحمايتها من الرصاص، سيارات قليلة جداً، ورجال أمن بالعشرات يتجمّعون زمراً على العشب الأخضر، ويجلس سلاح كل واحد في حضنه... هكذا كان وسط المدينة عصر الخميس.

أسرارها من صغارها

تمتلئ شوارع حمص بعمالة الأطفال، من المطاعم إلى المتاجر إلى بيع العلكة. بعضهم يذهب إلى المدرسة المجانية ليعود بعد الظهر إلى العمل وبعضهم لا، ولكنّهم مختلفون، وأذكياء، ويجيبون بحنكة حين تسألهم.

إذا أردت العثور على باسل، البائع الصغير الحزين، تستطيع أن تجلس في متنزّه الدبلان قليلاً ليأتي إليك بتهذيب، وإذا لم يحدث اللقاء، فسيعثر عليك مساءً في المقهى في الجهة الأخرى من المدينة. يأتي من منطقته البيّاضة التي تعد الأكثر حساسية وجيشاً واحتجاجاً ليجوب المدينة ويرتزق من بيع العلكة. تسأله لماذا اسمه باسل، فلا يجيب تيمّناً بالأسد، بل يجيب سريعاً بنبرة خوف وتبرير «هناك كثيرون اسمهم باسل»، ويهمّ بالرحيل. وإذا أعدت السؤال بطريقة أخرى «ألست على اسم باسل الأسد؟» فيعود ويجيب بابتسامة «أبي سمّاني باسل... وربما على اسمه».

أما بشار العلي (7 أعوام)، ابن محافظة إدلب الصغير، فيجلس على قارعة الرصيف خلف ميزانه ويجني رزقه من المارة الذين يتفقدون وزنهم لقاء ليرات سورية قليلة. حزن يشبه حزن باسل في عينيه، ولكنه

Twitter: @ketab_n

أكثر جرأة فيقول بعد سؤال: «اسمي بشار على اسم الرئيس، أبي أطلق عليّ هذا الاسم، أنا أسكن في البيّاضة ولا أنزل إلى الشارع كي لا يطلقوا عليّ النار». ومن هم هؤلاء؟ فيجيب «الأشرار الذين يريدون أن يخربوا سوريا». كيف تعود إلى بيتك والجيش يمتلئ حولها؟ «أعود مع إخوتي الكبار».

يزَن: سلفي لا يعرف نفسه

في شارع الحميدية الحمصي حيث تخرج التظاهرات أيام الجمعة، تبدو الحركة بطيئة والمحال مغلقة باستثناء قلة قليلة. من بين هذه القلة، وكر احتجاج نواته ثلاثة رجال ومراهق. الرجال الثلاثة يسخرون من الدولة وينتقدون الفساد بمزحة وضحك. أما المراهق، يزن لابيد، فغضبه أكثر عنفاً وكلامه أشد حدة، وهو الوحيد الذي أقر بمشاركته في كل المسيرات في منطقة «باب السباع». ترتفع صفارات الإنذار في أحاديثهم جميعاً: يدافعون عن القرضاوي، وحتى عن بن لادن، لأنهما من الرموز الدينية. أما شيوخ الطرف الآخر كالشيخ البوطي، فهم برأيهم خاضعون للتهديد ولذلك يقفون مع الدولة. في كل ما يقولون، يبدو حديثهم خطيراً، وتتعارض مواقفهم وأجوبتهم، وتدل على عدم دراية كاملة بالأفق. لا يعرفون ما يريدون، يعرفون فقط من لا يريدونه. ينطقون بالكفر: «خلصونا من فزاعة إسرائيل وعملوا سلام»... لكنهم ليسوا أصحاب لحى طويلة او ذقون متديّنة، ولا ثيابهم توحي بالسلفية، وكذلك لا توحي نظرات عيونهم إلى الأنثى السافرة ومزاحهم بالشر أو التطرف. كل ما فيهم غير سلفي، مطالبهم فيها الكثير من الحق عندما

Twitter: @ketab_n

ينتقدون المسؤول الفاسد وانعدام الوظائف وقانون الطوارئ.

أحدهم مثلاً يعمل خبازاً، محكوم بثلاثة أشهر غيابياً ولكن لماذا؟ يعرض لنا محضر الضبط الأخضر ومفاده: عاينت الخبز الذي تبيعه هيئة من وزارة الصحّة، فاكتشفت أنه يشكو من الرطوبة لأنه يصنع العجين بعشوائية من دون الاستعانة بالآلات المخصّصة لفحصه. لا حكم على الورقة، لكنه يصر على أنه محكوم بسبب الخبز، ويكمل الحديث «لو أنني قدّمت رشوة للقاضي أو الهيئة، كما فعل صديقي بائع الفرّوج، لمرّت قضيتي من دون رقابة، وأنا لا أملك أن أشتري الآلة لأنها باهظة الثمن».

لا تعرف الحق من الباطل في حديثهم. ما هو واضح أنهم ليسوا خطرين، ولكن ربما هناك تعبئة خطيرة يتعرّضون لها، وربما هناك تقصير من الدولة العلمانية الحاكمة، ولّد تطرّفاً وغياباً للوعي الوطني المطلوب. وربما لهم قريب أو صديق قتل، فازداد موقفهم حدةً... المراهق أكثر صدقاً من الرجال. وفي حديثه، يبرز كره يزن الواضح لطائفة أخرى. ويتّهم الطائفة كلّها بإطلاق النار على التظاهرة، ويصف تظاهرات التأييد بأنها مدفوعة بالخوف أو بالمال، ويقول واضحاً وللعلن إنه يريد السلاح ليقاتلهم لأنهم يقتلونه، ولأن كل رجال الأمن «منهم». يصوّر عدوّه في المكان الخطأ، عندما يستشهد بالحديث النبوي «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»، لتبرير عدم ممانعته للسلام مع... إسرائيل!

بعد الزيارة المقلقة، نغادر إلى الجهة الأكثر «اعتدالاً» من المدينة، بينما يهم يزن بالرحيل للمشاركة في تظاهرة ما بعد صلاة المغرب في منطقة «باب سباع». يصلّي، يسمع خطبة شيخه، ثم يخرج في التظاهرة السلمية. يصرخ «الشعب يريد إسقاط النظام» ثم يعود إلى بيته آمناً من

Twitter: @ketab_n

دون طلقة رصاص واحدة. فمساء أمس، خرج مئات في باب السباع وهتفوا أمام عيون الأمن، ثمّ تفرّق الجمع بعد نصف ساعة.

يعارض الجهتين ويتمسّك بالرئيس خشبة خلاص

«بصراحة لا أثق بأحد»... هذه حال طالب السنة الثالثة هندسة ميكانيك لقمان خضور. يهوى الصحافة لكنه لن يمتهنها في ظل الإعلام السوري الذي يصفه على الشكل التالي: «سخيف، غبي، متخلّف»، ولذلك يكتفي بإعطاء الصحف السورية لوالدته كي تمسح الزجاج، ويتابع الصحافة اللبنانية. يعرف أسماء معظم الكتّاب اللبنانيين ويواكب الحدث. وكل يوم جمعة، يتنقّل من جامع إلى جامع ليرى الأحداث عن كثب. ترتجف يداه كثيراً «أنا عصبي». تفيض عيناه وكلماته بالقلق وبكثير من الغضب من طريقة تعامل النظام مع الاحتجاجات الأولى ويحمّل الفاسدين مسؤولية ما يحدث. لكنه يتمسّك بالرئيس، لا لشيء سوى لحكمته، «أثق به هو فقط، هو وحده». المحافظ القديم كان «أسوأ ما يمكن» والمحافظ الجديد «سكّر». «نعم، أنتقد النظام، أريد مزيداً من الحريات العامة، والحريّات السياسية، ولكن هذا الحراك واضح إلى أين سيذهب، أنا أراهم، وأسمع هتافهم، وأعرف طبيعة ذهنيتهم، فهم أولاد مدينتي، بسطاء، أخاف عليهم، لا منهم، أخاف على ما يمكن أن يحاك لسوريا بأيديهم».

ويضيف «لم أتوقع ابداً أن تنتقل عدوى إلى سوريا، فللرئيس شعبية واضحة حقيقية في الشارع والشعب، غير أنها انتقلت ولكن بشكل خطير وغير واضح وغير منظم ولا برنامج لها، وهناك من يعمل على

Twitter: @ketab_n

الحقد وهذا واضح من خلال هتافات الدعوة للجهاد التي ظهرت في المسيرة فأرعبت أهل حمص وسمّرتهم في بيوتهم خلف الستائر المغلقة». لقمان يعيش يوماً بيوم مع القلق. قلق على سلامة مدينته وأهلها، لا على سلامة الفاسدين من النظام، وعلى سلامة الجيش السوري، لا على حزب البعث.

أما الكاتب المسرحي الشاب أحمد محمد، فمتفائل. يرى أن الحل الوحيد هو «القوة». هذا التطرف ليس جديداً، وحله وحيد: القوة، ثم الإصلاح والتغيير الحقيقي في بنيةالنظام، على يد «السيّد الرئيس».

سيدات أعمال في المقهى

تجلس نجوى معروف وصديقتاها، وهما في الخمسينيات، في المقهى مساءً بثياب أنيقة ووجوه متبرّجة وشعر مصفف مع النرجيلة. «الجيش أولادنا وإخوتنا»، «نثق بالسيد الرئيس»، «التطرّف المذهبي يعالج بالوعي». تضرب الطاولة بأظافرها ثم تقول «المشكلة في الإعلام، فنحن نحارب إعلاماً ذكياً يملك أجندة واضحة، وإعلامنا أغبى ما يكون». تجزم بأن التحرّك عرضة للتوظيف الخارجي، وتشدد على أن الحق والحرية يستخدمان لجذب الفئات البسيطة المتديّنة تديّناً خاطئاً وأعمى. وتقول بصراحة، فلتضع المعارضة برنامجها، وليمشِ خلفها الشارع. عيب على المثقفين أن تسوقهم طبقة ينقصها الوعي، الآن قبل الغد، لتضع المعارضة السورية برنامجها، وليلحق بها الشارع، لا العكس، وذلك تحت لواء السيّد الرئيس. الشعب السوري لا يهين رموزه، إنه الحقد المذهبي يتكلّم، والتجييش الطائفي. في حمص، مقارنة مع اللاذقية، يبدو

Twitter: @ketab_n

الشارع أكثر توتراً، والتطرّف أكثر خطورة. فتلك مدينة بحرية تتميّز بانفتاح مجتمعها عموماً، بينما حمص، المدينة الداخلية، قلقها أكبر على الوحدة الاجتماعية، كما على الحق والحرية.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

نظرة عن كثب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جولة حول دمشق
مشاهدات عصر يوم الجمعة

لا يختلف اثنان على أن التلفاز فقد صدقيته على الضفتين حين وصلت الموسى إلى ذقن سوريا. فهنا يتضح تعارض الأجندات بحدة، إنها الملعب الأخير الباقي للمباراة الدائمة. فكل الحكام العرب انتهوا من زمن إلى استسلام وسلام علني اقتصادي سياسي فاقع إلا سوريا وصندوق بريدها اللبناني. سوريا ليست مفرقاً عادياً في إقليمها، سوريا محطة دولية. السوري، باختلاف جرعة غضبه وسببها، مخنوق تحت تصارع الأجندات، ما من أذن تسمعه في الضجيج العالمي الكبير. تبقى الغلبة للرقم على التفصيل. الشهداء أرقام، والتظاهرات أرقام، والمعارضون والموالون أرقام، وحتى الطوائف أرقام في حلبة معادلات كبرى.

في جولة على حزام الأزمة الدمشقية، انطلاقاً من الشعلان في دمشق إلى المعضمية ثم داريا، عبوراً بطريق قصر الشعب وصولاً إلى منطقة التل، ثم إلى دوما عبر حرستا... وختاماً عند الميدان الدمشقي وأسواقه العامرة بعد الظهر، يسقط كل الإعلام المرئي والمسموع في خانة التساؤل، ويسكت كل بوق مشروع، لتتكلم الوجوه والشوارع والأيدي عن حزام دمشق.

Twitter: @ketab_n

أبطال باب حارة الشعلان

بينما أمّت دمشق صلاة ظهرها، استعرضت سيارات حوالى عشرين فناناً مواقفها المخصّصة للشخصيات المهمة أمام المقهى الراقي في الشعلان. حاول النجوم أن يحسموا موقفهم الصباحي، من المقهى حيث تناقشوا وتهاتفوا بارتباك. أرادوا الاتفاق على موقف ما للتضامن مع الفنانة القديرة منى واصف، من دون الاضطرار إلى خدش وزير الإعلام، فلم يفلحوا إلا بالمكالمات الهاتفية والتوتر وبالامتناع عن التصريح. أما على الناصية الأخرى، وطاولة المقهى المقابل، فجمعٌ من رجال فن وأعمال وسياسة من الطرفين، يترقب يوم الجمعة على الهواتف. وحين يعلو صوت الميدان قليلاً يرد الجميع من أقصى المتضامن إلى المخوّن: لا داعي للذهاب والمشاهدة، فقبل أن نصل سيتفرّق الجمع، قنبلة تسيل الدموع، وتنتهي القصة. وفي الشارع الدمشقي محال مفتوحة، سيارات بعدد معقول، حركة طبيعية ولكنها اصطناعية: فرغم خروجهم، يعيشون في حالة ترقّب وارتباك.

نزوح معاكس إلى المعضمية

تعرف المعضمية من عشوائياتها السكنية وأحوال بيوتها. يقطن فيها أهلها والنازحون إليهم من الجولان أو حوران أو إدلب أو بانياس... بأحوال عيش تعكسها سقوف المساكن وهياكلها الفقيرة. عبوراً بحاجز الجيش الأول بعد السومرية، تختفي حيوية الشارع: هنا المعضمية! متجر واحد فتح أبوابه على اليسار: متخرج من جامعة الحقوق يبيع خدمات الهواتف الجوالة تحت منزله على مدخل المعضمية. ومن هناك هو الشاهد

Twitter: @ketab_n

العيان. صورة الأسد بعبارة «منحبك» على زجاج المحل أكلت لونها الشمس. أما مصطفى العشريني فغيّرت نبرته مشاهد مرّت أمامه في أيام الجمعة الماضية. التلفزيون الرسمي أمامه يبث مشهد عشرات الهاتفين للأسد في الميدان، وهو خلف واجهة البيع يروي: لا لن تتحرك المعضمية، منذ أسبوعين قتل ثلاثة متظاهرين شباب هنا، أنا رأيت الرجال يقصدون المسيرة ويطلبون منها عدم الاقتراب من الجيش، لكنها استمرّت حتى علا صوت الرصاص وانتهى المشهد بتوابيت الشباب. يبرّر للمعضمية صرختها: «هنا لأصحاب الأراضي حق الصراخ، فالناس يُحرمون من استصلاح أرضهم لكن الجيش خائف، فهو عرضة للاستهداف». يدين التعرّض للجيش كما يطالب بالأراضي، يشاهد الشاشة الرسمية لكنّه يجرؤ على التذمّر.

توقّفت المعضمية عن الحراك وامتنعت منذ أسبوعين. يعرض مصطفى التباس موقف أهل مدينته ويرى أن مطلب إسقاط النظام لن يوصلهم إلى شيء. وفي الخلفية التي لا يعرفها مصطفى، هناك ملف عن قصة أراضي المعضمية بالأسماء، ينطلق من بعض المراجع الشعبية إلى مكتب أحد جنرالات الجيش المكلّف بالحوار، ليرفع لاحقاً إلى قصر الشعب. وربما يكون هذا أيضاً أحد أسباب الامتناع عن الحراك اليوم.

دروب مقطوعة بالدبابة والحافلة والرجال وقنوات مفتوحة

وبينما ينتظر هذا النوع من الحوار امتحانه، لا مجال أصلاً للحراك. تمسك بالمعضمية قبضة أمنية مشتركة مع الجيش وتقطع الطريق. فبعد محطة مصطفى، تقطع طريقنا دبابة تقف في عرضها، وحاجز أمني

Twitter: @ketab_n

مؤلّف من شاب لم يتعدّ النصف الأول من العشرينات. لباس مدني، سلاح روسي في يديه وآخر قرب كرسيه. حوله الساحة خالية إلا من الدبابة. يتبادل الأحاديث مع الهوية اللبنانية، يفتش السيارة الصفراء مقعداً مقعداً، بينما يلقي النكات السطحية المستفزة. لينضم لاحقاً رفيقه الصغير الآخر، فتكتمل جوقة «الهضامة» الأمنية.

بضع دقائق بين السؤال والجواب، ترتفع خوذة عسكري من قلب الدبابة، يقفز فوق الآلية الضخمة التي تقطع الدرب، يمشي نحو السيارة الصفراء، من دون كلام، ينظر فقط، ويعود أدراجه. بختام حفل تفتيش وأسئلة وجوه أمن تستفزك سنّها الصغيرة، تنطلق السيارة الصفراء نائية بنا عن المعضمية. دقائق قليلة، نصل إلى مستديرة السومرية، وهنا لزحمة السير سبب آخر: رجال كثر، بلباس مدني وسلاح، يتفقدون هويات كل السيارات، يتوزعون على النوافذ فتلتقيهم بابتسامة أحياناً، وخوف أحياناً أخرى، وكذب وتبرير يضمن العبور بسلام. لباس الرجال الأمنيين متنوّع من السترة الجلدية إلى القميص البنفسجي، بفعل تنوّع أعمارهم. وما إن تفلت السيارات من الحاجز العشوائي الأول، حتى تعبر بالثاني المتمركز على مفرق مقطوع بحافلة كبيرة هذه المرّة.

دمشق من فوق

من جهة السومرية إلى محيط قصر الشعب، نعبر بالجهة المحرومة من المزة، هنا ايضاً على طريق القصر، تحكي بيوت الناس من اليمين عن أحوالهم. وقبالة التلة الصاعدة إلى طريق التل، يروي جبل قاسيون الشامخ وعشوائياته لنازحيها قصة حرمان ومشاكل اجتماعية أخرى.

Twitter: @ketab_n

أما مشهد المدينة دمشق، فكلما صعدت السيارة اتسع، لا يكاد ينتهي، كأنها عرض صريح لتدرّجات الزمن الذي مر على سوريا: مآذن كثيرة، سور حجري، مبانٍ وتجمّعات حجرية بعمر الإمبراطورية الرومانية، أو عثمانية النفحة قديمة، فرنسية كلاسيكية، أو مساكن متشابهة منظمة على الطريقة الاشتراكية بروح روسيّة، وصولاً إلى المشاريع الحديثة على الطريقة الخليجية: مدينة مزركشة فوقها علم ضخم في ساحاتها الوسطى يلعب مع الريح. صورة مدينة السبعة ملايين تعكس تدرجات الزمن تحت راية النجمتين بصورة فسيفساء اقتصادية اجتماعية متفرّعة.

ماذا حدث في التل؟

يصل الدرب إلى التل، تعبر السيارة الصفراء بسوق فتح متاجره جميعها، وحركة طبيعية، لتصل إلى قلب البلدة حيث الصرح الرسمي، وهناك الحدث: عشرات رجال الأمن على الرصيف يتناولون وجبة الغداء، عشرات آخرون يجلسوت في حافلاتهم الصاعدة باتجاه الآخرين، مدنيون كثر يحملون العصيّ ويجوبون تفرّعات الأحياء حول مبنى مجلس المدينة. المحال جميعها مفتوحة رغم زحمة الأمن، رجال وشيوخ ومراهقون أسندوا ظهورهم إلى المداخل وسمّروا عيونهم على الشارع. مشهدهم وغضب عيونهم يكاد يسمعك نبضات كل القلوب، كأنك في ضجيج صامت.

تقف السيارة، فيعبر بنا ولد لم يصل إلى مراهقته بعد، يحمل قطعة أنبوب حديدي ويمشي متمايلاً، يبتسم ويكمل طريقه. وفي محلّه، يناولنا السمّان الحاج محمد زجاجة مياه سريعة وعلكة، ويطيّب خواطرنا: «لا

Twitter: @ketab_n

شيء، سمعنا على الجزيرة أن هناك تظاهرة فتأهّب الجميع هنا حول مجلس المدينة لحمايته. فقد يقصدونه ويحرقونه أو يتلفون الأوراق الرسمية».

هل يُعقل أن تتأهب عصيّ المدينة ورجالها لمجرد سماع نبأ؟ وهل كان حقاً نبأ كاذباً؟ نكتشف لاحقاً في روايات الشارع والمكاتب أن مجموعة شباب أحرقت إطارات في محيط المجلس، ما يعني أن ما شهدناه في التل هو رد فعل. ربما كان الحراك في ناحية أخرى، ربما أحبط في بداياته، ربما وصلنا متأخرين لكن الواضح أن الناس يتفرّسون في إحباط الحراك أينما وجد. فيقول الحاج مودعاً: «ما دمنا هنا، فلتحاول الجزيرة في مكان آخر غير التل».

إلى دوما دُر

لا حدود رسمية على مفرق دوما من حرستا حيث تسللت سيارتنا الصفراء. لكن طبيعة الشارع والمساكن ولباس الناس ينبئ فوراً أننا في دوما. ساحات حرستا تشبه ساحات «حي السلّم» اللبناني إلى حد كبير، أمن في شارعها ولكن لا حاجز واضحاً، ناس ولافتات كثيرة عن إعلانات شركات متواضعة كلافتاتها، وملوّنة ومنوّعة مثلها. وصولاً إلى حيّ ضيّق، تغيّر شكل المباني المتواضعة: أدوار واحدة، تراب أكثر على الطريق، آليات زراعية مركونة في الحقول القليلة حول المساكن، وبعض المشاة. في مفرق لا يتعدّى طوله مئتي متر، مارة أغلبهم يعتمرون قلنسوات الصلاة البيضاء على رؤوس لها لحى طويلة من دون شوارب. الواضح أنهم مارة طبيعيون، من أهل البلدة، بعضهم يصطحب أبناءه المراهقين. وبعضهم تمشي بقربه «حرمة منقبة». خرجت بنا مشاهد

Twitter: @ketab_n

الزقاق وعصره إلى الطريق الرئيسي بين دوما وحرستا. مصلّح ميكانيكي فتح محلّه ينقض خلاء الشارع العام، ومراهقان اثنان على دراجة نارية، يستغربون السيارة والوجه الغريب. وقبل الوصول إلى قلب دوما المدينة، يردعنا حاجز جيش بسرعة ومن دون تفقد بطاقات الهوية وقبل السؤال: «دور ورجاع يا أخي». ترتدع السيارة الملتزمة بالتعليمات خارجة من مدينة القلق: حافلة بإشارة الأمم المتحدة ثم حافلات للجيش على اليسار، وآخر مشهد قبل العودة من دوما إلى حرستا، عشرات الجنود في مؤخرات الشاحنات، يتوجهون نحو مدخلها. لكن لا صوت رصاص يسمع، «بسط سلطة لا أكثر». فيرجح السائق مفسّراً: لا داعي للقلق إنهم يتناوبون عند العصر، يأتي قسم ليذهب قسم آخر.

وعلى نهاية دوما، ينتظرك حاجز آخر مشترك بين الأمن والجيش. يتفقد السيارة بالتفصيل مرة أخرى، ويبتسم للهويّات بعد أن برّرت بما تيسّر سبب زيارة حرستا من دون الكلام عن دوما معاذ الله. فيرد ضاحكاً «غادر أخي غادر مو عرفان وين إنت؟»

Twitter: @ketab_n

وزير الإعلام

عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

بعد أن أوقفت للتدقيق الأمني على إثر جولة في المناطق الحساسة حول دمشق عصر يوم الجمعة من دون موافقة مسبقة من وزارة الإعلام، حرص وزير الإعلام عدنان محمود على التواصل معي شخصياً للاعتذار، كما لم يرد الطلب لإجراء حوار هو الأول له منذ تولّيه منصبه مع وسيلة إعلامية.

المقابلة

تصل سيارة الوزير، لتنقلنا إلى حيث يداوم قسراً في مبنى الإذاعة والتلفزيون على يمين سيف ساحة الأمويين الكبير في وسط دمشق، ريثما تنتهي ورشة إصلاح وترميم مكاتب ومصاعد مبنى وزارة الإعلام في المزة.

خلف مكتب فخم وكثير الأوراق والهواتف، يقف الدكتور عدنان حسن محمود الذي انتقل من إدارة وكالة «سانا» إلى الوزارة مستضيفاً ضيوفه «الزملاء». هو قلب الحدث ومفصل أساسي في الإصلاح في حكومة وصفت تارة بالإصلاحية وطوراً بالانتقالية. يشعر بأنه مميز وجديد رغم أنه تدرّج في الدولة السورية بالترتيب المنطقي ليكون اسماً يحمل وزارة في حكومة أزمة. ورغم أنه «ابن النظام»، يشدّد على نقطة

Twitter: @ketab_n

أنها المرة الأولى منذ عام 1984 التي يكون فيها وزير الإعلام قادماً من الحقل الإعلامي. فقد كان السلك الدبلوماسي يمد الوزارة بالرجال طيلة الفترة الماضية.

أثناء الدراسة في دمشق، بدأ محرراً في التلفزيون السوري، وحين انتقل لمتابعة الدراسة في القاهرة، تسلّم مكتب وكالة الأنباء السورية «سانا» في مصر إلى أن أتم الدكتوراه «حول النظريات المستخدمة في وسائل الإعلام في عملية التنمية» عام 2002 ليعود إلى دمشق ويترأس تحرير الوكالة السورية منذ عام 2004 وحتى إعلانه وزيراً في حكومة الأزمة. في حديثه عموماً محاولة لبلورة رؤيته المستقبلية للإصلاح، وخطاب لا يختلف بالمضمون عن توجيهات الرئاسة، ولكن بالشكل. يصر على أطر الزمان والمكان لتبرير التأخير والتعثر، ويعد بالإصلاح لاستيعاب الجميع... ولكن كيف؟ «مواثيق الشرف الإعلامي» بينما توجيه كلام مباشر إلى أي وسيلة إعلامية، يدينها مستعيناً بالشواهد «أخلّت بمواثيق الشرف الإعلامي والاتفاقيات والقوانين والمعايير المهنية والأعراف الصحافية. هناك من يخصص 40 و50% من وقت البث لتغطية مئات المتظاهرين في سوريا بينما العالم العربي يشهد حروباً عالمية في مكانٍ آخر. هنا يستشهد بعناوين بعض الصحف العربية التي تصدر في الغرب في صباحات أيام الجمعة والخميس وتؤدّي دوراً تحريضيّاً على الدم».

بالانتقال إلى أحداث سوريا، يصر على أن المعارضة مشروعة بل مرحّب بها ضمن الإطار الوطني لا التخريب. ويعرض أبرز الشواهد على التخريب الذي طال عدة محافظات سورية. وحين نسأل عن خطاب «التخريب» و«المندس» والتغطية السورية الكاريكاتورية أحياناً

Twitter: @ketab_n

لما يحدث، يرد الوزير عن رؤيته للمستقبل «ورشة عمل لا كبسة زر». يقر بتقصير الإعلام الرسمي السوري لكنه يطلب إنصافه عبر مقارنة الإعلام الرسمي السوري بالإعلام الرسمي في كل الدول العربية، في لبنان وحتى في قطر وغيرهما. الفضائية السورية أفضل حالاً بكثير مقارنة بغيرها من القنوات التلفزيونية الحكومية في الدول العربية. يعد ببرامج تطوير الإعلام التي انطلقت اجتماعاتها الأولى. «وجّهت الزملاء للاهتمام بقضايا الناس المعيشية أولاً ووضعها على رأس الأولوية والتخلّي عن تغطية الأنشطة النمطية على نسق «استقبل وودّع». الموضوع ليس بكبسة زر، فنحن سنفتح نقاشاً عاماً مع الإعلاميين حول قانون الإعلام الجديد... ستعرض الأفكار بشكل مفتوح ليكون للإعلاميين السوريين دور في التغيير، فسوريا اليوم بحاجة إليهم لورشة البناء. كما ستفتح الأبواب أمام نشوء وسائل الإعلام الخاص المرئي، المسموع والمكتوب.

قانون الإعلام الجديد بحسب الوزير، سيأخذ خصوصية في كل نوع من الإعلام: الإلكتروني والمكتوب والإذاعة والتلفاز. «أنا أعلّم في الجامعة وأقول لتلاميذي دائماً: إن الإعلام أكثر العلوم سرعة في التطوّر، كل أربع سنوات، نقلب زمناً إعلامياً ونعبر إلى آخر. نعم علينا أن نلحق العصر، ونحن نبحث في الآلية ونفتح الباب للمحاولات». القانون الجديد عصري وسيأخذ بالاعتبار كل المتغيّرات ليعطي مساحة. لكن الورشة لن تنتهي بين ليلة وضحاها، ويرجّح الوزير «خلال أشهر».

يروي الوزير بفخر عن برامج تلفزيونية جديدة استحدثت للبحث في الفساد والقضاء وغيرهما ولن تخجل من عرض الملفات واحداً واحداً.

بعد قليل يتلقى اتصالاً هاتفياً من «دكتورة»، واضح أنه يناقشها في

Twitter: @ketab_n

ندوة عرضت في الليلة السابقة على التلفزيون. وتنتهي المكالمة بوعد إرسال نسخ عن الحلقات. يحثنا على متابعة تفاصيل النقاشات التي تجري على شاشات التلفزيون على الهواء مباشرة. وقبل أن نغادر، يحرص على أن يدلنا على الشاشة التي يعرض أسفلها كلمات: القضاء: واقع – إصلاح – تطوير. «حكي سياسة خارجية» يلحظ للشخصيات الرسمية دائماً في سوريا ربط كل سؤال بالوضع السياسي العالمي. في حديثه العام عن الأزمة، تفادى الوزير ذكر أسماء ووقائع كما حرص على تكرار الطلب بحذف بعض أجزاء الحديث واعتباره نقاشاً خاصاً لا تصريحاً رسمياً. فهو ينتقل من موقع الزميل إلى الوزير طيلة الجلسة بحسب حرارة النقاش. لكنّه يرسل إشارات إيجابية في البعد العربي على الرغم من الحملات الإعلامية التي تتعرّض لها دمشق: نحن حريصون على الإطار العربي وعلاقاتنا العربية، سوريا قادرة على الاحتواء.

ومن العرب إلى فرنسا: «شهدت ضواحي باريس عصياناً مدنياً وتدخل الجيش الفرنسي في ضواحي العاصمة الفرنسية». هذه الأمور تحدث في بلد تتربص به المؤامرات، ويقول الوزير في إطار مختلف: استهداف سوريا ليس بجديد، والناس واعون لهذا الاستهداف، الإصلاح لا يلتقي مع التخريب، والإصلاح لا يعني الاعتداء على المشافي وحافلات النقل.

نعود فجأة إلى المحور الأهم في السياسة الخارجية، الأميركي وحباله التي يشدها. وفي سياق الحديث عن اغتيال أسامة بن لادن، يتساءل الوزير: عملية القاعدة لم يظهرها سوى الإعلام الأميركي؟ الدول الغربية بنت مواقفها السياسية (مما يجري في سوريا) على فايسبوك ويوتيوب

Twitter: @ketab_n

وحقائق نصفها مشوّش، ليس هناك من إعلام بلا أجندة. «أنا متفائل» يختم الوزير متفائلاً: المواطن السوري يعي ما يحدث، وأنا مطمئن لتجاوز هذه المرحلة. نحن أكثر منعةً وقوةً نتيجة وعي المواطن، وهذا يوازي دعمه ومتابعة برامج الإصلاح لتحسين حياته. هناك إجماع على دور الجيش في ملاحقة هذه البؤر. الغد هو: أن يتحوّل التحدّي إلى فرصة، هذا ما أثق به كمواطن سوري.

يصفّف شعره الداكن قبل الصورة قرب العلم السوري ويختم اللقاء الحصري بابتسامة. يعطينا نسخ بعض المقالات التي كتبت عنه وإحداها في موقع «معارض»، ثم تصل من مكتب الرصد أوراق طبعت عن المواقع الإلكترونية عن نبأ الإفراج عن «مراسلة السفير». وهي تهم بالخروج. ربما التأخير في مكتب الرصد بنقل النبأ، يعكس واقع حالة الوزارة. في ظل أسئلة كثيرة: ما شروط التراخيص؟ هل يشمل الحوار الشخصيات الإعلامية المضطهدة بسبب رأيها وكتاباتها، هل من إصلاح جوهري لشكل الإعلام السوري البطيء والتقليدي؟ ننتهي كما بدأنا: «الوزير ليس في الوزارة. المصاعد معطلة هناك. الإصلاح يعطّل المبنى جزئياً وحتى إشعار آخر».

Twitter: @ketab_n

أيّ قانون لأيّة أحزاب سورية

تمشي. تسأل. تحاور. تسمع. تغضب. تخبط الطاولة. يحمر وجهك. تبتعد ثم تعود. تحكي وتناقش وتنفعل ثم تهدأ. أنت أيّها السوري اليوم بين مقاهيك ومطاعمك ومكاتبك. من سائق أجرتك، إلى رجل أعمالك، إلى قياداتك، إلى ضباط أمنك، والأولوية إلى وزيرك. أنت أيها السوري الحزبي واللاحزبي، الخائف والمحتقن، المتلقي والمندفع، تسمع وتطالب بقانون للأحزاب. أتسأل نفسك في السر وفي اللقاءات السياسية الكثيرة غير المعلنة: ما هو الحزب؟ أين هو الحزب؟ ماذا يعني الحزب؟ أي قانون لأية أحزاب؟

شارع لا يملك حزباً، ولا أي نوع لائق علمي من التحزّب والعمل السياسي. ما يتوفر للسوري هو أن يكتب طلب انتساب لحزب البعث وهو تلميذ مدرسة. أن يكبر من «الطلائع» إلى «الشبيبة» إلى الحزب. وهو واحد، قائد للدولة والمجتمع وللأحزاب الأخرى عبر «جبهته الوطنية التقدمية». وهو الوحيد المرتفع اسماً للجامعة وفرعاً في الشارع وتعاونية في الدولة وقيادتها. حروف ثلاثة ارتبطت بكل شيء منذ فجر ثورة الثامن من آذار حتى يومنا هذا: «بعث»... عربي اشتراكي.

ثم حلت «الانتفاضة السورية»، التي يقول البعض إنّها فوضوية، عشوائية وغير حزبية، والتي قادت إلى شكل ما من «الفتنة» التي لم يعد يختلف اثنان على مخاطرها وتربّصها بسوريا شعباً وجيشاً ودولة...

Twitter: @ketab_n

ودماء. لكن هذه الصرخة، الانتفاضة، أدخلت مصطلحاً جديداً إلى كلّ الجلسات السياسية أين ما كانت، اليوم مسموح أن تناقش فكرة «الأحزاب الجديدة»، أن تنتقد «الجبهة الوطنية»، وحتى أن تعلن رغبة في «تطهير» البعث نفسه. في المقابل يقول رأس الإصلاح معنوناً: أنا سأعطيكم قانوناً عصرياً للأحزاب وبسرعة.

ولكن مهلاً: هل نعرف ماذا نريد؟ في أي إطار سنكون؟ على أي أساس سنتحزّب؟ ما هو دور الجبهة؟ إلى متى تستمر؟ عن أية أحزاب نتكلّم؟ هل يكون اجتهاداً يشبه اجتهاد «الجبهة» في السبعينيات؟ هل ستسمح لي بأن أكون بعثياً باسم آخر؟ هل سترفع فوقي سقفك؟ أم تسمح لي بأن أجعل السماء سقفاً لي؟

«البعثي»

«البعثي» في نادل المطعم وسائق الأجرة وطبيب الأسنان وتلميذ الجامعة ورئيس اتحاد الصحافيين ورئيس تحرير الجريدة وعميد الجيش وعماده ولواء أمنه وضباطه. كما قد تجده في تظاهرة ضد النظام يوم الجمعة. فلم يكن الانتساب إلى حزب البعث خياراً للمواطن السوري بل أشبه بالقدر. كان أمراً واقعاً لتلميذ الصف السابع الأساسي، من أينما أتى، وأينما هو ذاهب في المستقبل.

الحزبي البعثي الرسمي هو من يحضر الاجتماعات. ذاك هو الذي يمتلك فرصة للوصول إلى سدة القرار، من المدرسة إلى الجامعة إلى المحافظة ومنها إلى الوطن. البعث هو باب السلطة. بموجب دستور البلاد ومادته الثامنة، إن البعثي هو قائد الدولة والمجتمع. وبموجب

Twitter: @ketab_n

«الجبهة التقدمية الوطنية»، الأحزاب الأخرى المسموحة هي عملياً تابعة للبعث، في القرار والسلطة كما في الخطاب والتصريح والرأي، وإن اختلف الشكل. إذاً فرصة الوصول إلى العمل السياسي الحقيقي لا تكون إلا تحت جناح البعث.

«التطرّف على الطرفين»

في نهر التطرّف، لا تنام الفتنة المذهبية على ضفة واحدة. المسيرة المؤيدة التي تحمل صليباً مع صورة الرئيس في دمشق، لا تختلف في العقلية عن الإمارة الإسلامية المسلحة في بانياس، وإن اختلف خطرها باختلاف تسلّحها ومشروعها. في الشعب كما في الدولة هناك من يخوّن كل من ينتقد النظام ويدافع عن الخطأ. لهجة التبرير والدفاع هذه لا تخدم النظام، بل تعكس مفارق الترهّل الذي فيه: إلغاء الآخر، والفوقية، والخطاب التقليدي، والتعصّب للنظام مهما فعل عوضاً عن التعصّب لمصلحة الشعب والأرض والوطن. وهذا التطرّف الموالي سيقف عقبة بوجه الإصلاح الحقيقي لأنه لم يعترف حتى الآن بالخطأ. كيف يمكن، في ظل تطرف كهذا، أن يخرج قانون للأحزاب؟!

«المعارضات أنواع»

كما أي نظام حاكم في العالم، تبلورت في وجه الحكم في دمشق نزعات معارضة، متنوعة الأسباب والأهداف، بينها السياسي البحت وبينها الطائفي، والمناطقي أو العشائري أو الفردي. بينها ما يتمتع بتمثيل شعبي وبينها ما يدّعي التمثيل، ولا يتمتع به. بينها الوطني وبينها الحاقد،

Twitter: @ketab_n

بينها العاقل وبينها المتهور. بينها الإسلامي، أو السلفي أو المتطرف بتديّنه، وبينها العلماني المعتدل والمتطرف. بينها السلمي، وبينها أيضاً من رفع السلاح بوجه الدولة.

الحوار لن يكون ممكناً، ولا الخروج من الأزمة، إذا لم يتكلّم هؤلاء بآلية ما للعلن. بيانات الفنانين لم تكفِ الشارع، انقسام المثقفين السوريين عكس انقسام الشارع عوضاً عن القيام بالدور التنويري المنتظر منهم. ألم المعارضة الوطنية الأكبر هو أنها لم تترك لتعمل على تحسين دولتها لمدة خمسين عاماً، فوصلت إلى يوم أصبح فيه المعارض الذي يصرخ في الشارع هو الجهادي المذهبي ومن لا يملك أفقاً سياسيًا. تلوم النظام هذه الألسنة، تحمّله مسؤولية تفشي التطرف بأشكاله، تصف «علمانية» النظام بأنها علمانية كاذبة لأن رداء النظام العلماني هو الذي كبّر تحته هذا التمذهب. المعارضات أنواع تختلف بالمنطقة والطائفة والأفكار. ابن «السكنتوري» الذي صرخ في اللاذقية يختلف كثيراً عن تاجر «بابا عمر» الذي يصرخ في حمص، وابن دوما مختلف عن الاثنين. علاقة المواطن بالدولة تختلف من محافظة إلى أخرى، كما يختلف مفهوم «النظام» بين منطقة ومنطقة لأنه يتخذ خصوصية المناطق. هنا تؤدّي المعارضة الوطنية المتمثلة بمفكرين وكتّاب محاولة نضالية كبيرة، أن تقف فوق العشائرية والطائفية لتحاور النظام، في لحظة أمنية حرجة.

«الاعتدال» تحت قصف الجميع

المعارضة تحقد على عدم صراخه بعد، وتتهمه بأنه «شبّيح». الموالاة تتهمه «بالخيانة» أو «الانتهازية» أو «العمالة». هو المعتدل المضطهد في

Twitter: @ketab_n

جامعته لأنه لم يتحرك تأييداً ولا تهليلاً. هو ابن درعا الذي تألم مع دماء أهله لكنّه لم يعارض الحل الأمني. هو الذي ينتقد كل الأطراف بل كل التطرف أينما وجد. تجده في طالب هندسة في حمص، يعارض والده البعثي. تجده في عميد في الجيش، يدافع عن حقوق بديهية لأهل المعضميّة ودرعا. تجده القائد العسكري الذي يمشي بلباس مدني بين أزقة المدينة ليتفحّص نبض شارعها وأهلها ومقاهيها. تجده في العماد الذي صرخ في وجه تظاهرة التأييد: أنزلوا الصليب. تجده في «القومي» الذي عارض تريّث حزبه وطلب الدخول إلى صلب الصراع. تجده في الصحافي الشاب الذي يكره الإعلام الرسمي الذي يعمل فيه. تجد الاعتدال هذا يطالب بصوت مرتفع: غيّرلي دولتي لأحارب التطرف أينما وجد.

صراع الكواليس

الضغط الحقيقي هو اللامع في عيون القيادات التي تجري الحوار مع الأرض. هو الهاتف الذي لا يكف والمواعيد التي لا تنقطع: مع شيوخ العشائر والمناطق والمعارضين وصولاً إلى ميشال كيلو. هو من يبحث حقاً في الحل، ويستمع لمطلب الأرض. وهذا الذي يعيش الصراع الحقيقي بين ما يجب أن يكون الحل، والأدوات المتوفرة. حوله يكثر الصراخ، جهة، تريد دولة مدنية، وجهة تصر على حصة أكبر للطائفة. معارضة تطلب أحزاباً، وأحزاب تطلب استمرار «الجبهة» لحماية المصالح. تعارض الضغط واتساع مروحة المطالب، هو الصراع اليوم. سوريا بعيونهم جميعاً تعيش مخاضاً، وتحمل أكثر من جنين. وعليها تسمية الجنين قبل أن يولد على يد قانون الأحزاب.

Twitter: @ketab_n

أي قانون لأية أحزاب

أعلنت سوريا رسمياً أنها ستبحث في قانون الأحزاب. وفيما تتخبط الطاولات، تتخبط أيضاً الأحزاب. وتتعارض الرؤى والمطالب. البعض يقترح محاورة الإسلاميين والعشائر والأرض كما هي، فيعارضهم بعض آخر يصرخ للدولة المدنية، والأحزاب الوطنية فقط. إنّها الفرصة الكبرى لاقتناص التغيير نحو ما ينصف الشعب والمجتمع ويحفظ الثوابت. يحكى عن تأطير الجبهة التقدمية الوطنية من دون خوض تفاصيل مستقبلها. تصرخ الأرض: إلغاء الجبهة لإنعاش أحزابنا. ترتعد القيادات المستفيدة خوفاً على مصالحها. وفي الحوار، لا تزال الأسماء مقتصرة على أصابع اليد، أبرزها ميشال كيلو. هل يصنع ميشال كيلو قانون الأحزاب وحده؟ أين الحزبيون من الحوار؟ وأين المعارضون؟ قانون أحزاب يغيّر أنظمة، والسؤال الأبرز على طاولات سوريا اليوم: أيّ قانون لأيّة أحزاب؟

Twitter: @ketab_n

ما غاب في الإعلام والضجيج السياسي:
جذور اقتصادية للاحتجاجات السورية

تحت صخب اللحظة السياسية التي تعيشها سوريا، وضجيجها، طمس الإعلام والمحللون والخبراء الجذور الاقتصادية للـ«الثورة» الحقيقية في الريف. بعيداً عن «أسلمة» التحرّك و«أمركة» المحتجّين الذي هو احتمال وارد وموجود، ثمة غضب اكثر جوهرية من الهتاف السياسي، مرتبط بالحرمان، والبطالة والجوع بين الفئات الشعبية الريفية تحديداً. ثمة غضبة سورية حقيقية كانت شرارة الهتاف الأولى من درعا، ومن دوما، ومن المعضمية إلى داريا وسقبا، وهي كلها مناطق ريفية، في عاداتها وتكوينها واقتصادها. عمّال وأصحاب أرض وأملاك، محرومون من استثمار أرضهم، ربما بسبب قوانين لم تنصفهم، أو ربما بسبب مصالح فاسد مرتش، أو حيتان مستثمرة.

درعا والري...

يقال الكثير عن درعا في الشارع السوري. الجزء الأكبر من الوجوه يلقي «خطأ درعا» كلّه على كاهل رئيس فرع الأمن السياسي السابق عاطف نجيب، نسيب الرئيس الأسد. ومنهم من لم يكتف بصدور قرار إقالته واستبداله، بل يطالب حتى بإعدامه. يقال إنه تعامل مع طلاب المدرسة بالقمع والتعذيب، وحين قصده أهلهم، أذلّهم ولم يستجب

Twitter: @ketab_n

لطلبهم الإفراج عن أولادهم المراهقين. فازدادت شرارة الغضب.

لكن على أرض درعا، مشهد الغضب المتراكم منذ سنوات لا تختصره حادثة «عاطف نجيب وأولاد المدرسة». تتداول المصادر الرسمية والعامة معلومات عن مشكلة أكثر عمقاً، ولّدت الصرخة الشعبية في درعا. هي مشكلة اقتصادية بحتة. ففي درعا كما في معظم الأراضي الحدودية، يمنع القانون أصحاب الأراضي من بيعها أو استثمارها.

وكما معظم الاراضي الحدودية أيضاً، تنشط مهنة «التهريب» وتصنع رؤوس الأموال. وكما معظم ريف دمشق، «تتمتع» بعض رموز الدولة بقابلية الفساد والرشوة، والتواطؤ مع المستثمر على المزارع والعامل والفلاح.

في درعا مثلاً، يتحكّم قانون الري بنسبة الآبار، وعلى المزارع وصاحب الأرض أن ينال موافقة مسبقة من مكتب الأمن قبل أن يسمح له بحفر بئر يروي منها حقوله ليزرعها ويحصدها ويعيش... وبفعل الفساد والمحسوبيّات، يحظى الراشي الأكبر بالامتياز الأكبر من آبار الري، بينما يحرم سواه من الأهالي، من معدومي الحال.

وبالإضافة الى ذلك، فإن مشكلة المساكن والبناء واستصلاح الأراضي والري في ريف دمشق عموماً وفي درعا خصوصاً، ليست أمراً جديداً. ويكفي فقط، البحث في شبكات الإنترنت للعثور على مد وجزر إعلامي سوري منذ عام 2007 وما قبله، حول هذا الموضوع بين الحكومات والجمعيات الأهلية وهيئات العشائر وأصحاب الأراضي.

Twitter: @ketab_n

دوما و«ملّوك»...

إن كنت آتياً من دمشق إلى دوما، فسيكون تسلسل البيوت وشكل الطرقات والناس منطقياً كتسلسل الطبقات الاقتصادية السورية. دمشق بألوانها وثرائها وتجارها ووكلائها، ثم حرستا الأكثر فقراً وتديّناً بمحالّها ولافتاتها وألوانها ومساكنها المتلاصقة، ثم دوما، الأكثر تطرفاً في فقرها وتديّنها وحرمانها. دوما هي تلك البيوت القروية المتناثرة كتراب الطريق، بطوابقها القليلة.

راجت نكتة في الشارع الموالي عن دوما وأهلها أنهم «طالبوا بقانون الطوابق عوضاً عن قانون الطوارئ». لكن هذه النكتة، رغم النبرة الفوقية النخبوية التي فيها، مستوحاة من أرض الواقع. فضمن مطالبهم التي رفعوها إلى الدولة، ضمّن أهل دوما بنوداً عن إصلاحات قوانين وتدابير البناء التي يرافقها إجمالاً الأمن والمخالفات والرشى والمشكلات.

لدوما داء مشابه لداء درعا، في ظرف اجتماعي مختلف. المجتمع يأخذ شكلاً متفقاً على «إسلاميته». فضمن ورقة المطالب أيضاً، رفعت أولاً صرخة لإعادة المنقّبات إلى سلك التعليم بعد منعهن من الاستمرار في وظيفتهن.

ذلك لم يكن كل شيء. في «ملحمة مرايا» في حرستا، تكلّم غضب ابن دوما. عبّر محمد سكرية العشريني عن غضبه من شركات النقل الخاصة، وبعباراته الشعبية أجاب: «أنا أتظاهر في الجامع ضد ملّوك». شركة ملوك هي إحدى الشركات التي احتكرت خط دمشق – دوما، فسببت، بتوقّف مئات سيارات النقل بالأجرة عن العمل، الحرمان لمئات العائلات والبيوت، وقطع مصدر الرزق عن الكثيرين.

Twitter: @ketab_n

وفضلاً عن صعوبة الحصول على تراخيص البناء، ومشكلات السكن، عكست صرخاتهم التي أخذت طابعاً «خدماتياً وظيفياً» فساد الدولة وقوة القبضة الأمنية على حياة الناس في دوما خصوصاً، وفي ريف دمشق عموماً. فمنهم من يقول: «لم أعد أريد أن أسأل مكتب الأمن موافقته كي أقيم حفلة عرس». ومنهم من يتذمّر: «لكي أحصل على رخصة بناء، عليّ أن أدفع ثلاثة أضعاف المبلغ، بين الرشوة والخوة والحصص».

داريا و«العرصات»...

كما أختاها دوما ودرعا، تعاني داريا والمعضمية من عوارض داء الريف السوري. ورغم اختلاف السبب باختلاف المحافظة، فالوجع الشعبي نابع أيضاً من حرمان الناس من حق استثمار الأراضي. وهذا ما عبّر عنه ابنها مصطفى في حديث مع «السفير» على مدخل المعضمية. وهذا ما تروي عنه بيوت داريا والمعضمية العشوائية الفقيرة بين الحقول الكثيرة. ومن داريا إلى مطاعم حارات دمشق العتيقة، ينزح «إبراهيم» الجولاني يومياً ليعمل نادلاً، لانعدام فرص العمل الأخرى. وأيضاً من بيته في داريا ينزح «باسم»، الحائز شهادة مساعد مهندس، ليعمل في المطعم نفسه ويشرح من باب توما «لا فرص عمل سوى هنا، رغم أنني ضد المخربين، أملي أن تتحول هذه الصرخة إلى تحسين وفتح فرص أمامنا، فلا يمكن نكران أننا نعاني من مشكلة وظائف».

رفعت داريا مطالبها إلى مكتب قيادات رفيعة في الجيش. وفي ورقة المطالب رؤوس أقلام عن الإصلاحات السياسية كقانون الطوارئ

Twitter: @ketab_n

وغيره، لكن المطالب الأساسية بغالبيتها تأخذ طابعاً وظائفياً خدماتياً. من تلك البنود مثلاً: «قانون استملاك جديد، رفع الحظر على الأراضي القريبة من المطار، اختيار الموظفين والمسؤولين من كافة شرائح المجتمع، تعديل قانون «العَرَصات» المرتبط بالأراضي المعدة للبناء وغير الخاضعة لهيمنة الدولة.

تغيير السياسة الاقتصادية

من ندواته إلى أبحاثه وتدقيقه الدائم لمشكلة سوريا الاقتصادية، اكتسب الدكتور منير الحمش قدرة على تفصيل المشكلة وطرح الحل. خلال حديثه معنا أوضح الحمش أن ما يجري في سوريا هو «معاناة حقيقية من النواحي المعيشية بسبب السياسات الاقتصادية المعتمدة» وعرض واقع ما تشهده بلدة «سقبا» التي تستمرّ يومياً في الاحتجاج.

برأيه، تحت عنوان «اقتصاد السوق الاجتماعي»، اتخذ النظام شكل «اقتصاد السوق الحر». بما معناه: محاباة الأغنياء ليزدادوا ثراءً. فنجم عن ذلك على الأرض مزيد من الفقر والبطالة، وهناك البؤرة التي يعشش فيها الاحتجاج. يرى أن سياسات الدولة أدّت إلى شرخ المجتمع. مفاضلة فئة معيّنة من رجال الأعمال، الفساد، ومظاهر عادات التبذير والترف، شكلت استفزازاً للفئات الشعبية. هذه النقمة خاضعة لمحاولات استغلالها سياسياً لأغراض مغايرة. والمواطن مظلوم، عمليات استملاك وهيمنة أشعلت وراكمت غضبه. والحل هناك، بمعالجة الغضب.

يقول الحمش إن إزالة كل السياسات الاقتصادية التي خلقتها المرحلة السابقة، ستزيل مفاعيلها، والحل يبدأ بكشفها والتراجع عنها.

Twitter: @ketab_n

إصلاح سياسة توزيع الثروة، وإعادة توزيع السلطة بحيث يساهم الناس المتضررون ويأخذون حقهم، الحد من الانفتاح الاقتصادي.

«سقبا» تريد إسقاط المفروشات التركية

يعرض الدكتور منير، قصة منطقة «سقبا» كنموذج اقتصادي للبحث. وتشهد سقبا – ريف دمشق، احتجاجات يومية لم تتوقف. تعاني هذه المنطقة من فقر وبطالة وحرمان. كان يعمل معظم أهلها في صناعة المفروشات والأثاث. بفعل سياسة الانفتاح الاقتصادي، دخلت الصناعات التركية، والصينية والماليزية. فقضت على سوق المفروشات السقباوية. وضربت القطاع الذي تقتات منه عشرات العائلات. أغلقت متاجر النجّارين، وتراجع عملهم ليقتصر على عمليات التصليح أو الورشات الصغيرة، وبعضهم «غطس» في البطالة. دخل الفقر إلى بيوتهم.

ومن سقبا إلى السياسة الاقتصادية يستخلص الباحث الاقتصادي: «الحد من سياسات الاقتصاد الحر، وإنعاش الإنتاج السوري زراعة وصناعة. التراجع ولو قليلاً عن الانفتاح الاقتصادي. إعادة الحق لصاحبه: الشعب.

أما سقبا على الإنترنت، فتحت عنوان «مطالب أهل سقبا»، يتحدث شاب عن مطالب من ناحية الرقابة على التموين وتحسين مستوى العيش وفرص العمل، كما يتذمّر من غياب سيارات الإطفاء. ليتكلم بعده النجّار باسم النجارين متذمّراً من البضاعة الصينية والتركية والماليزية. ثم يتحدث رجل آخر قائلاً: نحن مدينة صناعية على مستوى الشرق

Twitter: @ketab_n

الأوسط، لكننا نعاني من قبضات الضرائب. لا نعرف روتين القانون ولكن طلبنا أن نفتح شركة مساهمة معفاة من الضرائب لمدة خمس سنوات، لنوظّف جميع الشباب. مشكلتنا البضاعة الصينية والتركية التي خربت حياة الشباب: البخاخ والمنجّد والنجار والمصلّح.

ثورة الداخل

بين قيادات الجيش الرفيعة، تلك التي لم تظهر في الضوء بعد بل تتمتم اسمها فئات الشعب على امتداد خط القلق السوري: رجل أربعيني تابع ملف درعا، ثم دوما وصولاً إلى ملفات داريا والمعضمية التي تنام على مكتبه في بيته. يتعصب للفقراء، يضع الإصبع على الجرح. يسمّي الأشياء بأسمائها ويتحسّس من النبض الطائفي في الحديث الرائج. منذ اندلاع الصرخة الأولى، أصبح مكتبه مركز استقبال الأهالي المحتجين. تصادف على بابه ابن سوريا من القامشلي ومن حمص ومن المعضمية، يأتي ليلتقي «بسيادته» حتى ساعات الليل الأولى يقصدونه بالجملة والمفرّق. وهو يسمعهم، يغضب معهم، ثم حين تسأله يقول: «نحن أخطأنا، نحن مخطئون هنا وهنا»، ولكنه منذ اللحظة الأولى يبعث الرسائل على أعلى المستويات «سنسحق رؤوس الأميركان بأقدامنا». يرفع نبرته غضباً، تشتدّ خطوط عينيه ويقول «لا لن يسكت المقهور إذا بدلنا له المحافظ، لأنه يريد الوظيفة واللقمة والحق. أخطاء المعالجة الأمنية أجّجت نار حرقة الناس من الفساد. ما يعانيه الشعب أن مفاصل الارتباط بين الدولة والمجتمع فاسدة».

رغم أنه يحاور، ويسمع، ويتسلم المطالب الشعبية، ويبحثها،

Twitter: @ketab_n

ويتواصل يومياً مع الاهالي، لا يتوقع الحل السريع. «العجلة تسير، ولكن ليس بين ليلة وضحاها يصنع التغيير، هناك شريحة كبيرة من الأهالي تتريّث وتبحث معنا في الحل». رغم تيقّنه من المؤامرة والمحاولات الغربية، تلتمع علامات اطمئنان في حديثه عن المستقبل.. لكنه يصر «حلّنا من هذه الأرض، وليس من الخارج».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

من السويداء إلى حلب مروراً بحماه

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قمح حوراني واحد في محافظتين
جبل الدروز النائم فوق درعا

تعلن الحجارة البركانية السوداء هويتها. دخلنا في أرض حوران باتجاه السويداء. بعد ساعة من دمشق، يطلّ «جبل الدروز» وبيادره. تغزل يوميات الناس حكاية علاقة الإنسان بأرضه وإرثه وأجداده. هنا حكاية أقلية طائفية في هذا الشرق، ولدت من رحم ترابه، دافعت عنه وبذلت الدماء لاستقلاله. هنا يرقد القائد سلطان باشا الأطرش بعين نصف مغمضة فوق درعا اللصيقة. هنا معزوفة الحرمان ذاتها، ومشكلة الري والأراضي والأمن والفساد ذاتها. لكن مخاوف مختلفة تردع أهل «الثورة السورية الكبرى» عن «انتفاضة الحرية». هنا للأمن قبضة مشابهة، هنا حوران الواحدة بهمّها الواحد، ومسافات وهمية بين قرى متلاصقة تنقسم إلى محافظتين وطائفتين.

بركان حوارن: حجر وبشر وشجر

تعرف حوران من لون أرضها وترابها البني المحمرّ البركاني بدءاً بقرية «الصَورة الكبيرة»... يبتسم أحمد الإدلبي في مقعد سيارته الصفراء، «حابب شوف السويداء، بيقولوا هواها دوا».

عند «الصَورة الكبيرة» ينتهي تدرّج ألوان الأرض من الشام إلى أرض حوران البركانية. ترفع لافتتها الأولى «فلاحو السويداء يرحبون بكم».

Twitter: @ketab_n

حجارة الأرض يميناً ويساراً ترسم مسار الطريق مع سنابل القمح الشقراء. وحجارة البيوت امتداد لحجارة الأرض، نفسها. كأن البيوت نبتت من التراب. ثوانٍ من رومانسية الشمس والقمح، قبل أن يقاطع الطريق حزام الأمن عند منطقة «الحزم». عشريني يتفقد الهويات سريعاً بيمناه بينما تقبض يساره على سلاحه الروسي. ينتهي «الحزم» بابتسامة تعيدنا إلى سحر أرض «شهبا» ووجوه أهلها. تلاقيك وجوههم كلّهم بابتسامة المشتاق، تسبقهم أرواحهم للعناق. لباسهم لباس الأرض، أصابعهم مطبوعة بلون ترابها، سمرة جباههم من شمسها. سواء أكان خريج إعلام أم شيخ عقل، ابن السويداء يعمل في زراعة الحقل ويعاني كسواه من شحّ المياه. لا تفارق الطريق مشاهد خيم الترحال البدوية ورعاة الماعز المبعثرة حول أراضي السويداء>

بشار الأسد على أرض «شهبا»

يقف جبل «شيحان» بنّيّ القمة، أسود البطن. فوقه معبد «شيحان» للموحدين بنجمته الملوّنة، ومن قلبه الأسود يستخرج التراب المستخدم في البناء. تتوزع قرى شهبا على ضفاف الطريق صغيرة ومتحلقة كرقصة العامل حول مسافات الأرض. من هنا ومنذ ثلاثة أشهر، عبر الرئيس الأسد صباحاً مع عائلته. أوقف سيارته في زيارة مفاجئة، ونزل يسلم على الأهل. حملوه وحضنوه وعانقوه وصوّروه وزغردوا له. دخل عليهم، جلس معهم أكل أكلهم وشرب شايهم، من دون فوج مرافقة وموافقة وأمن، ومن دون أن يستحضر التهليل والتأييد. كان مشهد «ابن» ثري بين أهل فقراء، كتلك الإعلانات التي تصوّر عودة المغترب

Twitter: @ketab_n

إلى قريته وأهله البسطاء. صوّره هاتف خلوي، وتناقلت الصورة محافظة السويداء كلها ومنها إلى كل سوريا. ربّ صدفة أو قدر، أن توقيت الزيارة كان قبل شرارة درعا بأسبوع. زيارة تصلح نموذجاً عن محبة أهل الجبل لرئيسهم، رغم معاناتهم. كما تعبّر عن ثقته بهم وارتياحه لهم.

السيارات على جانبي الطريق العام تودّع مشهد شهبا ليستقبلنا في «عتيل» حزام الأمن الثاني، ووجه الأمن العشريني المشابه والسؤال المعتاد عن الهويات. ترسم خاصرة الطريق مسارها ليظهر مدخل السويداء، المدينة.

قمقم يساري في مدينة الريف

ريف ممدّن، مصارف ومراكز وإشارات مرور، وشيخ «معروفي» بلباسه على دراجة نارية. خلفه لفحة بيضاء أخرى تقود حافلة ركّاب. عيون النساء تتفحص الوجوه بينما يعبرن بالوشاح الأبيض أو باللباس العصري. حركة الشارع ظهراً نواتها مزارعو القرى وعمالها وطلابها وموظفوها في اجتماعهم الريفي الوسطي في «مدينة التاريخ في العصر الحديث».

أسواق متعانقة متشابهة تنتشر في حزام عفوي حول ساحة المدينة. وللساحة اسمان: «ساحة السير» أو «ساحة الأسد». فمنهم من يفضّل أن يسمّيها نسبة لحافلات النقل وسياراته التي كانت تركن فيها، ومنهم من يسمّيها نسبة لتمثال الرئيس حافظ الأسد الواقف وسطها. وفي الحالتين: هي ساحة البلد.

«مقهى ألفا» اليساري للفن يكسر تقليدية المجتمع من الساحة:

Twitter: @ketab_n

لوحات وشعر وصحافة وموسيقى يسارية علمانية ناقدة وغاضبة ومعارضة من المقهى. يكسر توحّد اللونين الأسود والأبيض ويزهو بألوانها الأخرى. مميّز باختلافه عن النسيج الاجتماعي «المعروفي» الطاغي على المدينة وقراها.

داخل القمقم اليساري في المقهى، تبدو السويداء كشارع الحمراء البيروتي ببعض الفوارق: هنا الزوج هو ابن العم أو «ابن القرايب». وهنا حين تخفت الأصوات لتهمس بـ«الأخبار»، قد يكون عن «جريمة شرف»، أو عن شائعة خطبة طائفية سجّلت في جامع درعاوي تتناول بنات السويداء.

تحت نجمة معروف سيارة أمن ورومان

فهذه المدينة قرية حقيقية، رغم انفتاحها الجزئي الظاهر في لباس البنات العصري الجريء نسبياً وشرب «العرق البلدي»، هنا العائلات والوجوه والأسماء تعرف بعضها بعضاً. ويمكن لابن «السهوة» أن يعرف ما جرى في «القريّة» بمكالمة هاتفية لأخته أو عمه أو عمته أو ابنة خال صهره. هكذا هي الروابط. قرابة الدم العابرة من «جبل الدروز» السوري إلى «جبل الدروز» اللبناني، فتحت للسياسة امتداداً هنا أيضاً. ومن تلك الشواهد استقبال وئام وهاب كالفاتحين حيناً، والضغط على وليد جنبلاط في الخاصرة الدرزية السورية حيناً آخر.

يعلن القوس الحجري الذي كان «مشنقة» في عهد الرومان، امتداداً أبعد للتاريخ في حوران. تحت «الشارع المحوري»، ترقد مدينة رومانية من الآثار. وفوق التاريخ المطموس، على اليمين دار الطائفة ونجومه

Twitter: @ketab_n

المرتفعة فوق سيارة أمن تحرسه.

تتمدّد الطريق فوق تاريخ الرومان لتنتهي جنوباً إلى القرى حيث إرث الثورة في جبل العرب. نمرّ في «رساس» للعبور إلى المقلب القروي الآخر، حيث بيت الأمير حسن والقائد سلطان باشا الأطرش، وبيارق الثورة السورية الكبرى التي هي جزء أساسي في موروثات المجتمع. من تلك الناحية الى الجنوب الغربي، تلتقي محافظتا حوران: السويداء ودرعا.

بين السويداء ودرعا شعرة معاوية

رغم اختلافهما، تتشابك القرى والحياة وتجمعهما الأرض وزراعتها. منذ انطلاقة الاحتجاج الأول، تحمل درعا على السويداء عدم الحراك لمخاواتها. كما يفسّر رأي آخر أن السويداء لديها الكثير من الدوافع لتغضب، إلا أن انطلاقة الشرارة من درعا سبب كافٍ للجمود. فمنذ قبل درعا، هناك «حساسية» اجتماعية بين المحافظتين تتراوح من «غيرة» المزارع من أخيه وآبار ريّه إلى نقمة لأن طريق الأردن مفتوح من درعا ومغلق من السويداء، إلى سلّة من الحساسيات. لكن الأساس في تصنيف «آخر» هو اختلافه الطائفي. غربي السويداء، ترقد أولى قرى درعا: «معربي» و«جبيب» على بعد خمس دقائق من إمارة الأطرش في «عرى». كذلك حال «أم ولد» الدرعاوية حيث أكبر عائلات مشايخ درعا «الرفاعي».

Twitter: @ketab_n

ما جمعه القمح لا يفرّقه إنسان

القمح يجمعهما. وحادثة «قمحية» منذ أسبوع قد تعبّر عن تعامل الشارعين مع الأزمة السورية وفي ما بينهما:

تصل سيارة حجبت لوحتها الرقمية بلافتة من الكرتون كتب عليها «حوران» إلى أمام مطحنة القمح في السويداء. ينزل رجل وأكياسه. يبتعد له الأهالي ويدعون بعضهم «قطّعوه، جاي من درعا». يسبق صف الأهالي المنتظر، ويضع كيسه في الأمام للطحن. وفيما ينتظر، يقصده أحد الشباب ليسأل ويعترض على نمرة «حوران». يصرّ الدرعاوي على كرتونته. يمدّ يده «العروي» على الكرتونة، يزيلها ويمزقها: «هذه اسمها سوريا، وحوران جزء من سوريا، حين تصبح إمارة وحدها، عندها علّق النمرة التي تريد».

الشاب نفسه، ابن عرى الثلاثيني من عائلة «حامد» القومية السورية، ومنذ أيام ثلاثة كان شاهداً على إحدى عمليات وأد الفتنة في إحدى القرى المتاخمة لدرعا. فبعد أن أصيب أحد أبناء عائلة الشقراني برصاصة أثناء خدمته العسكرية، ونجا، هبّ بعض الشباب إلى الطريق لينتظروا مرور سيارة درعاوية للرد والثأر، حينها انبرى شباب «القومي» في السويداء لفض النزاع، وتهدئة النفوس، وإعادة الرشد إلى الأهالي. وقد تمثّل هذه «الهبة» أحد نماذج تلك «الحساسية».

ليس القومي اللاطائفي اللاعب الأكبر في التهدئة، بل إن المرجعية الطائفية هي التي تحكي. مشيخة العقل تعتبر صمام الأمان لحوران اليوم. رغم تناثر الشائعات التي تصلح وقود قتل تحت هذا الظرف، وتغضب المشايخ، لكنهم يضعون المساعي في إطار الجمع لا التفرقة. واكتفت

Twitter: @ketab_n

المشيخة، برؤوسها الثلاثة، أن تؤدّي دور التهدئة وضبط النفس. صمام الأمان هذا المتمثّل بالقيادة الروحية، لم يولد اليوم. ففي مشيخة العقل حلّت أزمة عام 2001 مع «البدو».

Twitter: @ketab_n

شيخ عقلها وعقولها
ماذا يقول أهل الثورة السورية عن جارتهم درعا؟

اسأل من تشاء في سوريا – من أعلى الهرم الاجتماعي والسياسي والعسكري، إلى أدناه – عن السويداء وموقفها، فسيكون الجواب واحداً: «السويداء مع الرئيس حتى العظم».

لكنك لن تحصد إعجاباً أو تضامناً مع «النظام الأمني» أو مصطلحات مثل «مندس» و«مخرّب» سوى ربما عند مزارع بسيط يعتمد على الإعلام الحكومي ويثق به، وهو يمثل شريحة تعكس نصف المجتمع السوري اليوم. ستلمس في الشارع «حساسية» تجاه أهل درعا ربما، نسبة لما يسمّيه الشارع «صراع الأخوين» التاريخي بين المحافظتين. ولكن اسأل شيخ العقل، سيجيبك: «حوران واحدة بسهلها «درعا» وجبلها «السويداء».. ونحن مع الرئيس وضد المؤامرة».

سر قليلاً في الأسواق، بين المتاجر، تعثرْ على بائع معترض متذمّر مقهور، يلازمه الحاسوب و«الفايسبوك»، يتابع «الانتفاضة» بنهم المشتاق. اسأل عن الشيوعي، عن القومي، عن اليساري العلماني المستقلّ، تجدْه هو أيضاً يتخبّط بين الأحداث والواقع ويحاول بلورة رأي واضح. أنا مع مَن، وضد مَن؟ أنا لن أضع نفسي في خانة محددة، هناك ما أوافق عليه وما أرفضه في الطرفين: الشارع والنظام. أنا السويداء، جبل «الكرم والكرامة» الملاصق لدرعا. أنا الثورة السورية الكبرى وسلطان

Twitter: @ketab_n

باشا الأطرش، يوميّاً أقول «ثورة» عشرات المرّات، وأنقلها وأورث قيمها من جيل إلى جيل. أين أنا من هذا الحراك الذي سمّاه البعض «ثورة»؟

«العقل» هو الشرع الأعلى

في «سهوة البلاط»، مضافة لشيخ عقل مختلف عن نظيريه في مشيخة السويداء الثلاثية. اسمه الشيخ حمود يحيى الحناوي. الشارع بضفتيه يعتبره موئلاً معتدلاً، وملجأ عاقلاً هادئاً، ومرشداً. فهذا شيخ لا رفاهية في مضافته ولا اتصالات هاتفية يومية مع المسؤولين في رصيده. شيخ حزّمت أظافره صبغة التراب البركاني الأسود من كثرة التقائه بالأرض لزراعتها، كأنه حجر آخر من أحجارها، أو شجرة من أشجارها.

تحت صورة جدّه وإرث أبيه، يفاخر الشيخ حمود بتاريخ أهل الجبل في قهر المحتل ودحره. لوحة جده، شيخ العقل الأول لطائفة الموحدين في جبل العرب الملقب «سيف الدين»، تروي وحدها الحكاية. في الرسم، شيخ خلع عمّته وحملها في يمينه ليسدّ بها مدفعاً تركياً في إحدى معارك التاريخ.

أما الحفيد، الذي يقارب السبعين من العمر، ففي وجهه وكلامه اتزان المثقف المتعقّل. درس الأدب العربي ودرّسه 27 عاماً، في سوريا وفي مهجره في الخليج. عمل في جريدتين خليجيتين أثناء اغترابه. اختلط وخالط المجتمع وأفكاره حتى اكتسب رؤية عامة ميّزته في الشارع عن نظيريه في المشيخة.

تعرّض كلامه للتحريف و«القصقصة» في منابر الإعلام السوري الرسمي، فولّد ذلك عنده توجّساً من الإعلام. ولكن في مضافته، يحكم

Twitter: @ketab_n

على مقولة «سيماهم في وجوههم»، ويبوح لصحافية لبنانية، بمعاناة السويداء ووضعها الاقتصادي، كما يعبّر عن رأي السواد الأعظم من الشارع. فالمشيخة كانت ولا تزال، المرجعية الاجتماعية والسياسية والفكرية الأولى في جبل العرب. صمام أمان تحلّ تحت سقفه النزاعات وتعقد المصالحات. معبر مطالب السويداء إلى قصر الشعب، ومعبر محبّة قصر الشعب إلى قلوب أهل الجبل.

حوران واحدة... حاولنا لمّ الجراح

في وصف العلاقة بين درعا والسويداء، يقول «هما معاً حوران، السويداء جبلاً، ودرعا سهلاً». البيئة واحدة ومستوى المعيشة واحد والمعاناة واحدة. ما يؤلم المحافظتين يؤلمنا جميعاً. لم نكن نتمنّى ما جرى. حاولنا منذ اللحظة الأولى لمّ الجراح وتدخّلنا مع إخواننا في حوران، وبالاتصال على مستوى رفيع في الدولة التي كانت إيجابية إلى أبعد حدود. لم نوفّق بالتواصل الإيجابي نظراً لتطوّر الأحداث داخل درعا وخارجها. كان مسعانا قائماً على الخير ورأب الصدع وإنهاء الأزمات. لكن الأمور على ما يبدو، كانت فوق طاقتنا كأفراد... ونأمل «أن تعود المياه إلى مجاريها لنعيش بأمن وسلام».

وبالحديث عن المياه ومجاريها، فإن حوران الواحدة، بسهلها درعا وجبلها السويداء، تعاني من مشكلة الري. لطالما كانت آبار الري سبباً لغيرة السويداء من درعا. رغم أن درعا لم تكن واحة المياه للمزارع، بل لأصحاب الامتيازات من المستثمرين إلا أنها تشتهر أيضاً بالكثير من الآبار المخالفة التي غضّ الأمن الطرف عنها، مقابل الرشوة التي هي خبز

Twitter: @ketab_n

يومي في مفاصل فساد الدولة في الدوائر الرسمية.

يشرح الشيخ معاناة السويداء من الجفاف وقحط المياه، للشرب والري، وجفاف بعض الآبار. كما يعطي نبذة تاريخية عن هذه المعاناة وحلولها من أيام الرئيس الأب إلى الابن. يفيد أنه أخيراً أثبتت الحقائق العلمية والوقائع المكتشفة أن السويداء تعوم فوق أحواض مائية ضخمة. يرد الفضل إلى الرئيس بشار الأسد فهو «أمر بحفر هذه الآبار، التي بلغ عددها مئة بئر، منها ما أنجز ومنها ما هو قيد الإنجاز، وهذه لفتة لن تنساها السويداء وأهلها».

أموال الاغتراب وعراقيل الصناعة

بالنسبة للدخل في السويداء، فإنها تعتمد اعتماداً أساسياً على الاغتراب في فنزويلا والخليج. فكل مشروع أو منشأة صناعية أو خدماتية ستجد خلفها مغترباً. الأبنية والمعامل، مصنع «البلاستيك» ومعمل «عصير الجبل» اللذان يورّدان إلى جميع المحافظات السورية، وحتى الفرن على مدخل السويداء لصاحبه الشاب ذي اللباس واللهجة الأميركية، كلها أموال استثمار جمعت من الخارج.

يعرب الشيخ في سياق الحديث عن الصناعة عن امتعاضه من صعوبات الصناعة، وهو على الأرجح إشارة ضمنية إلى سيطرة الأمن وضباطه على إعطاء الرخص والتسهيلات الصناعية والرشوة. ولكن في لغته التي تراعي موقعه، قال: «أما بالنسبة لاستخدام الطرق الحديثة على المستويات كافة، من بداية الطريق كنا نلحظ دائماً أن أي توجّه صناعي في المحافظة، يواجه بعراقيل تستدعي التساؤل، ومع هذا كانت السويداء

Twitter: @ketab_n

تترفع عن كل الجوانب التي تعوق السير الوطني، وتحتفظ بكرامتها وعزة نفسها وإبائها رغم الحرمان».

لماذا لم تتضامن السويداء مع أختها درعا؟

«هذا سؤال طُرح علينا كثيراً» يردّ الشيخ الحناوي. وكما ذكر سابقاً، كان هناك تضامن «وفاقي» يقوم على مسعى الخير منذ البداية. هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى بحسب شيخ العقل، «لم نكن على اطلاع دقيق على الأهداف التي تقع خلف هذه الأحداث. لذلك لا نستطيع أن نحدد موقفنا من دون معرفة وعلم ودراية. لم نُستشر في المواقف المتخذة حتى نبيّن رأينا الذي ينطلق من مصلحة البلد وأمنه. لا نستطيع أن نسير في طريقٍ من دون رؤية واضحة وسليمة. هذا الوطن الذي ضحّت محافظة السويداء بأكثر من خمسة آلاف شهيد من أجل استقلاله وجبلت ترابه بالدم، لن نفرّط أو نغامر بذرة تراب من ترابه.

نحن لا يمكن أن نضع أنفسنا في مواقف غير مدروسة وغير واعية من دون أن يكون لنا رأينا المعتمد على الحقيقة والضمير الوطني. نحن إسلاميو الانتماء، توحيديو المذهب، سوريو الوطن، عروبيو الأصل، إنسانيو النزعة. لا نفتي بالقتل إلا بحق، ولا نسفك الدماء إلا من أجل الوطن. المطالب مشروعة، ولكن الوصول إلى الأهداف النبيلة يحتاج إلى وسائل سلمية وعاقلة. التخريب والفوضى عرقلة للإصلاح. الهدم والحرق وتدمير البنى التحتية وسفك الدماء وسائل منحرفة. حتى يتم الإصلاح علينا تحديد أسباب الفساد.

ليعلم رجال الدين أن رسالتهم أمانة في أعناقهم لنشر الوئام والمحبة

Twitter: @ketab_n

والتسامح واجتناب القتل. من هو الذي يموت ومن هو الذي يستشهد؟ ابن، أخ، شقيق، أب. القتل لا يجوز إلا دفاعاً عن الأرض والعرض. من قتل نفساً... فكأنما قتل الناس جميعاً.

هذا في حديث الشيخ الظاهر، وفي الخلفية خوف طبيعي من «بعبع» متوارث ومتفق عليه في صفوف الأقليات المسيحية والدرزية في سوريا. وهذا ما يتضح ختاماً في حديث شيخ العقل الحناوي «الطائفة الدرزية ليس لها أهداف انفصالية. نحن عرب سوريون لا فرق عندنا بين مذهب ومذهب، ولا حزب وآخر، ولا عرق وآخر. لا تمييز ولا تكفير ولا تصنيف. السوريون كلهم في حمى الدستور وظل القانون. ما نؤمن به هو الاحترام المتبادل وعدم إلغاء الآخر. نشدد على الحرص في تغليب العقل لمعالجة الأمور.

بعيداً عن النظرة الدينية، النظرة العلمانية تعارض

قد يعبّر رأي شيخ العقل عن تريّث غالبية أهل السويداء وانكفائهم عن الحراك. فهو أصلاً مجتمع ديني تقليدي مرجعيته الدائمة المشيخة. لكن هناك من خالف تقليديته. كسر اليساريون والحزبيون والنقابيون وبعض الشباب والبنات الثائرات، كما كسرت ابنة «سلطان باشا»، منتهى الأطرش، هذا العرف. هناك شريحة لا بأس بها من المجتمع، لم تكتف بالسكوت، لكنها تتريّث عن الحراك في ظل القبضة الأمنية. ولها رأي مخالف لرأي مشيخة العقل، وداعم لانتفاضة كسر الخوف، ومعارض للنظام الأمني القابض على حياة السويداء مثل أختها درعا. لكنهم يتخبطون اليوم، يمثلون نموذجاً عن «تكسير الرأس» بالأفكار

Twitter: @ketab_n

الذي يسود في كل لقاءات السوريين. هذه الموضة الجديدة في مقاهي المعارضة: أسئلة وتجاذب وأخذ ورد يدور حول الفلك ذاته: نريد دولة ومواطناً، لا «فزاعة» و«مدعوساً».

شاعرة ثائرة: ضد الخوف، مع الدولة المدنية

شاعرتنا صاحبة خمسة دواوين. شعر جريء يرقص على إيقاع جسد المرأة والحب والثورة والرفض للمجتمع التقليدي الذي ولدت فيه. تقضي أميرة أبو الحسن أيامها مكتفية بثورة الإنترنت اليوم، رافضة أي رأي داعم للنظام من أينما أتى. فبرأيها، عندما تكون الدماء في الأرض، لا يحق لأحد ألا يتضامن.

«أنا أثور ضد الخوف. أنا علمانية لا يحكمني انتمائي الديني. لو لم أولد لأم وأب درزيين، لكنت أي شيء آخر. رفضت انتمائي الديني لأن فيه هو خوفاً أيضاً. الخوف شرير، هو عدوي الثاني من بعد «الكذب». كيف أرضى بدولة إعلامها يبني الحواجز بين الناس في اللغة والخطاب، على مبدأ فرّق تسُد».

اليوم، ليس من الممكن الرجوع إلى الوراء. ترى أميرة أن عجلة الانتفاضة لن ترتدع إلا إذا بانت إصلاحات حقيقية في شكل حياة المواطن وتفاعله مع الدولة، إلا إذا أصبحت هناك مواطنة حقيقية تنصف الناس.

«ما يزعجني أني أخاف من كلمة أكتبها، أني أخاف من التبليغ عن الفساد، من قوة الفاسدين وسلطتهم». مشروعها وثورتها لإعادة بناء المواطن السوري عبر تعديل المناهج التربوية.

Twitter: @ketab_n

ليست مع الشكل «الإسلامي» للثورة، لكنها متضامنة إلى أبعد حدود. فرغم أنها ترفض النقاب رفضاً قاطعاً مثلاً، تراها متضامنة مع حراك دوما ودرعا وغيرهما الذي اتخذ شكلاً إسلامياً. فبرأيها، إن النظام وحكمه هو الذي أوصل المجتمع إلى تطرفه. فلم يكن هناك منبر سوى المنابر الدينية في ظل قبضة الخوف والظلم. «هم كبّروا الدين ليحموا أنفسهم». ما تريده: سوريا مدنية، فصل الدين عن الدولة. لكنها بعينين مستديرتين تعلن انزعاجها من أسلوب التخوين ومن «تمثيلية الممانعة» كما تسمّيها. فبرأيها إن إسرائيل وأميركا ترتعبان من فكرة سقوط النظام السوري.

القومي والشيوعي: لا نتفق إلا على الدولة المدنية

للحزبين مشاكلهما التي يدركها المناصرون والمخاصمون. لكن رواد الفكر، ماركسياً كان أو سورياً قومياً اجتماعياً، لا يستطيعون أن يجدوا أنفسهم ضمن نظام الحزب البعثي الواحد. لكن ما يختلف عليه الاثنان، وفق شابين ينتميان الى الحزبين: هو أن الشيوعي يريد الثورة كيفما كانت، أما القومي فيريدها ضمن الثوابت. الاثنان ينتقدان بقسوة. فعبارة «بلطجية الأمن» على لسان شاب سوري قومي، لم تكن لتسمع من قبل. كما أن خريج الإعلام الثلاثيني يدافع عن حراك النخبة في السويداء: «تحرّك المحامون ورفعوا بياناً فتصدى لهم «البلطجية»، أيعقل أن يجابه المحامي بشاب أمي يحمل عصا؟ ورغم موقع حزبه في الجبهة وموقف حزبه اليوم الذي اتخذ «الإصلاح» سقفاً لخطابه المتأخر، يطالب «حمد» بتحقيق الإصلاح عبر مبادئ حزبه الإصلاحية: فصل

Twitter: @ketab_n

الدين عن الدولة، إلغـاء الحواجز بين المذاهب والطوائف، منع رجال الدين من التدخّل في السياسة. ويقوم مع رفاقه القوميين بدوريات يومية لتفقّد أمن القرى وأمانها، كما يتدخّلون في مساعي التهدئة مع من لهم «مونة» عليهم حين يعلو صوت ثأري يتهدّد السلم الأهلي.

أما الصحافي، سالم ناصيف، المنحدر من عائلة شيوعية ناضلت وسجن أفرادها بسبب آرائهم، ففي حدة معارضته سقف أعلى: ضد كل النظام بشكله الحالي، ومع كل أشكال الثورة. وينفي وجود أسلحة أو مندسّين، ثم يعدل فيقول «ربما».

ورغم أن حزبه وفكره يتعارضان مع مبدأ النخبة، يتغنى بأن معارضة السويداء تتشكل من أطباء ومحامين وكتّاب وشعراء ومثقفين. ورغم اتضاح الشعارات الطائفية، يتهم السلطة بالترويج لها: «الشعار الطائـفي معروف يخدم من.. لا يخدم الثورة». وقبـل أن يذهب إلى الأخير في معارضته، يضيف: «إسقـاط النظـام لا يعني حكماً إسقاط بشار، فالنظام هو أجهزةالأمن».

إن أكبر خطأ ارتكبه النظام السوري، برأي الصحافي الشـيوعي، أنه اعتمد أسلوب «ترييف» المدينة و«تمدين» الريـف، ما فرّغ الناس من أي موقف سوى الدين. بينـما يرى السوري القومي الاجتماعي أن الخـطأ الأكبر كان في تعزيز دور المنابر الدينية والتضـييق على الأحزاب النهـضوية. لكنـهما يتفقان على شيء جوهري واحد: المشـكلة في المجتمع، والحل في الدولة المدنية. والحـل يتبلور بتعديلات دستـورية وإصلاحات ملموسة. يختمان «حتى الآن، لم نلمس شيئاً من الإصلاح المنشود».

Twitter: @ketab_n

حماه وجراحها وإرث الإخوان: أعطني حريتي

قبل الوصول إلى حماه، ستطلق أحكام مسبقة كثيرة: مدينة متشددة، «إخوانية»، ريفية، منتفضة على النظام، مخرّبة، سلفية... قد تقول أي شيء عن الحموي، لكنك لن تنصفه بأي تصنيف. فحين تصل إلى أرض حماه، ستجد «موزاييك» سياسياً اجتماعياً في ظل بيئة ريفية محافظة.

في مدينة تصدير المواشي ومنتجاتها، تلتقي الاشتراكي العربي، والشيوعي، والسوري القومي الاجتماعي، والبعثي، والإخواني. وقبل التوجّس من كلمة «إخواني»، لا بد من الإشارة إلى أن «الإخوان المسلمين» في حماه، ليسوا تنظيماً سياسياً، بل حالة اجتماعية، ووصمة وجرح مفتوح منذ الثمانينيات، و لم يسقط من ذاكرة المدينة.

وبعد جولة حموية وأحاديث مع مختلف التوجّهات السياسية والحزبية والمذهبية، يمكن القول إن مدينة حماه، بالمقارنة مع أخواتها – حمص، اللاذقية، درعا، دوما، المعضمية... وغيرها – قد قدّمت الصورة الأكثر عقلانية عن الانتفاضة السورية. ربما علمها التاريخ ودماء أبنائها المسفوك في الماضي، أن «السلاح» ليس الطريق الأمثل إلى الرفض ولا التعبير عن الرغبة بالتغيير.

أحداث الثمانينيات: جرح مفتوح... وعبرة

في حماه، ذاكرة الدم المراق رادعة. يروي الشارع أن تسعين في المئة

Twitter: @ketab_n

من الآلاف الذين قتلوا لم يكن لهم لا ناقة ولا جمل بسلاح «الإخوان المسلمين»، وأن قيادات التنظيم فرّت في تلك الأيام إلى العراق، حيث كان حزب البعث العراقي هو الذي يدعمها ويسلّحها. أحياء كما هي، دمّرت فوق رؤوس قاطنيها. قبضة الحديد والنار هذه، ولدت سيفاً ذا حدّين. فالشارع إذ نقم على النظام، نقم أيضاً على المسلحين الذين كانوا سبباً أو ذريعة للإبادة التي حدثت.

تقتصر شعبية «الإخوان المسلمين» في حماه على التعاطف أكثر منه بالارتباط والتنظيم السياسي. جراحها لا تزال مفتوحة، وترتفع على كل لسان حين تسأله. آلاف قتلوا بتهمة ومن دون تهمة: يوم دخل الجيش إلى حماه، كان الشباب والرجال مشاريع شهداء، لمجرّد أن لهم قريباً أو صديقاً إخوانياً. وسبب إبقاء الجرح مفتوحاً أن مصير الآلاف لم يعرف بعد.

يقول أحد الشباب الاشتراكيين إن الملفّات الإشكالية التي يجب أن تغلق في حماه هي: المفقودون منذ عام 1982، الذين يتجاوز عددهم عشرة آلاف، والمهجرون قسرياً، الذين تتجاوز أعدادهم عشرة آلاف أيضاً. إضافةً إلى الأملاك التي صودرت من أصحابها منذ ذلك الحين بتهمة أنهم مرتبطون بقرابة الدم أو المجتمع لأحد من التنظيم الذي كان مسلّحاً واستهدف الشخصيات السياسية القيادية حينها.

مفاعيل الثمانينيات الاقتصادية: ارتقى الريف وتدنّت المدينة

إذا كان لا بد من التوصيف المذهبي لشرح الوضع الحقيقي في ظل التصنيف السائد، نعتذر مسبقاً عنه. ولكن، حول المدينة الريفية

Twitter: @ketab_n

حيث غالبية سنية وأقلية مسيحية، للريف طابع علوي وإسماعيلي. وقبل «أحداث الإخوان»، كان الريف ينعش المدينة اقتصادياً. ثم بعد الأحداث، انكفأ الريف عن المدينة خوفاً من ردود فعل قد تتخذ شكلاً ثأرياً، وبالتالي، انتعش الريف بأبنائه اقتصادياً، وتدنى وضع المدينة بغياب مال الريف. ثم إن المدينة دفعت ثمن «الإخوان» عقوبة اجتماعية واقتصادية فرضتها السلطة، فالوظائف والامتيازات والتسهيلات كانت محرّمة على كل من له قريب كان يوماً في تنظيم «الإخوان المسلمين»، فترى اليوم شارع المدينة يشكو من أن أصحاب الوظائف، في كل الدوائر الرسمية مثلاً، هم من أبناء الريف، يقصدون وظائفهم يومياً، ثم يعودون إلى قراهم. هذا ما زاد «الغلّ» في شرائح المدينة.

ولطالما اعتبر الحموي من الشرائح المرتاحة اقتصادياً نظراً لمدخوله الذي يزيد على مصروفه، فالمحافظة هي التي تصدّر إلى كل سوريا، وإلى الخارج، منتجاتها الغذائية، وبالتالي، فإن كلفة المعيشة فيها أقل من باقي المحافظات. وتصدّر المواشي أساساً إلى دول الخليج وعلى رأسها السعودية.

محافظ متشدّد ولكن ليس متطرفاً

لا شك في أن المجتمع «متشدد» لجهة السواد الغالب على الشارع ولباسه. وحتى المسيحيات يغطّين رؤوسهنّ أحياناً. لكن الحموي عموماً يشتهر بحبه لمشروب العرق. وقد تجد رجلاً، زوجته منقّبة، يلتزم بأداء واجباته الدينية، وفي الوقت ذاته قد لا يتردّد في احتساء كأس من العرق مع الأصدقاء، سرّاً. وهذه ليست مبالغة. فحتى الشيخ العرعور الحموي

Twitter: @ketab_n

الذي يخطب من الخارج للتحريض اليوم، تسود الشارع أحاديث عن صباه في الأحياء المسيحية وشربه للعرق. ولكن سُجل للعرعور يوم الخميس أنه بعد دعوته المتلفزة، وبرغم تلبية بعض التجمعات في بانياس وحمص وبعض اللاذقية لها، لم تستجب مدينته حماه لدعوته ...ما يعكس، بحسب كثيرين، وعي أهلها وحساسيتهم إزاء مثل هذه الدعوات. ففي حماه، برغم «التشدد» الديني، لم تظهر علامات الخطاب الطائفي كما في حمص مثلاً، و لم يتهوّر «طلاب الحرية»، كما لم يرفع السلاح للتصدّي للأمن، فللحموي هدف واحد محدّد واضح: الحرية والتحرر من قبضة الأمن الموروثة، منذ زمن ذنب لم يقترفوه من إرث الثمانينيات. ما يريده الحموي «السني» اليوم، أن يتحرّر من عقاب السلطة في التملك والوظائف المتناقل والموروث. يريد أن يحسم ملف المفقودين نهائياً كي يستطيع أن يحل مشكلات الإرث والوظائف. يريد أن يتخلّص من عبء الثمانينيات.

ساحة النضوج السياسي ورحم القيادات

من هذه الحماه المتشدّدة اليوم، تخرّجت قيادات سوريا عبر التاريخ. فقبل مأساة الثمانينيات، خرج من حماه أكرم الحوراني، باعث الاشتراكيين العرب، كما خرج رئيس سوريا السابق، أديب الشيشكلي، ومنها أيضاً خرج الوزير خليل كلاس الذي عايش عهد الوحدة أيام عبد الناصر، وحتى الضابط الذي أعلن انقلابه على الشيشكلي، مصطفى حمدون، إبنها. وفي البعث أيضاً وقياداته ومؤسّسيه، لحماه دور لم يمحه التاريخ مثل الدكتور المؤسّس فيصل الركبي. كذلك لا يمكن نسيان

Twitter: @ketab_n

الأديب وكاتب المسرحيات والثائر محمد الماغوط، ابن السلمية الحموية.

لا تختصر حماه بهذه الأسماء، فمنذ الخمسينيات وهي أرضٌ خصبة للحزبيين، قوميين وشيوعيين ومن بعدهم اشتراكيون، العرب انطلقوا ونشطوا من أرض حماه. فما الذي يقوله حاملو إرث هذه الأحزاب اليوم؟

اشتراكي وقومي وماركسي ضد النظام الأمني

الاشتراكي العربي مولع بحراك اليوم، لكنه لم يتحرك بعد. يرى في الشارع ما يلبّي طموحه. يحمّل حزب البعث والنظام الأمني مسؤولية غضب الشارع. ورث عن أبيه بعض الأراضي المقيّدة بسبب قانون قديم أصدره الرئيس الراحل حافظ الأسد، ومفاده أن الأرض لمن يعمل بها. ولذلك، فعلى وائل أن يتخلص من الفلاحين الذين يزرعون أرضه قبل أن يعيد أملاكه. يرى أن الشارع الحموي قادر على امتصاص التطرف والتخلص من التشدّد حين تسنح له الفرصة للعمل السياسي. يطالب بصوت عال بقانون لائق للأحزاب يرعى الفرز الشعبي ويكفل تمثيل كل الشرائح. يعتبر نفسه «سنيّاً معتدلاً» ويرفض صبغ حماه بالتطرف أو السلفية. كما يصف «الإخوان المسلمين» بالحالة العاطفية لا أكثر ولا أقل، ويعتبر أن المجتمع سيمتصها إذا منحه النظام حرية العمل الحزبي السياسي. يطالب لهم وله، بقانونٍ للأحزاب، كي يفرز الشارع ذاته. يصف مدينته على الشكل التالي: «نحن محافظون ولكننا لسنا متزمتين». ثم يفيد بأن الرئيس اجتمع مع حماه مرتين: في المرة الأولى، التقى فئة من التجار والمقربين من السلطة، وهذا ما استنكره الشارع، معتبراً أن أولئك

Twitter: @ketab_n

لا يمثلونه. ثم في المرة الثانية التقى مشايخ الجوامع وكان ذلك مقبولاً... يقول وائل، الاشتراكي، إن حماه خزان السياسيين في سوريا، وإنه ليس ضد الرئيس، بل يرى أن لدى الرئيس فرصة، مطالباً، بصوت مرتفع، بقانون للأحزاب، وبحرية الصحافة وانتخابات مجلس شعب نظامية حرة ولكن ليس الآن: «فلندع الشارع ولنعطه مجالاً كي يتحزّب، في فترة لا تقل عن عام، ثم لتجرِ انتخابات، ولتفتح صفحة جديدة في العمل السياسي السوري».

أما الماركسي، المحامي ابن مصياف، فيرى أن الغد مشرق واعد، ويشرح امتداد النظام منذ الاتحاد السوفياتي وحتى ما بعد سقوطه. يثق ببشار الأسد، معتبراً أن الثورة كانت مشروعه من الأساس لكنه يرى الوضع الآن سينتهي إلى حل من اثنين: إما أن يلحق ركب التطوّر البشري والربيع العربي، وإما لن يستطيع أحد أن يقف في وجه التاريخ.

أما المهندس القومي، فقد أوقفه الأمن أربع مرات لأنه «حيّا التحرك عن الشرفة» ولأنه يتكلّم بأعلى صوت. يظن الأربعيني الثائر أن النظام هو من ترك الساحة للتنظيمات الدينية وضيّق على الأحزاب وأطّرها في جبهته «الهزلية». اليوم، يرى هذا القومي أن المؤامرة موجودة، ولا يتناسى مشهد العراق الماثل أمامه، لكنه يؤمن بأن الانتفاضة «على علاتها» قد تكون فرصة ذهبية للتغيير الذي ينعش الأمة والشعب ويعيد الحقوق لأصحابها. يشتكي من «القبيسيات»، وهنّ تنظيم نسائي ديني متطرّف، يدخل عقول بناته الصغار. يصفهن بأنهن صنيعة السلطة ثم يقول: «بعدما رعى النظام هذه التنظيمات، انقلب اليوم السحر على الساحر، والحل الوحيد لمعالجة التطرّف هو بالدولة

Twitter: @ketab_n

المدنية والحرية السياسية المطلقة، وليفرز الشارع ذاته».

«إخواني» منفتح

بما أن حماه تصلح لتكون نموذجاً للمجتمع الريفي السوري، قد يصلح «الحاج وليد» ليكون نموذجاً إخوانياً معتدلاً. ربما لا يمثل «الإخوان»، لا كتنظيم ولا كصورة عامة لهم. وهو ينادي بتعدّد الأحزاب. يصف نفسه بالمعتدل، ويرضى بأي رئيس كان، ولكن ضمن قانون يرعى تمثيله. «أخي وأبي قُتلا في الثمانينيات، لكنني لست بحاقد، حتى لو قاد التغيير شخص كالأسد، لكنني أريد حرية التحزّب». يصافحك باليد.. ويكشف عن ندبة خلّفتها «هراوات» الأمن على ظهره. أوقف قبل لقائه معه بيوم، لكنه استعمل الوساطة ليخرج. اليوم، وكما كل يوم، يخرج وليد، وأولاده ورفاقه، في تظاهرات بعد صلاة العصر. يتلاعبون بالأمن. تضحك عيناه إذ يروي: «هلكناهم ومش عم يعرفوا من وين منطلع». برغم انفتاحه الظاهر وحواره المتحضر نوعاً ما، يصوّر مطالبه بشيء من المذهبية. ثم يروي لنا عن القنابل المسيّلة للدموع وعن دوره في تنظيم المسيرات: «أنا أخرج لأتأكد من أن أحداً لن يندس بيننا ويثير الشغب، فإذا أراد واحدنا أن يتعدى على الأملاك العامة، نسبقه ونؤدبه، نحن لا نريد من يضر بشكل التحرّك». ثم يروي عن لقاءات المعارضين الحمويين مع الرئيس ويشرح: «قالوا لنا إن الرئيس يسمعهم ونحن لا مانع لدينا وقد تكلمت مع الشيخ، ما نريده هو إغلاق ملفّات الماضي، ومنحنا الفرصة لنشارك بالحكم. نريد أن نصبح جزءاً من الدولة، ثم لاحقاً يصار إلى تداول السلطة. ما أريده، أن أتخلّص من وزر الثمانينيات. لن أنسى

Twitter: @ketab_n

دماء أبي وأخي، لكن العدالة اليوم، تكفيني كي أنظر إلى كيفية بناء دولة أشارك فيها. أريد مناصفة، أريد حقي. لا أريد أن أحاسب على ما لم أفعله».

حماه هي سوريا

تمثل حماه، بشخصيتها الريفية السنية، نموذجاً لكل الانتفاضة السورية. وبرغم مجتمعها «المحافظ»، يجمع أهلها، بأطيافهم السياسية، على أن المجتمع قادر على امتصاص التطرف، إذا أعطيت الأحزاب أرضية ما لتعمل عليها. الاشتراكي والشيوعي والقومي والإخواني، جميعهم معارضون، ولا شيء يجمعهم سوى المطلب الوحيد: أعطني حريتي أطلق يديّ. اترك لي الأرض لأبني حزباً سياسياً. وبانتظار الحل السياسي المرتقب، تستمر حماه بآلافها المتضامنة مع الجراح، بالتظاهر لكن دون سلاح وبمطلب إصلاحي واضح ومعلن. وحتى اليوم، لا تزال تمثل الساحة الأكثر عقلانية التي يمكن أن ينطلق منها الحل باتجاه سوريا كلها. فحماه الجرح الأكبر، والانتفاضة الأصح، تريد كرامتها وتريد أيضاً... طيّ صفحة الماضي.

Twitter: @ketab_n

هدوء حلب

كُلّمَا رَحّبَتْ بنا الرّوْضُ قُلْنَا ... حَلَبٌ قَصْدُنَا وَأنْتِ السّبيلُ
فِيكِ مَرْعَى جِيادِنَا وَالمَطَايَا ... وَإلَيْهَا وَجِيفُنَا وَالذّميلُ
وَالمُسَمَّوْنَ بالأمِيرِ كَثيرٌ ... وَالأمِيرُ الذي بها المَأمُولُ
ألّذِي زُلْتُ عَنْهُ شَرْقاً وَغَرْباً ... وَنَداهُ مُقابِلي مَا يَزُولُ

(المتنبي)

صباح أحد أيام الجمعة، عنونت صحيفة عربية تصدر في أوروبا: «حلب ستتحرك اليوم». ولم تتحرك. ظهر جمعة آخر، هتفت سلمية القامشلي: «صح النوم يا حلب»، وحافظت حلب على هدوئها. ومساء كل يوم خميس في دمشق، تتهامس الألسنة والتكهنات: أغداً يا حلب؟

تشغل الدنيا وإعلامها وأنظار العالم، فهي الركيزة الذهبية للاقتصاد والسياسة في سوريا. ليس جديداً أن تكون محط رحال أحداث التاريخ فوق هذه الأرض واتجاه العيون. جارة الشام هي، مثلما هي جارة للعراق وتركيا وأوروبا.. عندها كانت تلتقي الحضارات والقوافل من الشرق والغرب. فيها ومنها ارتكزت الممالك والسلطات عبر التاريخ.. ستة ملايين نسمة في التجمع الصناعي الأكبر، تغزل الأقدار.

من بين أسواقها وحارات تاريخها، من أمام الجامع الكبير، من «كشك» يبيع «سودة نيّة» للمارة، من المدينة التي تصنّف «درع النظام»، من مضافة العشيرة وقهوة العصر وبيت المعتقل السياسي، من كل ممن فيها

Twitter: @ketab_n

وما فيها، تقول حلب للتاريخ اليوم: أنا مشغولة بالحصاد، ولي أولويات، وأنظر وأنتظر دمشق.

حلب من فوق ومن تحت

من دمشق إلى حلب، تستطيع برّاً أن تمخر جبال وسهول الداخل السوري باتجاه الشمال مروراً بحمص وحماه على معابر القلق.

أما لو كان لك قدرة على أن تدفع 3500 ليرة سورية، أي ما يعادل 70 دولاراً أميركياً (ملاحظة سعر الليرة السورية جيد نسبياً)، فلك فرصة أن تطوف بالطائرة فوق دمشق السبعة ملايين نسمة وتاريخها، إلى سلاسل الجبال والسهول السورية وألوان الزرع المتنوع والجفاف وتدرّج سمرته، لتصل بعد ساعة من السحر إلى حلب «من فوق».

تدرك العين من شكلها الظاهر إلى السماء، بالمصانع الكثيرة والحقول المنظمة، أنها مدينة اقتصاد بامتياز. قبل أن يعلن الصوت في الطائرة «مطار حلب الدولي»، تخبرك السهول الكثيرة أنها المنشودة. إلى السماء تقول قلعة صلاح الدين الضخمة، قصة التاريخ.. وتحط الطائرة في مطارها حيث إعلانات الفنادق ورائحة السياحة والمهرجانات في كل مفرق ووجه وتكاد تضاهي مطار دمشق.

لا داعي للبحث عن التاريخ الحلبي، فهو عابق على كل ملامحها. تلاقيك على معالم الشوارع كلمات طبعت «حلب عاصمة الثقافة الإسلامية 2006».

وفي المقاهي تنظر إلى اليسار فتطل من التلّة قلعة صلاح الدين. كنائسها وجوامعها تمشي صوب آلاف السنين من الماضي. بيوتها

Twitter: @ketab_n

وحاراتها وأسماء شوارعها القديمة، كالخرز المنظوم بخيط التاريخ. هنا شارع أبي فراس الحمداني وهناك جامع «سيف الدولة». هنا منزل المتنبي وهناك ألقى قصيدته. مرت من هنا الحثية والآرامية والأشورية والفارسية والرومانية والبيزنطية والإسلامية. وكانت حلب قلعة العصر العباسي في الدولة الحمدانية.

من نبض شارعها ومحيّاها عند الصلاة أمام جامع عمره مئات السنين، تكاد تسمع أبا الطيب المتنبي يقول للعرب والعجم بنبرة فوقية و«أنا» كبرى، في السياسة والموقف والكبرياء كأنه صوت حلب وناسها الآن هنا:

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً فلا تظنّنّ أنّ الليث يبتسم

على وجه اقتصادها فستق حلبي

للمجتمع حالة ريفية محيطة، تروي المدينة. رغم تدرج الطبقات الاقتصادية، ووجود حزام من العمال والنازحين حولها، تفاخر حلب بأن نسبة بطالتها هي الأقل في سوريا. للزراعة فضل أساسي في الاقتصاد، والبعض يرجع سكوت حلب إلى انشغالها بالحصاد في هذه الأيام. وربما يكون هذا على صعيد الريف. لكن الضوء الأكبر، للصناعة الحلبية. فإذا كانت «دمشق وتجارها» صنّفت ركيزة النظام مرّة، فقد أطلق على «حلب وصناعيّيها» اللقب نفسه مرات. للحلبي مصالح مكتسبة لا يفرط بها. فلا يتحرك جزافاً، وإذا تحرّك، تهتز الدنيا تحت قدميه.

«من يوم يومها» وهي ركيزة اقتصاد سوريا. فمثلاً: كانت حلب إحدى المدن الثلاث الأكثر أهمية في عهد الأمبراطورية العثمانية. فيها

Twitter: @ketab_n

الصناعة الحرفية المتخصصة، ومنها نبتت أيضاً الصناعة الحديثة. وحين دخلت إلى عصرها الجديد، واكبته لتشتهر بصناعة المعدات الزراعية والصناعية والحديد وهياكل السيارات والبرمجيات وقطع الحواسيب. لم يكتف ابن حلب بصناعة القماش والألبسة، دخل إلى كل الميادين في الصناعة التحويلية أيضاً. أسواقها كالكنوز. ليل الخميس يبدأ ليلها على ألواح المشاوي في الطرق. وتستفيق يوم الجمعة على باعة اللحم النيء في الشوارع.

سائق الأجرة يملك شاحنة لنقل جلود الحيوانات وبيعها، وبائع اللحم في الشارع، ابن أب يملك «ملحمة» كاملة. ومالك الملحمة بدوره أخ لمالك الأرض والماشية، وهكذا دواليك: شرائحها الاقتصادية مترابطة، وشرائحها الاجتماعية مختلطة في الاقتصاد. وسط عامر بفنادق ضخمة وأسواق جديدة وقديمة، وكالنواة في الثمرة يلتف حوله حزام النازحين العمال بشكل متلاصق.

اللافت أن العمال السوريين في لبنان على اختلافهم حين تسألهم، صعب أن تجد بينهم «ابن حلب». من إدلب، من السويداء، الحسكة، حمص، حماه، العامل السوري في لبنان صعب أن يكون حلبياً. فلابن ريف حلب مكان آخر ينزح إليه للعمل، بفرصة معيشة لائقة، حول مدينة باقتصاد ملوّن ومعطاء كسهولها.

قصة حلب مع النظام

قيل يوم الجمعة الأخير إن حلب تحرّكت، ونعم، تحرك 15 شابا تقريباً من أمام ثلاثة مساجد. ولكن ظهراً، كانت وجوه المدينة تدلّ إلى الجامع

Twitter: @ketab_n

الكبير وجامع الرحمن، فهذان هما الأساس. ومن أمامهما، لم نشهد أي تحرّك سوى وجوم ما قبل انتهاء الصلاة، وارتياح ما بعد انتهائها.

حلب تلي دمشق، في كل شيء، ولها قصة معها عن العلاقة بالنظام. حين تحركت حلب مع أحداث الثمانينيات، كانت تشجعّها دمشق. وبعد انتهاء الأزمة، أخذت حلب على دمشق أنها «زجّتها في المواجهة و لم تتحرّك». وفي المشهد التالي، بدا كأن حلب «عوقبت» على صعيد الامتيازات من الدولة والقدر، بينما كرّمت دمشق. اليوم، قد توصّف الحالة بأن حلب تنظر إلى دمشق قائلة: إذا كانت هناك ضرورة لحراك ما، فتحركي أنت قبلي لأتحرك، فقد قمت ببناء نفسي وأنافسك ولن أتخلى عن امتيازي.

المجتمع، بنسيجه المتنوّع، من عشائرية وإقطاعية وسياسية وحزبية، مال وسياحة وتخلّف وفساد. أفكار متنوعة تسود الشارع. وإذا كان الحلبي لا ينزل ويتظاهر فذاك لا يعني أنه ليس لديه ما يقوله ويعارضه. الشارع هو البرهان. والشارع اليوم يتراوح بين شباب ورجال أعمال حول طاولة القهوة الصباحية والمجتمع المدني الناشط والفن والثقافة وشيخ العشيرة.

Twitter: @ketab_n

حلب السياسة تمارس ألعابها المفضلة

حلب سرّ الطبخة السياسية، هذا ما تنتهي إليه الصورة الاقتصادية التاريخية العامة. لكن هذا السر، ما مكوّناته؟ مدينة الإسلام المحمدي بأنواعه وتواريخ أمجاده، والأرمن والأكراد ومزامير البيزنطية. يمر فيها الفرات وتبعد عن بلاد الأناضول مرمى حجر. إقطاع يملك وعمّال نازحون، عشائر وعائلات، مشايخ ومرجعيات فكرية مختلفة تمسك أطراف الثوب الحلبي.

كأنها مدينة – دولة بملايينها المزركشة إثنياً وطائفياً واجتماعياً. عليها الضوء والأنظار، لأن أي شيء يحصل في حلب، يرسل الذبذبات باتجاه الخارج والداخل. تركيا تتهيب لها وتشابك مجتمعها واقتصادها. قطر تراقبها بالعين الثانية. السعودية تعنون لها في الجريدة. كل شيء يتجه صوب حلب. وهي في مكان آخر، لا تزال تمارس يوميّاتها وحركتها. ترقد في عيونها حالة انتظار. تتشنّج. تقلق. تتكلّم. تتطرّف. تعتدل. تحصد بيادرها بينما تسمع الأخبار... تعيش حلب مخاض سوريا بالتفصيل لكن «بهدوء أصحاب المصالح». هنا، تمارس السياسة ألعابها المفضلة.

ما بقي من «نهضة» في أحزاب الجبهة

ظهر يوم الجمعة، أمام الجامع الكبير، منظر عُبادة أبو صوف وضيفته

Twitter: @ketab_n

«الغريبة» يبدو «مريباً». نظرات الاستغراب في عيون الوجوه الكثيرة. أجساد مدنية تمر أو تقف رابضة في قلقها. أجهزة أمنية على أشكال مدنية ورسمية تنتظر الخطبة من الخارج. شباب ورجال فقط، والكل تحت شمس الظهيرة يوجّه عينه إلى باب الجامع حيث سيخرج المصلّون.

وبينما يترقب الجمع ويراقبون، يقصدنا الجهاز الأمني الأول، على هيئة رجل، يخفض صوته ويسأل سرّاً «مَن؟» أو «ماذا؟» بطريقة مؤدبة. يرد عبادة رافعاً بطاقته الحزبية: نحن من الحزب القومي، فيعود السائل أدراجه مردداً: «القومي على راسي». ليتكرر السؤال والجواب نفسه بزيارة أمنية أخرى. ويبدأ زحف الباعة نحو الساحة بعرباتهم المسالمة. يهمس عبادة «حين يبدأ الباعة بالهتاف، يكون المصلّون قد خرجوا».

في مثل هذه الأيام، حين يكون الشاب عبادة أبو صوف، ابن التسعة عشر عاماً، حزبياً ينتمي إلى السوري القومي الاجتماعي وفاعلاً في منفذية حلب، ستلازمه تهمة إلكترونية من «الحقوقيين» بأنه «رجل استخبارات». قد يكون خطابه ودفاعه وتبريره للنظام السوري يثير حساسية «حقوقية». لكن عبادة شاب صغير متحمس وصادق. إنه في السنة الأولى في الجامعة. لا ينام جيداً ولا يبالي بلباسه. يشغل رأسه في مكان واحد: همّ سوريا، ويهمل جسده في مكانين: شوارع حلب وشاشة الحاسوب.

يمتدح مسؤول الحزب في حلب، فتكاد للحظة تظن أن مؤسس الحزب وفكره أنطون سعادة تقمّص في مسؤول القومي في حلب الدكتور عبد الله كيروز. لتكتشف لاحقاً أن المسؤول عضو اتحاد نقابة الصيادلة، بكل ما قد تحمل الصفة من دلالات في الشارع القومي المتنوّع اليوم.

Twitter: @ketab_n

انتقالاً من جامع لآخر تحت الشمس، يرفع عبادة يسراه عالياً مروراً بالشارع الرئيسي في المدينة: «هنا صرح أحزاب الجبهة». فيطل مبنى كبير مخصص للاجتماعات «المصيرية»، التي تقتصر في أكثر الأحيان على مناقشة مشاريع ورؤية البعث القائد للدولة والمجتمع، كما كانت تختصر الحياة السياسية «الجبهوية» في سوريا قبل صرخة آذار الماضي.

عبادة هو حزبه، باندفاعه وسوريته المتأصلة وثقافته واهتمامه. يعبّر بغضبته من حوادث النضال السياسي في حلب عن اختلاف حزبه عن البعث. لكنه أيضاً يعبّر عن مؤسسة حزبه بطريقة نموذجية اليوم: صورة صفحته الشخصية على «فايسبوك» زوبعة بقرب الرئيس بشار الأسد تقول «كلنا معك». لكنّهم ليسوا كلّهم معه بهذه الطريقة، ولا عبادة وشباب الحماسة الحزبية همّ الجميع. ولو استفاق سعادة اليوم ورأى حزبه، لفرح أنه لا يزال يرفرف في طلاب غزة وطلاب حلب، ولكنه طبعاً لن يقول كلمته التاريخية: ما أشد اعتزازي بكم.

هناك شريحة من أبناء الحزب يراقبون بنقمة المبتعد الحريص على الدور والمبادئ والنهضة: أين أنت يا قومي سوريا؟ فتردّ قيادة الحزب في جريدة «النهضة» السوريّة: اجتمعت الجبهة في مركز «القومي» في منتصف آذار على الشكل الآتي...: «حيث ناقشوا في لقائهم شؤون الجبهة، وثمّنوا عالياً مرسوم العفو الرئاسي الذي صدر بحق السجناء، كما ثمّنوا زيارة الرئيس إلى الحسكة – المالكية، حيث وضع الحجر الأساس لمشروع جرّ مياه نهر دجلة إلى المحافظة بقيمة 100 مليار ليرة سورية. وأنهى المجتمعون لقاءهم بالتأكيد على ضرورة تعزيز العمل الجبهوي وتعزيز الحراك الثقافي والفكري في محافظة حلب».

Twitter: @ketab_n

«الأمير» في العهد الحلبي الجديد

لجدّه تاريخ 300 «مفتاح» لبيوت ومحال، فعائلة العادلي إحدى كبريات الإقطاع الحلبي. ولو أخذت أمير ذاك العصر ووضعته في قهوة على الرصيف بين «شباب الأعمال» فسيلقّبه الأصحاب هناك «أمير حلب». ولو جال بك بسيارته وسائقها لتقصد مضافة عشيرة آل برّي الكبيرة، لظننت من حفاوة استقبالهم ومونته عليهم، أنه أحد أبناء العشيرة. ولو مالت السيارة وسائقها نحو حيّ الحجازي، لعلمت أن لهذا الشاب روابط أيضاً في أوكار الفكر المعارض، المختلف المدني. ثلاثي اجتماعي يدور حول الفلك نفسه: النفوذ. ولكن النفوذ المالي لم يعُد مثل زمانه، وصفحات النظام مرّت من أمامه... له رأي مختلف، ينتقد، يجلس مع أقصى الصارخين المدنيين والكتّاب والمثقفين، مثلما يزور العشيرة: ابن البيت، عمر العادلي، يمدّ يديه وعينيه على امتداد حلب ويفكر معها. مدينته مشغولة بالحصاد ولها ركائز اجتماعية كثيرة، لكنه إذ يتحفّظ بموقف، يأخذ دور المراقب والمنتشر بين بيوت حلب وناسها، يتفحّص نبض مدينة التاريخ... والكباب والعرق. تروي وجوه أصدقائه عن مجتمعها: متنوّعة بآراء كثيرة. وترى اعتدال «الأمير» اليوم ولاءاته الحريصة، عاملاً مشتركاً بين ضفّة حلب الثلاثية: التقاليد والمجتمع المدني والمال.

الاقتصادي: «الحلبي مش فستق... الحلبي متنبي»

على الطاولة الراقية ذاتها تجتمع طوائفهم وأعمالهم وبلدان مهجرهم والعنوان: حلب سوريا الآن وغداً.

Twitter: @ketab_n

لم يستفيقوا اليوم للتفكير بها بل كانوا نواة تحرّكات مدنية اجتماعية عدة، ذات طابع تنموي للمدينة. خاضوا الصراع مع مفاصل الفساد في الدولة، بمشاريع طرحت وبحثت، فازت أحياناً أو عرقلت. لكن الصورة، لستة رجال، بين الثلاثين والأربعين من العمر. منهم من يشغل منصب قنصل لأوروبا، ومنهم من كان لاعب كرة سلة في أميركا، ومنهم من تعلّم في الخارج وعاد مؤسساً في مدينته. تجمعهم طبقة اقتصادية وصداقات قديمة ومجتمع مترابط.

تدل الأصابع نحو «سيزار»، الأكثر معارضة في البداية، وينصرفون في التعليقات على المحور السياسي. «في البداية ذهبت العاطفة لتسبق العقل»، لكن سيزار يلاحظ يومياً ضرورة «العقل اليوم إلى جانب العاطفة». ليس فيهم من يبرّر للنظام، ولا فيهم المتطرف، بل آراء مختلفة حول الحلول. جميعهم ينتقد الحل الأمني والحكم لكنهم يجمعون على أن الحراك مشوّه بالطائفية وقابل للتوظيف السياسي للضغط على ثوابت سوريا المهمة. في الحديث، وغضب اليدين، يبرز القلق، ولكن لا نية ولا رهان على الشارع. للحلبي الصناعي شخصية الذي يفكر قبل الخطوة، وللتاريخ الحلبي إرث السياسة هذا.

منها أعلن مصطفى حميدون انقلابه على أديب الشيشكلي، ومن أجلها كبحت خاصرة الإخوان في الثمانينيات في حماه القريبة. ساحة سياسية كبرى، بمصالح اقتصادية عابرة للحدود. تلمع السياسة في وجوه رجال اقتصادها: حلب السياسية – الاقتصادية ليست «فستقاً حلبياً» بل «متنبّي».

Twitter: @ketab_n

ماهر الأسد عند عشيرة «بري»

على بعد كيلومتر واحد من البيوت العشوائية القديمة حول حلب، تصل سيارة «الأمير» إلى أمام مضافة العشيرة، وكمشاهد الأفلام تبدأ الزيارة. الشيخ يستقبل الأمير مقبّلاً، الرجال يتأهبون استقبالاً. الكوفية الحمراء والسوداء تحيّي الضيف كرقصة العادات والتقاليد، تظن نفسك في عالم مختلف، خارج الكوكب والعولمة. حيث لا يربطك بهذه الرؤوس سوى تلك «الكوفية». صالة بحجم صالة أفراح تحزّمها الوسائد والمساند، وتملأها «عقال العرب».

إلى اليسار في الزاوية صورة ماهر الأسد ونظرته القاسية، كأنه يوحي بنوعية الولاء. فمن الناس من يعلّق صورة الأسد الأب، ومنهم من يعلق صورة الرئيس الابن، ومنهم من يعلّق صورة «الباسل» لكنّ لحكاية صورة «ماهر» وعينيه ولباسه العسكري، وقعاً آخر على «أجواء اللقاء». وحين يقول الشيخ «الله فوق ... وبشار على الأرض»، ينتهي الكلام. عشيرة آل بري تمثل حوالى خمسة آلاف، وهي قادرة وحدها، بأمر من شيخها، على أن تلجم كل الشارع الحلبي لو أرادت. لرضى العشائر الحلبية وقع أيضاً على هدوء حلب.

تعيش ضمن حزام النزوح حول حلب، حيث الوضع الاقتصادي أقل قسوة من الأحزمة الاعتيادية. وكما أخواتها، تمثل عشيرة بري، شريحة الولاء المطلق للنظام ومحاربة من يحاربه حتى لو كان حريصاً على سوريا. حديث «المؤامرة» و«رئيسنا لم يصافح إسرائيلياً» لا يغيب عن لسان الشيخ. وإن كان السؤال عن «الإخوان» أو «الفلاح» أو «الفساد»، جوابه «النظام دوماً على حق».

Twitter: @ketab_n

تنتهي الزيارة بحفاوة أولها، الشيخ يودّع الأمير مهللاً، والأمير يتوجّه نحو منزل أصدقائه وأقاربه المعارضين. ومن العشائرية إلى دار المعارضة السورية، ننتقل من عالم إلى آخر بدقائق.

وكر الفكر: بيان الديموقراطية 1

هنا في البيت الحجري عند المساء، يخيّم الغروب فوق مؤشر الأمل والمستقبل في الفكر الحلبي، يجتمع تدرّج أعمارهم في «المعتقل السياسي»، و«الممنوع من السفر»، والشاب الغاضب، والدكتور الكاتب. هو «المجتمع المدني الحلبي».

حول جلسة السمر يفضل الدكتور عدم التصريح بالاسم، فقد «ذاق التضييق» حتى شبع. «منذ 11 سنة ونحن نقول سوريا لا تستمر دون الاعتراف بالآخر. الآخر هو صاحب الرأي المختلف في كيفية إدارة الشأن السياسي». المعارض قد يكون ناشطاً مدنياً أو حقوقياً أو سياسياً، لكن عنوانه الواحد: الحرية.

يفاخر جمع النضال بماضي بيت «الحجازي» السياسي التاريخي، فالشارع مسمّى على اسمه.. وفي صالونه الحجري المتواضع، صور والده مع القيادات التاريخية السورية ورؤسائها. يتابع الحجازي، الخمسيني، «شعرت بالأمل حين تسلّم الرئيس، نشطنا في المجتمع المدني، لكن كانت هناك قوى مانعة للنشاط». يقاطعه العشريني: «الأمن». يستكمل المناضل الأكبر صرخته إلى الرئيس: «اليوم أقول إن الحل بيده لكنه لا يلبّي، لماذا لا يعلنه؟ لا أعرف».

الحل؟ تبتسم «الشيبة» بنظرة عمق غاضب وترتفع يمناه سريعاً:

Twitter: @ketab_n

«بيان الديموقراطية رقم 1».

عن الحوار، تضحك الكؤوس المعارضة مرتفعة: لجان الحوار تشكّلت لتحاور مَن؟ الناس الذين يرشّحهم الأمن؟ المستفيدون من النظام الفاسد؟ أنا أطالب بأن يحاور القوى الموجودة: حزب الشعب، الاتحاد الاشتراكي جناح جمال الأتاسي (برئاسة حسن عبد العظيم)، التجمع الوطني الديموقراطي، إعلان دمشق، منظمات حقوق الإنسان، والتشكيلات الحزبية. برأي الحجازي، تلك هي القوى التي تطرح للحوار كي تلغى المادة الثامنة من الدستور، فيتسنّى له قانونياً الاعتراف بهم. وبعد ذلك، ينبثق عنهم مؤتمر وطني للحل.

حلب في قلب الحدث وعقله

في النموذج الاجتماعي المصغر حول تفاصيل يوم الجمعة: العشيرة والمجتمع المدني والحزبي والإقطاعي والاقتصادي، تسقط الشمس في مغيبها، لتنزل حلب إلى الشارع. زحمة المارة والسيارات والسوق تتابع يوميّاتها وحركة «جمعاوية» طبيعية. حلب تفرض شخصيتها الخاصة على الحدث.

ومهما تعالى صوت الإعلام حولها، أو صراخ عشرات الشباب للحرية فلا يعتبر لمدينة المتنبي بملايينها الستة حدث سياسي. هامدة نعم، ساكتة نعم، ولكنها في قلب الحدث، وربما أكثر من المحافظات الباقية. شعاعها جعلها ساحة حياكة سياسة اليوم. إقليمية، ولكن أهلها إن نزلوا إلى الشوارع بوفرة، فهم يمشون بين رائحة الكباب ويروّحون عن أنفسهم في المقاهي كما يتابعون العالم حولهم. الباعة خلف عرباتهم

Twitter: @ketab_n

أمام الجامع يوم الجمعة، كما الأمن أيضاً. وهناك الرسالة الأوضح: نحن مرتاحون، نبيع الذرة والمشاوي كما نعرف «لاءات» قد تستفيق، لكنها ليست طريقة تعبيرنا السياسي.. نحن أصحاب مصالح.

هدوء حلب، من ارتقائها الاقتصادي أساساً. هدوء حلب، من طبيعة أهلها. هدوء حلب، نابع من الواقع السوري الحقيقي اليوم، أن الأساس والأغلبية السورية في مكان آخر نسي الإعلام إنصافه. فبين شريحتي التطرّف مع النظام وضدّه، غالبية معتدلة تتابع الحدث وتفكّر وتواكب وتبني أفكارها. تلك الأغلبية تشبه وضع حلب اليوم: أنا أفكر وأنظر، ولا أعبّر عن موقف تحت الضجيج، لكنني ساحة الفكر والسياسة.

من التاريخ إلى تركيبة شرائح المجتمع المتنوعة إلى الاقتصاد والموقع الإقليمي بين الجيران، حلب لا تمر هامشيةً على الأزمات، ولا تُقلب صفحات التاريخ في سوريا، من دون إمضاء «حلب».

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

سوريّا العارية في زمن الأقنعة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كي يبقى القائد قائداً

لا يصلح «انفصام الشخصية» لتوصيف حالة دمشق. ما تعيشه المدينة انفصامات متكررة متضاربة. باتت على طاولة النقاش السياسي حقائق لا يمكن نكرانها، حقائق تتخطّى الجميع وتبرر للجميع. وبالرغم من أن «عرعور» الفتنة يصرخ ويرد عليه شارع حمص واللاذقية وبانياس: الله أكبر... هناك من يصرخ، لا تلبية للعرعور، بل من القهر. إذا لم يكن من «المجاهدين» في الشارع، فستجده كاتباً أو مخرجاً أو ناشطاً أو رجل أعمال يصرخ في صمته. وحتى المتطرف في التبرير لكل وجوه النظام أصبح يكبح تطرفه ليعترف ببعض الأخطاء. كل الناس ينتقدون: سائق الأجرة وبائع القهوة والصرّاف وحتى رجل الأمن، جميع الناس كسروا حاجز خوفهم. هذا الشارع الذي رقص لقائده حين قال للعرب «أنصاف الرجال» في حرب تموز، لا يرضى منه بأنصاف الحلول.

الأدوية القديمة لن تنفع

سوريا عالجت «الإخوان» بالحديد والنار في الثمانينيات. سوريا نفسها عالجت تكالب الغرب عليها في 2005 بالسياسة. لكن ما تعالجه سوريا اليوم هو مزيج من كل شيء، و لم تعد تنفع أدوية استُعملت في السابق. لا القتل يوصل إلى مكان ما، ولا للسياسة أصدقاء. من كان ظهر سوريا (ولو شكلياً) في السابق، هو المتربّص الأول بها اليوم. وفي المقابل، وبرغم أعاصير القذف الإعلامي على قطر، قصر الأمير القطري

Twitter: @ketab_n

في الشام لا يزال منتصباً بانتظار عودته. اجتماع السفراء العرب مع الوزير المعلم كان في دار السفير القطري.

مَن على سوريا أن ترضيه اليوم متعدّد الوجوه: دماء الشهداء، الشرخ الاجتماعي، جيران الطمع السياسي، واللائحة تطول: لا بد من دفع الثمن، لا بد من أن يدفع أحد ثمن الأخطاء وإلا فكيف تطوى الجراح؟

للتغيير الحقيقي كلفة

إذا لم يحاسب الجهاز الأمني والحيتان الاقتصادية والمظهر العام للنظام، فكيف يتحقق الإصلاح؟ سوريا تسأل اليوم، على كل لسان، إلى أي حد هم جديون في التغيير؟ تعاين أسماء لجنة تنظيم الحوار المعلنة، فلا تلمح فيها معارضاً واحداً. تعاين ملف العفو وتداعياته، وقبل أن تصل إلى حماه، تلاقيك جراح الرستن على بابها الجنوبي، فتعود. سوريا لن ترضى بأنصاف الحلول ولا بالأدوية القديمة. فساد السلطة هو الذي مرّر السلاح عبر الحدود إلى درعا وحمص وتلكلخ وبانياس. المرتشي هو الذي قبل بأن يظلم ابن الريف أمام عينيه. ما يثور اليوم في سوريا بكل واقعية هو «الريف»، وكل الدنيا تمشي على ضفاف غضبه المعيشي. هذا الريف غاضب لأن هناك من أغضبه. تحاسبه بالدبابة إن زلّت ثورته في مشروع مسلّح أو خارجي، أولا تحاسب سائق الدبابة إن قتله ظلماً؟

الإخوان صدر لهم عفو عام، وهذا ما كان ينتظره الشارع الريفي الشمالي الممتد من حماه، كي يعود إلى المواطنة. لم يكن ينتظر العفو ليتسلّح، بل لأنه ممنوع من حصر إرث أبيه وزراعة أرضه والتقدم بطلب وظيفة في الدولة. ولكن هناك من هو مثله معطلة مواطنته بانتظار الموافقة

Twitter: @ketab_n

الأمنية، لبيع الأرض وشرائها، لحراثة الحقل وزراعته... أين غضبه هو؟

ألا يزال الحزب قائد المجتمع والدولة؟

ليست نكتة، كثر من المحتجين وحتى المسلحين منهم، حائزون بطاقات عضوية في حزب البعث. ليست نكتة، بعض رجال الدين أعضاء أيضاً، ولو معنويّاً. ليست نكتة، لا يزال الدستور يعتبر أن حزب البعث قائد الدولة والمجتمع. لا ليست نكتة، بعد المد والجزر ومحاورة المعارضة التصالحية، والناس. بعد أنباء اللقاءات المئوية التي استضافها قصر الشعب، وبعد صياح الجميع بتعديل المادة الثامنة وفتح سماء الشامل تتشكل أحزاب لائقة بمجتمعها، بعد كل هذا، ليس كذبة أن الأمين المساعد لحزب البعث محمد سعيد بخيتان بشّر بعدم وجود أية نية لإلغاء المادة الثامنة. «إذا أردتم، فوزوا بالانتخابات ثم عدلوا الدستور». كيف هذا؟ في اللحظة العاطفية المضرّجة بالدماء والضجيج والتحريض كيف لشعب أن ينتخب؟ ما الصيغة وأي قانون؟ إذا كان للإخوان المسلمين فرصة لتحديد حجمهم الحقيقي فهي بالسماح لهم بالعمل الحزبي. فالناس ستبتعد عنهم في التنظيم، لو أنكم فقط تسمحون للأحزاب المنطقية بأن تتشكل أو تنشط. لو أنكم فقط لم تؤطروا آخر الاحزاب التغييرية في «جبهة الموت السياسي» التقدمية الاشتراكية. كل هذه حقائق وأصوات تعلو في دمشق ومنها، ولم تأت من السحاب أو المؤامرة. هؤلاء هم القلوب الخائفة حقاً على دمشق، كيف تشفي حرارتها؟ أي كيد يروي الجراح؟ علمانيو سوريا، ومعارضتها المثقفة ورؤوسها، هؤلاء فرصة التغيير، أحتى هؤلاء تكيدهم؟ أما حان الوقت، بعد دفع ثمن القضاء على

Twitter: @ketab_n

الأحزاب، أن تعي سوريا حاجة مجتمعها للأحزاب الوطنية الصحيحة، تلك التي تستمد قرارها من نفسها وأرضها وعقائدها ومشاريعها؟

ألم يحن الوقت للسماح لضمير البلاد أن يخرجها من الطائفية المتربصة بالمجتمع؟ تبقى الغلبة لمحاورة الطائفي فقط، على الطاولات الخارجية. الحزب الذي قاد المجتمع متهم بأنه أوصله إلى تخلّفه و«اندساسه» المزعوم... فليقم قائد الأزمة بالمحاسبة، كي يبقى القائد قائداً.

Twitter: @ketab_n

ما الذي قلب ربيع دمشق إلى ثورة ريف

غروب يوم الجمعة، وبعد جولة دمشقية اقتصادية في دور رجال الاقتصاد السوري، ومقاهيهم، تصبح دمشق من أعالي فندق «فردوس الشام» عرضاً اقتصادياً ثلاثي الأبعاد لمبارزة قاسية فوق جسد المدينة. الشمس تسقط أرجواناً خلف جبل قاسيون البني فتحزّمه، وتصبح عشوائيات السكان الفقيرة على الجبل كفراشات على وجنة دمشق. ينظر «القاسيوني» إلى الجامع الأموي مسائلاً إسلامه والمشاريع التي تمرر تحته. فيطير حمام المدينة بين الحبيبين القديمين معاتباً. في عينه الأخرى، يطل الجبل متهيباً الفندق الضخم وسط الشام. إلى اليسار يقف مبنى «فور سيزنز» مستفزّاً كبرياءه. نفحة الفندق الخليجية، وأسواقه وترفه ومقاهيه ووكالاته، تستفزّ ماضي الجبل، الذي يكاد يبوح قائلاً: أنا التاريخ عند قدمي بدأ... فيردّ «فور سيزنز» مغيظاً: اقتلعني إن استطعت!

من لم يزر الشام قبل بشار الأسد، فلن يعرف الانقلاب الاقتصادي الذي قام به الرئيس. من لم يمر على الحدود ليبحر بين مشاريع الإعمار الإماراتية، ويرَ إعلانات «ماجد الفطيم» تحتل السماء، وملابس «آيشتي» تلف النساء، فلن يدرك التغيير الجذري الذي عاشته سوريا خلال العقد الماضي.

Twitter: @ketab_n

مفرقعات نارية اقتصادية

هكذا يتجلّى «ربيع دمشق» مفرقعات نارية اقتصادية: مشاريع عمرانية تتناثر على ضفاف الطرق. كويتي وقطري وإماراتي وسوري يستثمرون. سياحة وقطاع خدماتي يكوّنان نفسيهما. قطاع مصرفي يبنى على أكتاف خبرات سورية ولبنانية أيضاً.

مديرة شؤون الموظفين في أحد المصارف اللبنانية قضت ثلاث سنوات ذهاباً وإياباً في نهاية الأسبوع إلى منطقة أبو رمانة ذات الطابع المصرفي. عاشت في دمشق لتبني كوادر المصرف البشرية وتعدّها. كانت «نقّاش» البيروتية تروي من مقعدها على طريق الحدود في نهاية العام الماضي: إذا كان القطاع المصرفي اللبناني قد بنى نفسه خلال ستين عاماً، فقد استطاعت سوريا أن تلحق به خلال عشرة أعوام. المديرة البيروتية لم تكن من المعجبين بالشام، بل قضت سنواتها في نوع من الانغلاق الاجتماعي والتذمّر من كل شيء: «عليك أن تشرح للنادل عشرين مرة كيف يعد الشطيرة. في القطاع الخدماتي والسياحي، الدولة سبقت الشعب، قبل أن تعدّه للنهضة».

... ودخل الخارج: شركات إعلان متقاطعة مع الشركات العالمية، وكالات سيارات تجتاح السوق، وامتيازات تتوزع بين «زارا» و«ماسيمو دوتي» إلى «أودي» و«مرسيدس». فنادق تزدحم في سياحة ملوّنة بين «الشادور» الإيراني الأسود والتنانير الأميركية القصيرة ونبيذ الأوروبيين. مراكز تعليم ومؤتمرات اشتركت مع الغرب. شريحة الدبلوماسيين نشطت في المجتمع حتى كاد كل رجل أعمال لم يجد باباً إلى السياسة يبحث عن الأبواب «الدبلوماسية» إليها.

Twitter: @ketab_n

اليوم، فنادق دمشق خالية، الشقر الإفرنج ما عادوا يزورون الأموي. المطاعم والفنادق والإعلان والتجارة والصناعة في ألم وكساد. ما الذي يحصل حقاً في الاقتصاد؟

مقهى «الوكلاء»

معالم «المفرقعات النارية» تظهر من المقهى وشكله ورواده. بالاستناد إلى اسمه، فإن المقهى واحد من سلسلة لها عشرات الفروع في دمشق وحولها. من الشعلان إلى باب توما إلى الصبورة إلى المزة، اسم السلسلة، «جيميني»، يلاحق العين وفناجين القهوة والمناديل المعطرة. لكن هنا في المزة، في مقابل ملعب الجلاء، فإن المطعم مسمّى تيمّناً باسم السيارة الأجنبية «أودي». دوائر إشارتها تحتل المكان والفناجين والإعلانات. لوحات المقهى صور لسيارات جديدة. الحلوى تقدّم معلّبة بإعلان. يسأل أحد المهندسين عن السيارة الجديدة في الحلوى، يتناول هاتفه الباهظ، يكلّم رجل المال الثاني، يسأله عن السعر ثم يعلن: «تمّت البيعة». هكذا فوق طاولة القهوة، يشتري المليونير سيارة مليونية أخرى، بينما تعرض شاشة «الإخبارية السورية» أنباءً عن جمعة سورية جديدة واحتجاجها وسلاحها ودمائها.

على طاولة أخرى، تجلس ثلاثة عقول وجيوب اقتصادية أخرى توصّف الحال السياسية والقرارات وتشرح الأزمة. «انسداد الأفق، وانحسار العقل، والمشكلة الاقتصادية» تزيدها رمادية. تسأل عن «أسباب الحلول الخاطئة، أين العقل في هذه «العصفورية». «الوكيل الكبير» متمدّد مالياً في استثمارات أخرى كثيرة. لماله مكان أيضاً في

Twitter: @ketab_n

تلفزيون «الدنيا»، ولكن لا سلطة للممولين في قرارات المحطة إعلامياً، فينعطف الحديث إلى الأزمة الاقتصادية.

تحدّق عيونهم، تلوّح أيديهم، تنشغل وجوههم بالهواتف والمواعيد والأوراق والاجتماعات. في عالم مالهم هناك، الأزمة تضغط على الخاصرة والعقل والضمير. هنا يتدخل ثلاثيني الأعمال الإعلاني الإعلامي، صاحب إحدى الشركات الرائدة سورياً وإقليمياً: «بدأنا ندخل جدياً في الأزمة الاقتصادية، وفي مرحلة خفض الأجور. هناك مشكلة الاضطرار إلى التسريح من العمل، فالموازنة لم تعد تحتمل». فيرد التجاري السياحي الحموي «أنا سبقتك، بدأت بالتسريح، كل من يملك وظيفة أخرى في الدولة استغنينا عنه، وإذا استمرت الحال هكذا، فسنستغني عن المزيد».

تشخيص المشاكل

رجال الأعمال والمال أصبحوا من شتى المناطق والمحافظات، تكوّروا في دمشق الغنية إلى جانب أسماء عائلات المال ونافسوها. مال ينفلش في الاقتصاد المستفيق. نهضة اقتصادية تدار تحت قيادة مجموعة غير متجانسة ومنقسمة على ذاتها. مستشار الرئيس للشؤون الاقتصادية وحاكم المصرف المركزي في جهة، ورئيس الحكومة ووزير المال في جهة أخرى. عائلات النظام وامتيازاتها على ضفة، ورجال المال الوافدون على ضفة أخرى. انقسم المال بين التوجّهات والخلفيات: بعثية، ليبرالية، قومية، طمع ومطامع، أصحاب مشاريع، انتهازيون، فاسدون، وصالحون. كل الألوان تحت عباءة المبارزة الاقتصادية التي بدأها الأسد.

Twitter: @ketab_n

يشخّص رجل المال الأول العلّة: «سوريا تعاني من مشكلة انفجار سكاني سنوي تقابله بطالة». يرد رجل المال الحموي: «المشكلة في الريف، المشكلة في الخطة الاقتصادية التي قادها فريق غير متجانس، انقسم على ذاته». تتناقل ألسنتهم أطراف المشكلة المتمددة في العائلة والنظام، والحيتان الاقتصادية على ضفتيهما، التي أصبحت الأحجار والنسمات في دمشق تعرفها وتعرف احتكارها. ما من حاقد على الحيتان الاقتصادية يضاهي بحقده، الرماديين. فالرمادية الاقتصادية «النخبوية» السورية، ترى أن عدم محاسبة هؤلاء، واستمرار نفوذ العائلة والحزب كجزء من نفوذ الرئيس، سيؤدي حتماً إلى الهاوية للجميع: النظام والاقتصاد والشعب والوطن.

وظلم ذوي القربة أشد مضاضةً

إذا كان رامي مخلوف، الذي ارتبط اسمه بالهيمنة الاقتصادية، اسماً واحداً، فهناك مثله أسماء عديدة تحت الضوء، من «غراواتي» إلى «الشلحة» و«حمشو» و«السمحة» و«الخولي» و«الجود». القربى جعلته المميّز بين من حصلوا على امتيازات وتسهيلات لثرواتهم المتصاعدة، كما جعلته أول من استهدفته العقوبات الغربية.

الحقد على مخلوف عابر للمحافظات وقد لا يكون بريئاً لكنه محق. خلال جولة حماه مثلاً أطلق «الإخواني» الحاج وليد قصفه على مخلوف ومن معه، وابتعد عن مهاجمة الرئيس الأسد. هكذا يبدو أن لاستهداف مخلوف بعداً طائفياً أو غربياً، ولكن ذلك لا يمحو «الاحتكار» عن العائلة، و«الحق» عن معارضيها.

Twitter: @ketab_n

في الخلفية كان الفساد يستمر يومياً في الريف، متحالفاً مع «النهضة الاقتصادية» للنيل من المزارع كما للنيل من القطاع الزراعي، وللنيل من العامل كما للنيل من القطاع الصناعي. من اللاذقية إلى حلب ودمشق، ثمة شريحة موالية تمعن في تبرير الخطأ، حفاظاً على المصالح أو على الطائفة. هذه الشريحة ليست فقط من الطبقة المالية، وإنما في أوساط الشباب والشعب أيضاً. من حصّل من ثمار «النهضة الاقتصادية» وظيفة براتب عشرة آلاف دولار في قطاع الخدمات، لا يكترث إذا تسبّبت مشكلة الري بتهديد لقمة المزارع في درعا. ومن يرَ الاحتجاجات على أنها «هجمة لتسلّم الحكم المتطرف السني»، لا يتردّد في فتح مجموعة «فايسبوك» بعنوان مستفز «رامي مخلوف نرفع لك القبعة»، قبل أن ترفع القبعات لدماء الشعب السوري وجراحه وظلمه.

تلك الشريحة المتطرفة في الموالاة، تلك الطبقة القريبة، وتلك الحاشية المقربة، تؤذي الأسد يومياً بحملة دفاعها عنه. الإعلام والبعث والعائلة، مثلث يصح فيه قول الشاعر اليوم «وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهنّد». فعند استعراض آخر إنجازات البعث والأمن والأنسباء (من عاطف نجيب مطلق الظلم والذل على أولاد درعا إلى الحوت الاقتصادي المخلوف)، يعلو الحق في الاحتجاج والمعارضة، وتهتز سمعة النظام أكثر.

أبو حافظ الكبير يشوّه أبو حافظ الصغير

لكارهي مخلوف حجتهم ليستمروا في محاربته: الرجل ابن خال الرئيس. الخال، «أبو حافظ»، أشبع الشارع ذرائع لكرهه، من المصرف

Twitter: @ketab_n

العقاري ومؤسسة التبغ. كان موظفاً في شركة الطيران السورية في قسم المحافظة، وبعد أن غدا صهره الرئيس، تولى محمد مخلوف الإدارة العامة لمؤسسة التبغ والتنباك «الريجي» في سوريا عام 1972. ومن هناك، هيمن «أبو حافظ» الكبير على جميع العقود مع الشركات الأجنبية من التبغ ومعدّاته، ليتوسع منها إلى «السمسرة» في عقود الدولة مع الشركات الأجنبية. ومن بين أولاده الخمسة رامي، وهو الاقتصادي، وحافظ، الذي ينظر إليه الشارع على أنه المسؤول عن الضغط باتجاه الحل الأمني.

ومن الشارع والكواليس والهتافات وحاشية الرئيس، يستخلص السامع أن المشكلة ليست في رامي. المشكلة في «أبو حافظ» وتفرّعاته. وبينما هيمنت «راماك» و«شام القابضة» وغيرهما من مصالح رامي على الاقتصاد، دخل أبو حافظ بحافظ إلى الجهاز الأمني وإدارته. الرجل متمدّد في النفوذ والدولة. بين الأخوين مخلوف والأخوين الأسد والإخوان المسلمين، كيف تتخلّص سوريا من أزمتها الداخلية قبل الخارجية؟ كيف يعاد الحق لأصحابه؟ وكيف يعطى الشعب الهواء بعدما كاد يعلّبه «مخلوف» ويبيعه؟

الحل بين القهوة والشارع وقصر الشعب

«إعادة توزيع الثروة» هي العنوان في طاولة المهندسين في المزة. يتدخل رجل المال اللاذقاني: «الحل هو أن يضع رجال الأعمال مالهم في تنمية الريف، وفي مشاريع سكانية لمعالجة العشوائيات، وفي إنصاف الزراعة... الحل بعدما جمعت تلك الثروات، أن تعطى للشعب». آخر يزيد: «ما فعله بشار الأسد هو انقلاب اقتصادي على الدولة القديمة،

Twitter: @ketab_n

وعليه أن يجاريه بانقلاب سياسي عليها اليوم. عليه هو أن ينقلب على من حوله، ليستعيد الشارع معنوياته». من جهة ثالثة، يصبح الحل أكثر جلاءً: الحل في إيقاف عقلية «المفاوضة» مع الشعب وتصوير النظام نفسه دائماً على أنه الضحية. الفجوة بين الشارع والحكومة آخذة في الاتساع. كأن القصر الآن يتعرّف إلى شعبه: يعطيه عفواً عاماً، وإذا نزل إلى الشارع في اليوم الثاني، تسفك الدماء من الجانبين.

يسألون في وجوه بعضهم عن «الرئيس» الذي وثقوا به وساروا معه. يتساءلون عن قوّته اليوم، وعن إرادته لصنع التغيير الحقيقي. يتهامسون عن خطاب متوقع في الأيام القليلة المقبلة، فترتفع إراداتهم وعيونهم «الحل بالخروج من قيود الحصار والعودة إلى الشعب».

إذا كان الحموي والديري والساحلي والدمشقي والحلبي والحمصي والحوراني، غاضبين من الحاشية لا من الرئيس، غاضبين من «العائلة» لا من «الطائفة»، فالحل يكمن بإرضائهم. يهمس الرأس القيادي الرمادي بنبرة قاسية وخائفة: «الشعب هو الله، الحل بإرضاء الشعب لا بإخضاعه. لِمَ الخوف من شعبنا؟ أعطه هواءً ليتنفس الصعداء... لا تعطه المساومات». على الرئيس أن يقود انقلاباً على نظام وعائلة ورثهما، ليعود إلى صورته القديمة، تلك التي آمنت بأنه «مختلف، مدني، قديس». عليه أن يعيد صورته القديمة التي كانت في الشارع وفي حرسه الجديد. عليه أن يخرج من العائلة والبعث والأمن، ليعود إلى الشارع. لن يصيبه العراء إذا خرج من تلك العائلة، فأهل الرئيس الحقيقيون هم الشعب السوري كله. وهؤلاء هم الأولوية. البداية والنهاية في العقل والشعر الرمادي الثائر الحريص: «الشعب هو الله».

Twitter: @ketab_n

منبر العقل الشاغر

أيّ جزء من الحرية لا يفهمه النظام؟

تحت «رنين السيوف» وأنباء الدماء، ثمة من يجلس في منزله ويتحرّك في مجتمعه كارهاً كل شيء وكل الناس. مقاهي دمشق ومكاتب حماه ومطاعم حلب والسويداء تحتضنه وحيداً بين الجموع. هو «المختلف» بينهم دائماً. مواطن سوري يلفظه محيطه. يجد في الاثنين تطرّفاً يمزقه بين الضدّين إلى «قلقٍ» دائم. القتل على الشارعين يدق نواقيس «حرب أهلية» في هواجسه، والنظام أمامه يستمر في «التذاكي»، و«التمسّك بدور الضحية». يتابع الإعلام من دون ثقة بأحد. لا يثق بالبحر ولا بالقبطان، ولا بالسفينة... تلك هي الغالبية التي لا تزال صامتة، وتتجه يومياً إلى نقد الحلول التي يطرحها القبطان. كيف تعطى فرصة لبناء سفينة النجاة؟

تيار العقلاء الممتد من الشمال إلى الجنوب

من بين عشرات الوجوه على امتداد خريطة سوريا، هناك مواطن واحد يتكرر في كل المناطق. ثمة خوف واحد مشترك بينهم، وكره واحد مشترك بينهم، وتوحّد واحد. تجدهم بالمفرد أو بالجمع القليل: بقايا أحزاب، يساريون، فلسطينيون، إعلاميون، كتّاب، أطباء، رجال أعمال، طلاب جامعيون، رواد فن، سائق أجرة، بائع شاورما، ضابط جيش يهوى القراءة، ضابط أمن يتابع الدكتوراه في الجامعة، روائية...

Twitter: @ketab_n

وغيرهم كثر، مختلفون عن المعارضة والموالاة.

لا يغيب العقل عن المجتمع السوري اليوم، ولا يغيب الوعي القادر على معالجة كل المخاطر الداخلية والخارجية، لكن صوته هو الغائب. يسكته القمع والخوف والقلق ويضعه مشهد الدماء في صمت. في جامعة دمشق صرخ طالب الهندسة «أكره الطرفين، لأنهما أحمقان، أخرقان، مؤذيان.. وأحب ميشال كيلو». في مكتبة حماه صرخ سامر صرخة مشابهة. من قلب كوادر التلفزيون السوري «زميلة» تنتقد إعلامها وتصفه بأنه «الغبي، المتطرّف، والكاذب». تكره عملها، تحاول أن تجد مخرجاً من الحصار: «حصار أن تكون على متن سفينة لا تثق بقبطانها، فوق بحر هائج الأمواج... نزداد قرباً من الغرق، ومذياع السفينة يدق الموسيقى. نرى أمامنا العواصف، والقبطان غائب...». هكذا حال العقل الذي يعمل في التلفزيون السوري الآن. هكذا حال عقل آخر يكتب في جريدة «تشرين». هذا ما يقولونه في لقاءات «بعد العمل». من قلب دوائر الدولة، هم مختلفون. ومن صلب المعارضة التاريخية، ولا ينزلون إلى الشارع، فهناك ما يردعهم، وهناك ما ينفّرهم... في الضفتين.

في ساحة المحافظة معارض حموي، لأب اشتراكي عربي يريد أن يحلم بالحراك النموذجي ضد النظام. ينظر صباحاً إلى شارع أهله، يراهم يبتعدون عن أنفسهم، يبتعدون عن «حلمه» أكثر كل يوم: «ما زلت لا أنزل، لكنني طبعاً، وتاريخياً، ضد النظام». يراهم ينزلقون إلى ما لا يريد أن يكون. معارض يريد أن يعارض ليبني أحلامه وأفكاره في وطنه. غاب حقه تحت طيات الفساد لسنوات. سُلبت ممتلكاته لأنه «ضد» النظام الذي يحاسبه من قبل أن يولد. وحتى اليوم، يريد أن يعوّل

Twitter: @ketab_n

على حلم، وتعمي البصيرة مشاهد يراها وأنباء يسمعها وشائعات خطيرة يراها تتناثر في الشارع.

أما في حمص فهو تلميذ جامعة «البعث» الذي يسخر من اجتماعات البعث وجبهته، وينزل ليراقب يوم الجمعة في باب السباع وبابا عمر، فيعود ضارباً رأسه. «ما أنتم يا أهلي في حمص؟». يشاهدهم يحرقون علم «حزب الله» في التظاهرة فيغضبونه: «بحق الله لا تضيّعوا الهدف». يقتل منهم واحد، تجده يدمع. يسمع غضبهم، يلتاع في وحدته. يحاول أن يبحث عن متنفس لوعيه، يقترب من الحزبيين، فيجدهم غارقين في التبرير لـ«قائد المجتمع والدولة»... «خلصونا رح نروح فراطة»، يقول، ثم يعود إلى بيته في حي النزهة، فيكاد يختنق، «أهلي لا يشبهونني».

«لقمان» حمص، و«عمر» دمشق، و«فداء» جرمانا، و«وائل» حماه، و«بشار» المزة، و«سيزار» حلب، و«جورج» اللاذقية و«عبد الكريم» بانياس، و«حمد» السويداء... كلهم عاقلون في سوريا اليوم، ضد كل الناس، يتضامنون مع كل الدماء: الكل شهداء، الكل أبرياء، النظام مخطئ ولكن الفتنة والمؤامرة لم تعودا مجرّد نواقيس يطلقها النظام لحماية نفسه، هما بيننا، في شوارعنا، في جامعتنا، في ناسنا وجيراننا.. الفتنة احتمال وارد... كيف يعلو صوتي؟

هي وهو وهنّ وهم يتنفسون ويتابعون الحدث، ويعيشونه في سوريا الآن. وليس لهم صوت. سوريا 23 مليون نسمة، 7 ملايين في دمشق وحدها، 6 ملايين في حلب، مليون في حماه، طلاب جامعة دمشق وجامعة اللاذقية وجامعة حمص... من بين ملايين الشعب السوري هناك تيار غير منظّم لا يعرف نفسه. تيار صامت يتخبّط في الحاضر

Twitter: @ketab_n

ويخاف على الغد. لو قدّر لهم أن يعرف بعضهم بعضاً أو يصبحوا جسماً واحداً، ربما صحّت تسميته اليوم تيار «العقلاء».

المشكلة... الكارثة... الحاجة

لا بد من اجتماع لتيار العقلاء... ولكن كيف؟ يسأل الأربعيني اللاذقاني نفسه، ويجيب من فوق أوراقه الكثيرة في بيروت. ابن الساحل له سنوات في النضال السياسي، داخل الإطار الحزبي الضيّق وخارجه. اليوم له منظار على المجتمع بحكم دوره وعمله المتعاقد مع الشأن العام والمواطن. يوجّه عينيه نحو فلسطين، فيعود إلى قناعاته وعقيدته، فينطلق منها في الحل: «المشكلة» أنهم ليسوا شرائح: أفراد، ناشطون، سياسيون... وبقايا أحزاب. الكارثة أن لا مؤسسة أو تنظيم يجمعهم ولا يشكّلون تياراً قادراً على الضغط على النظام. لا النظام يساعدهم لوضع عنوان ولا المعارضة تمشي ليتبعوها.

تحتدم عيناه، يشد أسنانه على سيجارته، ينفخ في ما يشبه الحسرة، كأنه عاد إلى ذاته يحكي عنها: «يقدمون مواقف كإعلانات براءة للتاريخ... هؤلاء يجب جمعهم في لافتة موحدة... يجب أن يصبحوا تياراً، هناك ضرورة أن يتشكل هذا التيار مهما كان الثمن. الشارع في حاجة إلى من يستطيع أن يثمر حقيقته على الأرض».

بعد لقائه وجوهاً سياسية يعرفها، يتكلّم لسان سوري آخر عن المشكلة الطارئة. ليل الجمعة، كان الحديث والسجائر محتقنة في دمشق. لجنة حوار معلن عنها، أسماء لا ترضيهم، وصلوا إلى يقين أن الحلول المطروحة يجب دفعها إلى الأمام. للمرة الأولى منذ بداية الأزمة، كان

Twitter: @ketab_n

الثلاثيني الساحلي يراجع نفسه أمام أصدقائه: «هل يعتبرونني موالاة... كيف؟». يجد نفسه في ضفة الرئيس. واثق به، ولكنه مختلف. لم يعد من الممكن الاستمرار بـ«التذاكي على الناس». يوصّف مشكلة الإعلام والدولة التاريخية: «المشكلة أننا عموماً نحب أن نؤدّي دور الضحية... مؤامرة! مندسون! قناصة! يا أخي نعم، ولكن لا... كأن «فزاعة» ولدت منذ أول يوم في درعا، علامَ و لِمَ؟» يرد الآخر: «لم يعد الهمّ أن تبحث في السبب والمسؤول الذي أوصلنا إلى «الطائفية»، المشكلة موجودة في الأرض، فلنتّجه إلى معالجتها».

يدور الحديث الثلاثي: أسوأ ما في السلطة أنها خلال خمسين سنة كانت تقول «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، وتطفئ تحت هذا العنوان جميع العناوين الأخرى، والحالة ذاتها في الجبهة وفي أحزابها. الخطورة في شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، فقد أصبح ثقافة، ولكن لا يمكن الخوض مع «الثورة» اليوم في التفاصيل لأن «لا صوت يعلو على صوت الثورة».

المجتمع اتجه تدريجاً إلى هويته الدينية، فلم يترك له أي شيء آخر. تترك الجوامع وحدها منابر حرة، في مكان آخر كان النظام يغض الطرف عن التنظيمات الإسلامية. تحت طريقة إدارة المجتمع التي «أنجزها» البعث العلماني، كبر حجم التطرّف الديني وانحسر الحزبي. وضع في معلّبات سياسية... قتلت الأحزاب لتصبح كطوائف أخرى. غيّروا مفهوم «الحزب» في المجتمع... كيف تعاد صياغته من جديد كي تفرز المعارضة أنواعها ونتّجه إلى المرحلة الثانية من تغيير النظام. نحن نتّفق على ضرورة تغييره، لكن من أين نبدأ؟

Twitter: @ketab_n

أعط المعارضة منابر

«الحل الوحيد هو الحوار الحقيقي لا التمثيلية»... هذا رأي المعارضة الشقراء، وهذا رأي الدكتور المعتدل في المقهى الواحد في دمشق. يصف الدواء: على النظام أن يعترف بالآخر ويجري حواراً حقيقي على مستويين. حوار وطني مع الرؤوس التي تستطيع أن «تنظّر» للحل، وهي المعارضة المثقفة والمدنية، وحوار آخر مع الأرض والعشائر والمطالب المعيشية. لا يجوز الخلط بين من يريد «حفر بئر» و«استعادة الأرض» مع من يريد «إلغاء المادة الثامنة من الدستور» وتعديل المدة الرئاسية وبناء دولة حقيقية مدنية.

ترد الجهة الأخرى من الطاولة: لم يسمحوا للمجتمع بأن ينظم نفسه، واليوم يدفعون الثمن. النظام اليوم يتعرّف إلى شعبه، الفجوة أوسع مما يتوقّع، لأن الصوت كان ممنوعاً، والخوف كان يسكن الجميع. اليوم، يضعون الإصلاح عنواناً، فليدعوا لكل ذي رأي أن يقول رأيه علناً للجهات الرسمية عبر هيئات... اسمها «أحزاب».

يعود رامي ليقول مستغرباً «إذا كنت تريد إسقاط النظام لا أستطيع أن أحاورك، وإذا كان مطلبك ضريبياً معيشياً فقط، فهذا حوار لا يتم على مستوى الوطن».

وفود يستقبلها الرئيس من المناطق. فتعتب وفود أخرى. الناطقون باسم الأرض لا يعبّرون عن الضمير الوطني المعارض. والضمير الوطني المعارض لا قدم له على الأرض. فكيف الحل إذاً: تسمح للضمير الوطني و«الوعي السوري» الذي تعوّل عليه أن يحتلّ منابر الدولة. فلينفلش كتّاب المعارضة وأدباؤها وإعلاميوها في الإعلام، ولينخرط حزبيوها

Twitter: @ketab_n

القدامى ومناضلوها السياسيون ممن هم على الشاشات في لجان الحوار. ليعطَ المذياع للصوت الآخر، كي يسمعه الناس. الرهان الوحيد للبلاد هو المعارضة، والطريق الوحيد للمعارضة ببناء قانون إعلام حر حقيقي وقانون أحزاب حقيقي.

هنا يرد رامي «هذا بعد الحوار». فيقاطع الدكتور، لَمَ الانتظار؟ الوصفة جاهزة. ما هو قانون الإعلام؟ يجيب نفسه بحاجبين مرتفعين: الحرية. ما هو قانون الأحزاب الحر؟ الحرية للأحزاب الوطنية. إذا قالت الموالاة إن معظم من يحتجّون وينزلون إلى الشارع لا يفهمون معنى «الحرية» التي ينادون من أجلها، يقول لهم العقلاء: لنسلّم جدلاً، ولكن لنتعرف إليها أولاً... ولكن النظام يعرف ما هو المطلب، لَمَ يتأخر في إعطائه سلسلة حريّات سياسية ما دام قادراً على تقديم التنازلات ودفع الضرائب؟ ما الجزء الذي لا يفهمه النظام من كلمة: حرية؟

Twitter: @ketab_n

مفاجآت جمعة العشائر

الطقس حار في دمشق... كذلك حال كل شيء آخر. تزامنت التسمية الإشكالية ليوم «جمعة العشائر»، مع ذكرى رحيل الرئيس حافظ الأسد. خلافاً للتقليد السوري بتمجيد «القائد الخالد» في العاشر من حزيران من كل سنة، كانت عيون الشام وحماه وجسر الشغور مختلفة. تركيا، الأمن، الإعلام، المتظاهرون.. كل شيء مختلف، كأن رائحة جديدة بدأت تعبق في السياسة، سواء على مستوى المعارضة أو على مستوى النظام.

حماه: رحيل القائد... وتمثاله

على باب مدينة حماه، كان يقف تمثال ضخم للرئيس حافظ الأسد. ليل الخميس، أزاله الأمن. ليل الخميس، كانت كل سوريا تتوقع جمعة صاخبة في حماه. كان متوقعاً أن دماء الأسبوع الماضي ستزيل التمثال، لكنّ الأمن كان سباقاً في ذلك. ربما كان ذلك لفتة أو كهدية. فبعد سقوط الشهداء، قام المحافظ بجولة على البيوت و«طرّى» القلوب، وحصل كل بيت على مبلغ مالي. كل ذلك لم يسكت حماه، لكنه أعاد الصورة السلمية إلى تحرك أهلها. قدّر الحمويون أن أعدادهم يوم أمس قاربت مئة وخمسين ألفاً، لكن التظاهرة التي تحوّلت إلى مسيرة حافظت على سلميتها. وعوضاً عن التجمّع في الساحة المرتقبة، ساحة العاصي، اتّجهت المسيرة مساءً إلى حيث «كان التمثال»، في ما يشبه «الاحتفالية».

Twitter: @ketab_n

الحدود «المسلحة»

ربما لأنه المكان الوحيد الذي يظهر «النظام» ضحية، بعدما سالت دماء الأمن والجيش، وربما لأنه خاصرة سياسية تبث الرسائل إلى الخارج، فُتح يوم أمس جسر الشغور أمام الإعلام العربي والأجنبي. وفيما تابع مراسل التلفزيون السوري تغطيته «بالصوت فقط»، كرر عشرات المرّات أن معه زملاء من الإعلام يغطّون الحدث، مردداً «سيرى العالم ما يحدث في جسر الشغور».

منذ أيام، تؤكد المصادر التركية أن المستشفيات التركية والحدود التركية تشاهد ما يحدث في جسر الشغور. معبر واحد ترك للمدنيين لـ"الفرار»، وهو المعبر التركي. وبالحديث عن المعبر التركي، تجدر الإشارة إلى أن امتداد الحدود السورية التركية على خط 780 كيلومتراً، يشكل صلب القرابة بين الشمال السوري والجنوب التركي، اجتماعياً واقتصادياً، وبالتالي، سياسياً.

وبالعودة إلى دمشق، فإن غالبية الدمشقيين ترى أن «السلاح» لم ينته بعد، وأن «دير الزور» الحدودية مع العراق، ستتصدّر خبراً «عاجلاً» على الشاشات السورية عمّا قريب. فهناك، يتربّع المعبر الأبرز بين الحدود السورية الممتدة مع الأردن في درعا، وشمال لبنان في تلكلخ، وجنوب تركيا في «مثلّث الموت» بين إدلب وخان شيخون وجسر الشغور، ومن ثم مع العراق من دير الزور.

احتجاج وانقسام غير معلن

عندما ظهرت تسمية «جمعة العشائر»، ساد انقسام بين الشارع

Twitter: @ketab_n

المحتج الذي لم يكن أساساً جسماً واحداً. في انطاليا، استهجن البعض التسمية، رفضها بعض آخر، وتمسّك آخرون بها، فسادت الشائعات عن «تضارب» حدث بين المعارضين. في الشارع، كان سؤال أهم: «من يطلق تسمية أيام الجمعة؟»، فردّت الغالبية، «الصفحة الثورية السورية الأكبر». تتبع الأسئلة والإجابات، لتستخلص الطاولة المعارضة أن «فداء السيّد» الذي يدير الصفحة هو من سمّاها. ثم تعلو الإشاعات حوله. «والده إخوانجي معروف وفي رقبته قتلى»، فيرد آخرون «بغض النظر عمّن يمثّل، الإنترنت جمع كل من يريد إسقاط النظام... وهذا هو المهم».

وبالعودة إلى شارع الميدان، بعد صلاة الجمعة، التي تلتها هتافات إسقاط النظام، التي بدورها ألحقت بالأمن الذي كان يربض منتظراً، ثم بعد مسيرة التأييد «العشوائية» التي تلت ذلك، كان «أبو أحمد» لا يزال يلوّح بصحن بلاستيكي ليخفف الحر عن وجهه، ويقول «ما زلنا نعاني من شلل في الحركة». أيام الجمعة في سوريا، يهجم الشارع إلى الميدان المشهور بالأكل الدسم والحلويات. كان السيّاح لا يغادرون سوريا قبل أن «ينفّعوا» أهل الميدان. اليوم، سرّح أبو أحمد نصف موظفيه. ينظر إلى شاشة التلفزيون السوري، لا يصدّقها تماماً لأنه كان واقفاً وشهد. «لم يخرج المتظاهرون من المسجد هذه المرة. هتف عدد من الشباب من خلف المسجد: «لماذا نسكت؟»، رد المصلون من الداخل «فليسقط النظام... فليسقط». خرجوا ليتلقوا ثلاث قنابل مسيلة للدموع ثم «ينفضّ الاحتجاج». دقائق قليلة، جابت مسيرات التأييد الميدان هاتفة «أبو حافظ». بقي أبو أحمد في محله يتابعهم، وهو قلق من الكساد... «خلصونا بقا بدنا نشتغل».

Twitter: @ketab_n

من دمشق إلى حماه وجسر الشغور، ما هو مؤكد أن الشارع قد تحرك في ما يزيد على مئة موقع في سوريا. ما هو مؤكد أن حماه سلمية، وأن حمص نامت منذ الخميس على صوت الرصاص في حي بابا عمر، وأن المسلحين استهدفوا الأمن والجيش في أمكنة، بينما احتفظوا بالصورة الجميلة في أمكنة أخرى. وتحت المشهد، حركة دبلوماسية هائلة، همس سياسي عن «الإخوان» وتركيا وحلب، وملف مجلس الأمن الجديد... وما يحاول الهمس السوري أن يؤكده أن «دير الزور قد تشتعل قريباً».

Twitter: @ketab_n

ما بين دمشق وأنقرة خبز وملح في حلب

قبل العواصف وبعدها، ما بين دمشق وأنقرة «خبز وملح» في حلب. مهما تباعدت العاصمتان في المواقف والتصريحات والرؤى، لا يمكن للتوتر أن يبعد الأرض عن الأرض، والحدود عن الحدود، والاقتصاد عن الاقتصاد بمجرد أن العثماني «انقلب».

لو هتفت دمشق بأعلى صوتها ضد التركي أمام السفارة، لن تصبح «نانات» حلب – الجدات التركيات – سوريات فجأة. حتى لو حملوا جوازات تركية فوق أراضي أجدادهم السوريين، لا ينسى أهل كيليكيا والإسكندرون لهجتهم وأصولهم. ما بين تركيا وسوريا تاريخ طويل صهر الدم بالدم، والحجر بالبشر، والذاكرة بالذاكرة. في رقص التاريخ بين الشام والأناضول، لطالما كان النسيج الحلبي قادراً على جمع ألوان الخيوط مهما اختلفت، ليبيعها لاحقاً في سوقه القديم.

«سوا مشينا يا أردوغان»

مروراً بالسوق الحلبي الأكبر في العالم منذ عامين، سار الرئيسان بمحبة جنباً إلى جنب بين وجوه حلب وزغاريدها. لعل أردوغان حين حمل على الراحات يومها قال في ذاته «هذه أمبراطورية أجدادي، وأحجارها، وأمجادها». أما الأسد فربما كان يهمس في نفسه «هذا السلطان وقف إلى جانب غزة وجنوب لبنان ضد العدو الإسرائيلي بينما

Twitter: @ketab_n

كان «أنصاف الرجال» يتآمرون.

هذا مشهد الأمس، أما اليوم، فتحمل حلب علامات استفهام وتعجّب. تحاول ابتلاع مفاجأة خطاب أردوغان «العاتي» على الأسد. حلب تعرف عن العلاقات التركية السورية حقيقتها وصلبها في البشر والحجر والمال. هي «زبدة» الغزل التركي السوري.

حين احتدم الجانب اللبناني عام 2005، فتح «الربيع العثماني» قلب حلب ورفعها إلى مرتبة دمشق. بينما انشغلت دمشق بوكالاتها واستثمارات العرب، استعادت جدات حلب لهجاتهن القديمة. استعادت تجارة حلب العملة التركية. وبدورها استعادت السلطنة، نافذتها الاقتصادية التاريخية إلى بلاد «شام شريف».

تجار السوق «سيسامحون أردوغان، لأنه طيب». صاحب الفنادق سيسامحه لأنه «زعيم». القائد العسكري سيسامحه لأنه «شد على يد فلسطين». السياسي الحلبي يعتبر أن خلفيات تصريحاته «انتخابية». لكل سببه المعلن للعتب والمسامحة. منهم من يستعيد «عداء الأمس القريب والبعيد» ومنهم من يبشر باستفاقة «الوالي التركي في السلطنة العثمانية». تحت قرقعة علامات استفهام الشارع وتعجّبه، تقول حلب رسالتها: «غداً سيسير الأسد والطيب أردوغان هنا في السوق معاً، أحجاري تجمعهما رغماً عنهما».

«النخاع الشوكي» يوازن الجسد

ليست حلب عاصمة ثانية لسوريا، ثاني أهم مدن الأمبراطورية العثمانية، وشغل الدنيا الشاغل وحسب. ليست فقط عاصمة العلاقات

Twitter: @ketab_n

التركية السورية، بل هي أيضاً ركيزة من ركائز الأسد المليونية ومدخل اجتماعي اقتصادي وسياسي إلى الملعب التركي. تفكر وتعارض وتطرح أفكارها عليه. تفرض شخصيتها على النظام وعلى الأتراك. إن كانت مدينة دمشق بملايينها السبعة ونفوذها «عقل» النظام المفكر، فحلب هي النخاع الشوكي الذي يوازن كل شيء في الجسد، في الداخل وفي الخارج.

لها أسلوبها الخاص وشخصيتها السياسية الخاصة. خاضت عصر الوحدة والبعث وأحداث الإخوان بالتفصيل. تعرف تاريخها جيداً وتحتفظ بخصوصيتها. دمشق فسيفساء نزوح عقول ونفوذ من كل النواحي السورية، أما حلب، فهي الأرض التي تنتج ثمارها وتنسج نسيجها الخاص. وهي الرحم التي تصدّر كوادر وقيادات إلى الوطن وباب الانقلابات الأعلى...

حتى لو خرج مئات حلب، في المدينة الجامعية حيث ينزح الطلاب من كافة مناطق سوريا أو في سواها، فإن ذلك لا يمثل المدينة. وهذا لا يعني أن حلب لا «تريد إسقاط النظام»، لكن ذلك لن يعني أنها تريد إسقاط الرئيس.

يسكن المدينة الشهباء ستة ملايين نسمة مزركشة في مجتمع إقطاعي وعشائري وديني، متحضر ومتشدد، منفتح ومحافظ في الوقت ذاته. موزاييك الطوائف والأقليات تحيط الغالبية السنية بانصهار اقتصادي. كبرت تحت جناح النظام امتيازات ونهضة اقتصادية اجتماعية لافتة وشرائح شبابية منخرطة في العمل السياسي والاجتماعي مع البعث وضده، داخل أحزاب الجبهة وخارجها، علمانية ودينية، شيوعية

Twitter: @ketab_n

وناصرية وقومية سورية وهالة إسلام نفسية. وهناك الأرضية التي تقلق، هناك الأرضية التي دعمت «إخوان» الثمانينيات ثم أحجمت حين بدأ الدم يراق واغتيالاتهم تتكاثر، وقمعها التطهير العسكري الذي اعتمده النظام نهائياً. هناك من يرى أن أحداث حماه كانت موجّهة لحلب، «حاكيكي يا كنة اسمعي يا جارة».

تطرح المدينة مطالبها همساً وعلناً في اجتماعات مع الرئيس ومع قنوات مختصة بالحوار. حلب لا تصرخ، لكن ذلك لا يعني أنها لا تضغط. تريد تنظيماً مدنياً لمعالجة العشوائيات ولفتح باب الاستثمار العقاري. تتساءل عن موعد القانون الذي طالبوا به. يصرخ أبناء العائلات الإقطاعية التاريخية: نريد تعويضاً عن أملاكنا. يصرخ الناشط السياسي لتعديل المادة الثامنة: نريد أحزاباً لنفرز المجتمع تحت عناوينها. كل يطلق صرخته بطريقته. لكن بينه وبين الشارع عقدة اسمها «الثمانينيات».

«نريد ثورة أتاتورك»

حلب تلفظ «الإخوانيين» رغم التزامها الإسلامي لأنها عايشت الثمانينيات بحذافيرها وحفظت الدرس. شيوخها وتجارها وعشائرها وإقطاعيوها وصناعيوها ومعارضتها مختلفون عن سائر المناطق السورية. لكن تجارها منهم من موّل «الإخوان» في الثمانينيات. وحتى اليوم هناك تعاطف غير معلن مع «الإخوان» كأشخاص لا كتنظيم. لكن الخوف من طريق الشمال حيث «الإسلام الأفغاني المسلح» عند مثلث جسر الشغور وخان شيخون ومعرة النعمان، ردعها. الموقف التركي لم يغازلها علناً لكنه دغدغ وطنيتها. تتساءل عن تركيا والمسلحين وتستمر في يومياتها

Twitter: @ketab_n

وازدحامها الطبيعي من دون سياحة. تستقبل حلب نازحين أرمناً من الجسر فتفهم منهم أين أصبحت مؤامرة «الدين» على «الدولة». رعب أقلياتها يحتضنه نسيجها المذهبي الإسلامي الطاغي. رغم أن الفرز الطائفي لم يغب، لا تزال حلب تطرحه «بخجل وترفّع واحترام». طائفية حلب في سبات اسمه «اقتصاد». فإلى أي حد هو قادر على أن يحميها؟

كأنها مسيّسة ومسيّرة اقتصادياً. تعارض لكسب المزيد او لاستعادة ما سلب منذ عهد «التأميم» في الوحدة أيام عبد الناصر إلى عهد صلاح جديد والإصلاح الزراعي إلى عهد البعث الذي طوّق النشاط السياسي والاجتماعي وحصره «بقائد الدولة والمجتمع». إسلامها محافظ ونقابها كثير المرور في الشارع، لكن محجباتها في مطعم مجاور، يرتدين «الجينز» ويبالغن في التبرّج ويدخنّ النرجيلة.

تطوف فوقها طبقة ألفية، متطرفة في الأرستقراطية والترف. لكل حارة شخصية معينة. بدءاً بالسوق التجاري القديم الأكبر في العالم، هناك 5600 محل تعول آلاف العائلات. تكاد تلمح صورة الأسد في كل المحال. من أبنائها 23 ألف تاجر مسجل في غرفة التجارة السورية. لها آلاف أخرى في الصناعة وفي السياحة والاستثمارات. جمعيات ومجتمع مدني ينشط من تنمية الريف إلى السياحة إلى حقوق المرأة.

مروراً بساحة سعد الله الجابري، سترى قهوة المثقفين على اليسار في «الفندق السياحي» وفنانوها الذين يعارضون أشخاصاً في النظام ربما أو نهجاً معيناً لكنهم يدينون حراك الشارع الذي أفاق المسلحين. خلف الطاولة مسبحة في يمينه وكوب شاي في يساره وعبسة على جبينه تقول: «ناجي العطري خربها».

Twitter: @ketab_n

تعارض أشخاص الدولة خاصة الذين تسلّموا ملفات الاقتصاد: من رئيس الحكومة ناجي العطري إلى مستشار الرئيس عبد الله الدردري إلى وزير الري في الحكومة السابقة ورئيس الحكومة الحالية عادل سفر وطبعاً إلى رامي مخلوف الملقب حلبياً «أبو مرزوق» لكونه صاحب «رزقة» أينما عمل.

ينتقدون البعث والأمن الذي بدوره لا يتوانى عن طلبهم إلى «فنجان قهوة» يسأل فيه عن الرأي السياسي كي «يفحص الدم الوطني». يطلب كل واحد منهم على حدة لفنجان قهوة من هنا وتحقيق من هناك. أبناء العائلات الكبرى لم تحمهم أسماؤها من فناجين القهوة هم أيضاً. ليست حلب بعاشقة للنظام، لكنها صاحبة امتيازات وطموح دائم إلى المزيد. الحلبي لا يستطيع أن يجلس مكتوف اليدين، «نحن قوم نهوى العمل». وهذا ما كبّر منصب المدينة تاريخياً: نسيجها وتجارتها وناسها الوثّابون في الصناعة والابتكار. هؤلاء لا يصفقون للنظام لكنهم أصحاب رؤى مستقبلية يريدون تعزيزها، وامتياز يريدون الاحتفاظ به.

يصرخون بضرورة «تأميم شركات أبو مرزوق، وتأميم الدولة»، لكنهم يعارضون تحت سقف الأسد». يطرحون حل الأزمة في «ثورة حقيقية على النظام. في عدة لقاءات تسمعهم يطالبون الأسد بأن يصبح «أتاتورك العصر». فيشرح أحد السياسيين الشباب «معه الجيش ومعه جزء كبير من الشعب، فليمض في ثورة كثورة أتاتورك. دولة علمانية حرة بالقوة، ليكون أتاتورك العصر ويثور على البعث والتخلف المستتر بالدين من أجل العلمانية الحقيقية لمصلحة سوريا».

Twitter: @ketab_n

وجوه حلبية: لماذا يا تركيا؟

رامي مارتيني، ابن وزير شيوعي سابق لكنه ليس شيوعياً. الأشقر، صاحب الفنادق المتعددة، رئيس مجلس إدارة اتحاد غرف السياحة السورية. في الماضي، استثمر التاريخ والاستقرار ليفتح أول بيت تاريخي عربي كفندق ومطعم سياحي. بين حجارة البيت الذي يعود 400 سنة في التاريخ، يعبّر مارتيني عن نموذج «الحرس الجديد» وموقعه اليوم. العقل الاقتصادي عاتب على كل شيء. علامات استفهام في رأسه عن الموقف التركي. وعي اقتصادي يحلل الأزمة من منظاره الخاص و«مشروع وزير» دائم. يراقب الانتخابات التركية ثم خطاب الفوز ويقول: دخلنا «مناماً» تركياً منذ خمس سنوات أيقظنا منه أردوغان. تركيا مارد اقتصادي سياسي عسكري. ثمانون مليوناً، ناتجهم يفوق أضعاف الناتج السوري، اقتصادها رقم 16 في العالم، واستثماراتها من بحر قزوين إلى تركمانستان وأذربيجان وكازاخستان وجورجيا والمغرب والجزائر ومصر وليبيا. تنشط في السياحة والصناعة وتتميّز يدها العاملة وعقولها. في المدة الأخيرة قدر أن 25 ألف تركي نزحوا من ليبيا حيث المشاريع التركية بالمليارات... هذه تركيا، وهذا أردوغان الزعيم الذي وقف فوق حزب إسلامي بقرب زوجة محجبة وألقى خطابه... لكنه زعيم. تركيا لا تستطيع أن توتر علاقاتها معنا فالتركيبة الديموغرافية الواحدة تنعكس عليها في داخلها. والاقتصاد التركي يمتص من سوريا أضعاف ما تمتصه سوريا من الأتراك. هم بحاجة لسوقنا وللمعبر العربي الذي هو نحن. ليس من مستثمر سوري نجح في تركيا أو استطاع أن يعمل، بينما الأتراك اجتاحوا حلب والشمال. التركي ليس السائح؛ هو

Twitter: @ketab_n

المستثمر. لا يأتي كسائح ولا يبذر، معدل إنفاقه 120 دولاراً في الرحلة، أما السوري فينفق الآلاف في تركيا.

كان متوقعاً لعام 2011 أن يكون أقوى موسم سياحي في تاريخ سوريا. ففي العامين الماضيين كانت السياحة ترتفع بنسبة 25% سنوياً. القطاع السياحي السوري يتراوح من المتوسط إلى الصغير. وهذا له بعض الحسنات أيضاً فنحن لا يمكن أن نذهب إلى أي مكان، قطاع وطني. إنذارات السفر أطلقت قبل 15 آذار وبدء الأحداث، عقود التأمين ألغيت... لكن كل ذلك ليس تراجيدياً فالقطاع المتوسط سريع التعافي. «سياحتنا الداخلية وبعض الدول، تستطيع أن تعيشنا».

أما محمد وضاح العطري، فهو شغل منصباً قيادياً لهيئة رجال الأعمال السورية التركية لسنوات وطرح معارضته الواضحة في مجالس اجتماعات الهيئة مع الرئيس الأسد. ينتقد سياسات الأشخاص والمرحلة السابقة. يرى أن القطاع الاقتصادي كان بإمكانه أن يستفيد أكثر من الأتراك. يفيد العطري أن مجتمع حلب مترابط مع تركيا وأن المدينة خزان مالي لها. لكنها تتأثر بالعلاقات السياسية بين البلدين. يفاخر الخمسيني الذي يرتاد فينيسيا وكازينو لبنان بشكل اعتيادي أن لجده الأول مصطفى العطري صورة على العملة التركية.

ينتقد كل وجوه النظام ويعتبر أنه ضد الجميع ومع الرئيس. وهو أيضاً «مشروع وزير دائم». فاقتصاد حلب هو معبر السياسة. ويشدد العطري المستاء من أردوغان على أن الخطاب شأن «انتخابي» وسيمر لأن تركيا «استفادتها منّا كثيرة ونستورد منها ما لا تقل قيمته عن ملياري دولار سنوياً». ثم يعود ليحلل في نفسه عن المارد العثماني: صناعاتها اجتاحت

Twitter: @ketab_n

السوق، تطوّرها يحتذى به ومعارضها الصناعية تضج بالسوريين دائماً... الشركات التركية غزت العالم العربي... تركيا قوية نعم، لكنها بحاجة لنا.

ومن رؤساء الغرف الاقتصادية إلى ابن العادلي إلى ابن الجابري إلى «فندق زماريا» إلى السوق القديم، تتضارب الرؤى حول الموقف التركي، لكن لا تخلو جلسات حلب من المساءلة عن مطامع تركيا. ولا تنسى حلب كيليكيا السليبة ومساحاتها الواسعة التي لا تزال تحوي آلاف السوريين. هجّرت منها أكبر جالية أرمنية في سوريا. حوالى 80 ألف أرمني في حلب يزينون مجتمعها بيومياتهم وأشغالهم وسلوكهم الاجتماعي. يدخلون في ميادين السياسة والاقتصاد من نادي الهومنتمن ومن حزب الطاشناق ومن المجتمع المدني.

من نادي الهومنتمن يعبّر «نوبار» عن الجرح الأرمني التاريخي الذي فتحه الأتراك. القتل والتهجير لما يمر عليه بعد جيلان. «جدي من مواليد تركيا». منذ عام حين زار الرئيس الأرمني حلب رفض الأرمن استقباله لأنه يصافح الأتراك ويزورهم. «اليوم حسي السوري يتكلم قبل حسي الأرمني، نحن لا نقبل تدخل التركي في شؤوننا، أنا سعيد هكذا، لي مطالب أعرف كيف أقدّمها في دولتي، لا أثق و لم أثق ولن أثق بالتركي فبيني وبينه تاريخ. الأتراك لهم مطامع عندنا. تركيا تنام بين أوروبا والعرب وتريد أن تتكرس صلة الوصل. هي عرابة «الإسلام السياسي» الذي يحاور الأميركي. أشتم رائحة مشروع أميركي عبر الإسلام المسيّس بالإخوان هذا ممتد من مصر إلى السعودية وقطر وتركيا، وتركيا قادرة على أن تجيّر كل ما يحصل حولها لمصلحتها.

Twitter: @ketab_n

وفي السوق القديم، حيث يدير الأخوان «قرقناوي» تجارة العائلة يعبّر الأخ الكبير «حسن» من تحت صورة الرئيس الأسد عن اطمئنانه هو أيضاً. «أردوغان يقول ذلك لكنني أعرف أنه صديق الرئيس وقد استقبلناه هنا حين أتى. الموقف التركي لا يمكن أن يناقض الحقيقة والناس، كل الاتراك الذين نتعامل معهم يحبون رئيسنا أكثر منّا لأنه فتح لهم مجالات عمل كما فتح لريفهم سوقاً أرخص من السوق التركي. يؤكد قرقناوي أن جمعية من مئات التجار تجتمع يومياً للبحث في القرار والوضع. كل مساء نلتقي لمتابعة ما يحصل ونحن كلنا ضد الحراك الذي اتخذ صفة السلاح. طبعاً قرقناوي يضحك لدى السؤال عن «أبو مرزوق» لكنه مثل الكثيرين يفضل عدم الدخول في متاهات التصريح الإعلامي الذي قد يثمر «فنجان قهوة» في مكتب ما.

يعبّر الثلاثيني عن نموذج من عائلات التجارة الحلبية التي تستملك وتنشط وتورث وينخرط أبناؤها في العمل منذ الصغر في مصلحة العائلة. هؤلاء حتى اليوم علقوا صورة الرئيس في المكتب في وسط السوق التجاري الأكبر وما زالوا ينتظروا مرور رئيسهم الذي يحبونه، ويترقبون أن تتحسن العلاقات السورية التركية. وهم حين يتكلمون عن العلاقات السورية التركية، يتكلمون من أرضها وصلبها وساحتها الأساسية: سوق السلطنة في حلب.

على الخط الدبلوماسي الساخن

بينما يصرح أردوغان ويفوز ويخطب ثم يتصل بالرئيس الأسد وينصح ويطالب بمهلة زمنية للإصلاح، تمتنع كافة الجهات الدبلوماسية

Twitter: @ketab_n

السورية عن التصريح بهذا الشأن لا سلباً وإيجاباً. يفيد إعلام القصر أن «سوريا كبيرة، ولن ترد على تركيا». بينما تفيد الأعماق الدبلوماسية في عقل النظام أن الشأن التركي على النار، وأن سوريا تحاول أن تفكر مع تركيا حتى إنها في إحدى طاولات الحوار الرفيعة استعانت بقانون الأحزاب التركي للبحث فيه كنموذج عن قانون أحزاب سورية. هنا يتذمر إعلام القصر «لا شيء يرضي المعارضة».

لكن السؤال الأبرز والهاجس الأكبر لدى شريحة الحرس الاقتصادي والسياسي والعسكري الجديد، ذاك الذي لا قرار له اليوم، يسمع تحت التصفيق العاطفي الموالي في القصر. الحرس الجديد يتقلب في الموضوع التركي: أردوغان وتركيا هو حيث تجتمع الأضداد. تركيا أقوى منا لكننا حاجة لها. تركيا تعرف النظام السوري جيداً. تركيا لها مصالح في سوريا. تركيا تحتضن «الإسلام المتشدد المسيّس». ذاك الإسلام الذي يعجب الاميركي. ربما الحل التركي يكون بفتح سماء لهذا الإسلام؟ ربما الضغط التركي يكون باتجاه رجل مثل أردوغان تنتظره امرأة محجبة قرب ناصية النصر. قد تكون تركيا جزءاً كبيراً من المؤامرة ولكننا بالسياسة نتكلم معها. فنحن حاجة لتركيا، خطوطنا الدبلوماسية مفتوحة، لا بل شديدة النشاط وساخنة. إشاعات دائمة عن زيارات شخصيات سورية إلى تركيا والعكس. تركيا حتى الآن لم تقل المحرمات، تركيا تلعب السياسة. الحل الامني نعرفه ونحن أصلاً ضدّه، الإصلاح نحن ننادي به، ونحن أصلاً نريده سريعاً كي يلحق بسرعة الشارع. أردوغان زعيم وله مطامع طبعاً لكن سوريا ليست لبنان، لا يتم التوافق الخارجي على الحلول السورية. نحن نتعاون ونسيّس حلنا من الداخل.

Twitter: @ketab_n

وبين خطاب الموالاة العالي وخطاب المعارضة المغالي، على خط القلق السوري التركي من إسطنبول إلى دمشق، لا بد للاحتدام من أن يحط رحاله ويستريح في حلب. ففي حلب كما في ذلك «الحرس الجديد»، معارضة تكفي لأن تغزل التغيير بأكتافها، وموالاة تكفي لأن تحصن الأسد وساحة تتسع دائماً للمصالحة مثلما تتسع للخصام.

عندما تغزّل أردوغان بحلب

في زيارته منذ عامين لمدينة حلب، حيث تسلم أردوغان دكتوراه فخرية، ألقى كلمة أمام طلاب جامعة حلب قال فيها إنه رغم تسلمه الكثير من الشهادات الفخرية تبقى شهادة حلب الأغلى على قلبه. وشرع متغزلاً:

– حلب ليست غريبة عني فهي الصديقة، القريبة، هي المدينة الأخت... إن حلب في أقوالنا المأثورة، وفي أغانينا، وهناك الكثير من الفنانين والكتاب ورجال الأعمال والدين ولدوا في حلب، وماتوا في حلب... ليس في العالم نموذج بين بلدين بينهما كل نقاط الالتقاء هذه، فطوال التاريخ سوريا وتركيا متداخلتان ومصالحهما نسجت بشكل رائع... إن دمشق وحلب واللاذقية وغيرها من المدن السورية ومن اسطنبول إلى غازي عنتاب هي إقليم واحد. إقليم الأخوة.

Twitter: @ketab_n

سوريا العارية في زمن الأقنعة

تطوي سوريا شهراً ثالثاً على استفاقتها، و لم يغمض لها جفن بعد. متعبة، يأكل أجفانها الأرق، يستنزف جسدها المسير... ثوبها متآكل، شعرها يرسم الريح جنوناً... وهي تمشي. عوّدها الدهر أن تمشي. خلعت ثوب الخوف، ووقفت عارية أمام العالم... عيون الدنيا عليها... وهي في الهواء الطلق تقول: هذه أنا... هنا آثار سكين على خاصرتي، وهنا ورم في صدري، وهنا قلبي الكبير، وعنقي المغري... فيقف أمامها رجالها. واحد يحجب عورتها وآخر يروي غريزة فيها وثالث يصفق لمفاتنها ورابع يرسمها وخامس يشوهها وسادس يحمل سكيناً باسم الدين عليها... دمع في عيونها ودماء على وجهها... تريد لجسدها العاري أن يعكس الروح... وعشاقها ينزلقون أكثر إلى المادة.

في زمن الأقنعة

وجوه ترتدي الخطوط قلقاً وخوفاً وتنبّهاً. عيون تتقلب ليلاً نهاراً حول الجديد والقديم. خلفيات كثيرة تحيك المواقف. تعلّم المجتمع السوري اقتناء الأقنعة. إذا كنت تجلس في المقهى، علّمك الحكم أن تخاف من النادل والطاولة القريبة وموظف الفندق وسائق الأجرة. لقّنك الأمن درساً تحفظه: أنا حولك كيفما أدرت وجهك... فتعلّم أن تعيش تحت القناع. تتقلب سوريا في الزحمة لتعيد ترتيب أرضها، وهناك من يصر على الاستمرار بالأقنعة.

Twitter: @ketab_n

حين يعاتب كاتب افتتاحية في صحيفة سورية لأنه انتقد الأمين القطري المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي محمد سعيد بخيتان، نكون لا نزال في زمن الأقنعة. حين تصمت الطاولة المعارضة بحضور ضيف جديد، نكون لا نزال في زمن الأقنعة .حين يطلب للحوار الوطني أن يكون على مقاس «سقف» محدد، نكون في زمن الأقنعة. حين يجلس صحافي شاب سبع ساعات «يشرب القهوة» ويجيب عن أسئلة الضابط المحقق لأنه كتب كلمة على «فايسبوك»، نكون في زمن الأقنعة. حين تحمل المصادر الإعلامية الرسمية أوراقاً عليها أرقام تظاهرات كاذبة، نكون في زمن الأقنعة.

حاشية لا فريق عمل

كل تلك الأشياء تحدث يومياً في دمشق. معظم الوجوه الرسمية تتكلم بلهجة تلفزيون «الدنيا»، والعاقلون من النظام مبعدون. يُتهمون بالخيانة يومياً و«بالمعارضة». كأن المعارضة تهمة يعاقب عليها الوطن، فإما أن تكون بوقاً أو عميلاً، لن تترك لك «عقلية» النظام خياراً ثالثاً. هنا تشعر المعارضة باليتم.

فالمعارضة العلمانية النخبوية لم تقدم شيئاً سوى الكلام حتى الآن. الشارع مختلف. معظم الأسماء المعارضة لم تعد تستطيع أن تخبئ الخطر المذهبي. شرخ كبير يحدث في المجتمع السوري، ومزيد من الجدران تبنى بالأخبار والإشاعات الكاذبة المستمرة، وبالمزايدة الوطنية والتخوين المستمر.

في قصر الشعب من يقول «هم» و«نحن». الفريق الذي يدير الدولة

Twitter: @ketab_n

يهلكها حين يتخذ شكل «الحاشية العاطفية». المستشار الإعلامي الذي يرتدي ساعة بصورة الرئيس بشار الأسد وتدمع عيناه تأثراً بآلام سوريا، ما الجديد الذي يضيفه على فريق العمل؟ إذا كانت الحاشية تعتمد الأسلوب العاطفي في معالجة الأزمة، فإنها جزء من الأزمة. في قصر الشعب حين يقال «هم» و«نحن»، لا تختلف عن «هم» و«نحن» الطوائف والمذاهب. كل نوع من الشرخ هو أذية اجتماعية مضافة تدفع رمادية سوريا ثمنه باهظاً. تختنق في صمتها أكثر. تبتعد أكثر...

عن المؤامرة والبوصلة

في زمن العراء، كل الدنيا أصبحت تعرف عورات سوريا الإعلامية والطائفية والحزبية والاجتماعية. المؤامرة ليست موضع سؤال حتى، ولكنّ هناك شيئاً آخر تبحث سوريا عنه. كأن العقل الرمادي السوري الذي يجنح يومياً للمعارضة أكثر يقول: «كفوا عن نكء الجراح التي حفظناها وابحثوا عن دواء بعد الضرر الذي أحدثتموه في الجسد. جسد سوريا هو مجتمعها، فعالجوا شرخه على الأرض... كفانا دور الضحية».

إذا كانت المؤامرة الخارجية هي بتنشيط دور الإسلام – المعتدل في سوريا، يكون الحاج الإخواني الحموي هو النموذج عن ذلك الإسلام، حيث تلعب المؤامرة بأقصى قواها. في محله في حماه، انزلق الشيخ الإخواني المسيّس في حديثه مع «السفير» إلى عدة مقالب مذهبية، لكنه كان يحاور بمطالب «قانون للأحزاب» وحقوق مدنية. يريد ضمن قانون الأحزاب أن يسمح لتنظيم الإخوان المسلمين بأن ينشط إلى جانب «سواه من الأحزاب».

Twitter: @ketab_n

«مسيّس» ولطيف ومدني ويصافح باليد. يناقش باعتدال سياسي. وحين نصل إلى تشخيص الخصم: يجد الحاج عدوّه في الأمن أولاً ثم في «مذهب الرئيس» ليصل إلى... إيران. وحين وصل إلى إيران انفعل عاطفياً، وأعلن أن لديه قنبلة مسيلة للدموع من مخلفات اشتباكاته مع الأمن، تبين «الدعم الإيراني للنظام السوري»، لينكشف لاحقاً في التدقيق بالقنبلة التي أهداها الحاج لنا، أن القنبلة ليست إيرانية وقد كتب عليها «irritant» التي تفيد أنها «مثيرة للحساسية» وهي تحمل بعض حروف اسم إيران بالإنكليزية. هذا الحاج الطيب المدني، يستمع لتجييش في جامعه... ومن باب مذهبي... هذه حماه حيث بعض الإسلام المسيّس.

«نزف دماغي» و«يد مكسورة»

لم يعد خافياً في صالونات دمشق أن المؤامرة الإقليمية تتخذ شكل الإسلام المعتدل الذي لا يصوّب بندقية إلى فلسطين. وبينما تفصل المؤامرة، تستمر المدينة بالابتعاد عن صورتها القديمة. تكاد دمشق الحقيقية تصبح هي أيضاً تحت الطمس الإعلامي. سلاح، دماء، تظاهرات، أبرياء، تدويل... أين أصبحنا؟ تدخل البلاد شهرها الثالث من المخاض ولا يزال الجنين غير معروف. وبينما تعيش سوريا مفترقاً تاريخياً، تشخص إعلامية مقربة من النظام المشكلة: «لنقل إن سوريا امرأة وقعت من الطابق الثالث، هناك نزف دماغي ويد مكسورة، من نعالج أولاً؟». ثم تجيب نفسها سريعاً وبنظرة من الصدق «علينا أن ننقذ النزف في الدماغ، قبل اليد».

Twitter: @ketab_n

ورغم أنها من القدرات المستوردة أخيراً لمعالجة الأزمة الإعلامية، لا يختلف خطابها كثيراً بالمضمون عن العقل الإعلامي السوري التقليدي. لا تزال مميزات «الوزير الفلاني» أنه ينفّذ المطلوب منه، ولا يزال الحديث عن المعارضة ينزلق في التصنيف والتخوين.

تلك هي المشكلة، أنه لا أحد يقول الحقيقة. وسوريا العارية تتعب أكثر كل يوم، خطواتها سريعة نحو المجهول، تركض سريعاً بنشوة المرأة التي تصرخ بعد صمت عقود... خلفها وأمامها الرماح وهي تعدو... تحمل أوجاعها وتسرع نحو الغد. حولها المتفرجون، وهي تبحث عن عاشق صوفي لا يكترث لشكل الجسد بل يعانق روحها واختلافها ويطيّب جراحها ويروّض جموحها. مهما تدوّلت الأزمة السورية، في أبنائها جيش وصحافة وأدب وفن وموسيقى وآثار وإبداع قادر على حفر الحلول من الأرض. لكن الحاشية تأخذ الضوء كلّه وتحارب هؤلاء. الحل كما تطرحه عقول تعارض كل الناس وتخاف على سوريا. وتلك الآراء تقول اليوم: إذا لم تستبدل حاشية المصفقين بحاشية تضع الإصبع على الجرح وتشير إلى الأخطاء، فلن يعرف الطبيب سبب النزف الدماغي.

Twitter: @ketab_n

لكم ثورتكم ولنا ثورتنا

منذ شهر ونصف الشهر، سألت قيادياً سورياً «هل شاركت يوماً في تظاهرة؟» حينها كنت أقول له إن من لم يتذوّق نشوة الصراخ ضد نظام، لا يستطعْ أن يفهم الصراخ السوري. كنت أزايد على هذا المسؤول في دمشق أن بيروتنا اختبرت الصراخ. أزايد أننا نحن ساحة الحرية. حينها كان صوتي لا يزال «مبحوحاً» من صراخي ضد النظام الطائفي في لبنان. وكانت يداي لا تزالان تؤلمانني من حمل اللافتات، مرة «أقاتل إسرائيل وأشرب كاس»، ومرة «أريد دولة مدنية»، ومرة «يا رجال الدين خليكن بالدين واتركوا لنا نحنا السياسة». تلك كانت ثورتنا في بيروت، التي استقطبت ثلاثين ألف متظاهر غاضب في أسبوعها الثالث، و لم تسقط شيئاً سوى... معنوياتنا. في بلادنا، لطالما انتهت الثورات الخالية من الأجندات، بالفشل.

ثلاثون ألف لبناني «فاشل»

في تونس، حدث كل شيء سريعاً، قبل أن نعي ما يحدث سقط النظام، «بن علي هرب... السفاح هرب... المجرم هرب»، صرخ التونسي على قناة «الجزيرة» معلناً سقوط الطاغية فهللنا للحرية. حين بدأ ميدان التحرير يصنع ثورته، اقتربت الثورة أكثر إلينا. سقط مبارك، فوجدنا وقتاً كي نثور أيام الآحاد. فُتحت مجموعة «فايسبوك»، وتقرّرت التظاهرة البيروتية الأولى. مشينا تحت المطر. ألفا شخص من نخبة بيروت

Twitter: @ketab_n

العلمانية واليسارية. وجوه جميلة قديمة سارت معنا. كنا نلمح أساتذة جامعاتنا ومناضلي أحزابنا القدامى في التظاهرة. «الشعب» الذي يريد إسقاط النظام الطائفي كثّف نشاطه كل يوم أحد. أصبحنا 10 آلاف في التظاهرة التالية... ثم في الأحد الثالث 30 ألف متظاهر من الأشرفية إلى وزارة الداخلية سيراً على الأقدام... كانت النشوة أن تصرخ عبر المذياع «عالطائفية»، فيرد عليك أحدهم: «ثورة». وانتهت هناك أمام وزارة الداخلية. لم نحظ بدعم جدي من أحد. رموز النظام الطائفي اللبناني حاولوا استيعابنا، اختلفنا على آليات إسقاط النظام. تشوّشنا حين سألنا الإعلام ماذا نريد. حظينا بكثير من الحرية، فبانت صورتنا كما هي. حلقة تلفزيونية واحدة مع «قيادات» الثورة العلمانية، كانت كافية لأن يحبط الجميع وننقسم... وبدأت تتراجع أعداد التظاهرات حتى تم الإحباط النهائي.

ثلاثون ألف سوري من الجامع

وبدأت درعا فانقسمنا. منّا من أدان «ثورة الجوامع»، ومنّا من برّر لها بأن «الجوامع هي المكان الوحيد الذي يتيح للسوريين أن يتجمعوا». ابتعدنا بالتخوين والتصنيف. إما أنت «عميل» أو «بوق نظام»... لكن بغض النظر، هل سأل أحدنا أو ساءل إعلامه؟ تنقلت من حماه إلى حمص إلى حلب إلى السويداء إلى اللاذقية فابتعدت أكثر عن التلفاز وعن الناس.

هل نعرف عن التنظيمات الإسلامية المسلحة وغير المسلحة؟ هل نعرف عن القمع والظلم المبرر وغير المبرر؟ كيف يستطيع ابن وطن حريص أن يأخذ موقفاً مسبقاً مما لم يره؟ هل نسينا أن سوريا شغل العالم

Twitter: @ketab_n

الشاغل؟ هل نسينا أن ما بين لبنان وسوريا أكثر من حدود؟ أنا وقفت في التظاهرة ضد عدو واحد: إسرائيل. وضد الطائفية التي هي أداة تقسيم في يده. وفي سوريا، وجدت في التظاهرات والمتظاهرين طائفية مثل طائفية لبنان. وجدت في المعارضة العلمانية إحباطاً يشبه إحباط علمانية لبنان. وجدت في النظام السوري سوء إدارة وشمولية تشبه بعض الأحزاب في لبنان. مكاتب إعلام مهترئة، لهجة تخوين قاسية، ثقة منعدمة بين الناس، أقنعة كثيرة ومصالح... أيّ ثورة، أي نظام، وأي علمانية، هذه يا سوريا؟

الشارع السوري الحقيقي

سوريا 23 مليون نسمة. منذ آذار، هناك ما يفوق 1500 شهيد أي ما يعادل آلاف الأمهات المنكوبات في بيوت سورية. بالترجيح العام، ثمة عشرون في المئة من الشعب السوري لن يرضوا مهما قدّم لهم النظام. أولئك يشاهدون أنفسهم أقوى كل يوم. كلما سقط شهيد في تظاهرة، ازدادوا قوة وإصراراً... كلما قدمت القيادة تنازلاً، «طمعوا» بأكثر. أولئك لن يرجعوا إلى منازلهم، فقد تذوقوا النشوة، نشوة الصراخ. هؤلاء قلبوا سوريا والمنطقة منذ آذار، وقلبوا حياتنا جميعاً واهتماماتنا، ما الذي سيعيدهم إلى بيوتهم؟ نلغيه هكذا؟ نجتزّه من المجتمع؟ جميعهم «مندسّون»؟!

تلك عشرون... وهناك عشرون في المئة آخرون يهتفون «بالروح بالدم، نفديك يا بشار». يوم الثلاثاء كانت آلاف مؤلفة تغلق معابر دمشق تأييداً. الشارع كان يتناقل الأرقام «7 ملايين»، «10 ملايين»...

Twitter: @ketab_n

أمر مثير للعجب، المؤكد أن تلك أرقام خيالية، لكن المؤكد أيضاً أن مليوناً على الأقل نزلوا تأييداً، من اللاذقية إلى حماه إلى دمشق وحلب... لم تذكرهم قناة «الجزيرة».

تنسى «الجزيرة» أن هناك 20 في المئة من الشعب السوري مستعدون لأن يكونوا درعاً بشرية للنظام. تلك الشريحة، هي من السوريين ومن أقليات طائفية ومن موظفي قطاع عام... هم شعب سوري أيضاً، ما الذي سيغيّر رأيهم؟ فحتى لو كانت كل سفارات العالم تدين الأسد، فهم معه حتى الموت. كلما تحرّك المسلحون أصبحت موالاتهم أقوى. يتحصنون بالخوف من المسلحين الذين لم يعد منطقياً أن ننكر وجودهم. في سوريا تنظيمات متطرفة كانت تنشط إلى العراق في السنين الماضية للجهاد، معروفة وموجودة، أينها اليوم؟ في سوريا سلاح استعمل في السابق، وهل من ظرف أوفر من اليوم لاستعماله؟ لكن ذلك لا يحلل نظرية «المندسين». التعميم على المعارضة وعلى الموالاة جريمة. ثم إن الشعب ليس فقط تينك الشريحتين. هناك 60 في المئة من الرماديين الصامتين المصابين بالإحباط.

مطلوب: علمانية بالقوة ضدّ التشدّد والبعث

لأحد الزملاء اليساريين في لبنان نظرية تبرّر ولاءه التام للنظام السوري اليوم بعيوبه :أثناء حرب تموز، كان ممنوعاً علينا ألا نكون مع حزب الله، لأنه كان يقاتل إسرائيل. بشار الأسد اليوم لا يقاتل إسرائيل وحدها، بل معها العالم كلّه. ليس مبرراً ألا نقف معه. «هذه حرب... ولا آراء في الحروب».

Twitter: @ketab_n

لكن الزميل لم ير ما رأيته في سوريا، وحين نصل بالحوار إلى حائط مسدود يقول، «ما عدد المحتجين؟ ما الثمن؟ 200 ألف؟ لا مشكلة، أنا لم أعد ضد القتل»... وتلك المشكلة المضافة.

لعل أكثر النقاط أهمية في خطاب الأسد أنه أقر بأن النظام يدفع ضريبة أحداث الثمانينيات. وفي الثمانينيات، الحل الأمني هو الذي تكلّم. فكيف نطالب بحل أمني اليوم؟ لم يعد أمام النظام من رهان سوى الداخل، و لم يعد من مجال لإنكار الشارع السوري الحقيقي. من تذوق نشوة التظاهر ضد النظام مختلف عمّن سار تأييداً. ذاك كسر خوفه ولن يعود إلى منزله إلا رابحاً أو شهيداً. بالأمس سقط شهيد في حماه. وقبله كانت حماه تشبه اليمن، تراشق بالحجارة بين مسيرتين: واحدة مؤيّدة وواحدة معارضة.

هناك ما لم يعد مسموحاً إنكاره، من أجل سوريا. ليس مسموحاً أن تطمس أخبار حماه، فالمدينة نموذج مصغّر عن الثورة الريفية السورية. في حماه وجدت من أعارضه أشد أنواع المعارضة: التشدد الديني والأمن. وإذا كان من أمل في حل منطقي من أجل سوريا، فإنه يكون غداً بانقلاب حقيقي على التخلّف الاجتماعي الذي هو صنيعة النظام. الرئيس الذي خطب من أجل «أجيال سوريا» الجديدة وضع كل أسئلته في عهدة الحوار الوطني واللجان. وما زال الصراخ في حماه. واليوم، تشهد حماه إضراباً عاماً... ولن تسكت.

وإذا كان لا بد للأزمة من أن تحلب الجيش السوري، فليكن الجيش السوري بطل الثورة على التخلف والتطرّف. ما دمت تملك القوة العسكرية، فلتستخدمها في إحقاق الدولة المدنية. الأتراك يرسلون لوائح

Twitter: @ketab_n

بالأسماء التي يريدون عزلها، ويرسلون اقتراحات الحلول. يتدخلون في ما لا يعنيهم. والغالبية الرمادية تقول: إن كان من شيء يجب أن نستورده من تركيا فهو أتاتورك، الذي فرض الدولة المدنية بالقوة. وذلك هو الحل الحقيقي الوحيد، وكل الحلول الأخرى، مؤامرة. مطلوب من الرئيس السوري الذي عوّدتنا حرب تموز أن نحبّه «نكاية بإسرائيل» أن يحمل معنا اللافتة في التظاهرة: «أنا بقاتل إسرائيل وبشرب كاس» وعندها جميعنا «سنلبس عسكر».

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

المعارضة السورية
ما لها وما عليها

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ما بعد سميراميس

أول يوم جمعة سياسي في دمشق

منذ أول صرخة سورية، اتضح اختلاف أسباب الغضب ودوافعه. مع امتداد «الثورة» الريفية شمالاً، بدأت المحافظات تكتسب شخصياتها المختلفة. تكرّس التنوّع أكثر. مع تقدم الأشهر الثلاثة الأخيرة بات في الشارع أسماء وأنواع معارضة تحت التقييم وقيد العمل وفي المبارزة مع التاريخ... في مطلع تموز، وفوق اقتصاد يسير في الخسارة، أصبحنا في مرحلة الثلاثية السياسية: معارضة اللقاء التشاوري، ومعارضة الأحزاب، ومعارضة الخارج. لكن أحداً من تلك الثلاثية لا يحرك الشارع. أي جناح من المعارضات يروّض موجة الغضب الريفي الجامحة؟ بدأ عهد جديد في تاريخ سوريا المعاصر لحظة عزف النشيد الوطني في فندق «سميراميس» للمعارضين المستقلين. اليوم هو يوم الجمعة السياسي الأول في العهد الجديد. فمن سيحصد علامات أكثر في الامتحان الأول؟

المستقلون المعارضون: التنظير في الثورة

لؤي حسين، قبل مؤتمر المعارضة وبعده، لا يمثل الشارع، ولا يدّعي ذلك. ميشال كيلو، قبل اجتماعاته ومقالاته وبعدها، لا يمثل الشارع ولا يدعي ذلك. جميع المعارضين المستقلين كذلك: لا برهان غليون ولا طيب تيزيني ولا فايز سارة ولا سلامة كيلة ولا أحد. وهذا بات معلوماً.

Twitter: @ketab_n

ولكن منذ ثلاثة أشهر، حتى اليوم، تلك أسماء رددها العقل السوري في جميع المناطق، وتابع مقالاتها على ضفاف الحل الأمني، وتعاطف معها في اعتقالها، وتنفس الصعداء مع خطواتها السياسية. تلك الأسماء العلمانية الناشطة، والتي لا تمثل فئة المتظاهرين، عبرت منذ آذار حتى اليوم إلى الشارع الأكبر في سوريا: شارع الصامتين.

في جامعة دمشق، وفي جامعة البعث في حمص، وفي جامعة اللاذقية، وفي دور العقول السياسية والقيادات التاريخية وبقايا الأحزاب الوطنية، أصبحت تلك الأسماء تمثل شيئاً ما. لديها شهادات نضال سياسي: «اعتقال» بتهمة إبداء الرأي لسنوات، «منع سفر» على الجواز ليكرّس معارضتها، مقالات في الصحف وكفاح سياسي... تحاول اللحاق بالغضب ومجاراته، تحاول أن تركض بسرعة الشارع.

وبفضل الدماء السورية، أصبح بإمكانها أن تجتمع وتعلن معارضتها أمام الكاميرات في عاصمة النظام البعثي بعنوان «سوريا للجميع». لكنها لا تزال كالرأس المنفصل عن الجسد. مشروعها واضح: حرية وسلطة ودولة وحق حقيقي على مقاس الوطن والشعب لا النظام ولا الأسماء. تناشد الشارع أكثر مما تمثّله.

الحزبيون المعارضون: أرض الثورة

تحت المطلب ذاته، والهدف ذاته، تستجمع المعارضة الحزبية شارعها هي الأخرى. لأحزابها امتداد أصلاً في الأرض. وبرغم ترهّلها عمراً وفعلاً، فإن لها جسراً أقرب وضلعاً أكبر في الحراك الشعبي. وقد ازدادت شعبيتها وعادت للتداول السياسي بقوة مضاعفة مع بدء العقل السياسي

Twitter: @ketab_n

السوري مواكبة الصراخ ثم المشاركة به.

هناك فروع لأحزاب في الجبهة، تبشّر باستقلال عن الجبهة، وعن مركز حزبها. هناك رؤوس لأحزاب المعارضة يعتقلون فيستعيدون شعبيتهم من الذاكرة السورية السياسية. هناك أحزاب تجمّع ما بقي من أرضها وتقف فوق عقائدها وتنطلق من مبادئها: قوميون وناصريون واشتراكيون يعيدون نفض الغبار عن ثوابت أحزابهم، ويرفعون السقف في بياناتهم: نحن لا نحاور، لدينا شروط، أوقفوا القتل، واسمحوا بالحياة السياسية، أخرجوا الأمن من خلف عتباتنا. أعطونا إعلاماً صادقاً... أعطونا العلمانية والاشتراكية والقومية التي تزعمون في دولة مدنية محترمة تليق بالمجتمع السوري الغني والمتنوع.

تلك الأحزاب لها معارضة مختلفة عن معارضة المستقلين في الشكل، ولكنها تتفق على الهدف والمضمون. المشروع الواحد بأسماء مختلفة، ساحات للحياة السياسية تفتح مع كل نقاش حول تلك الأحزاب ودورها ما قبل الصراخ السوري وما بعده. آفاق لبلورة مستقبل سوريا الجديدة ترسمها حواراتهم في المقاهي. يشد بعضهم على أيدي بعض: نحن نصنع استفاقة الحياة السياسية السورية اليوم، ولن نتراجع ولن نخرج من الشارع ولن نرفع قلوبنا عن الأرض. إما أن تدوسوا عليها، فتصبح أقوى ونهلك وتهلكون، وإما أن تعطونا الدولة التي نريد. ما دامت ساحة الغضب مفتوحة، ووصلنا إلى هنا، لن نتراجع. ما دام الدستور قابلاً للتغيير، فنحن نريد أن نغيّره بما يتفق مع رؤيتنا. المعارضة الداخلية أولى بالمعروف من الموالاة المقنعة ومن المعارضة الخارجية، فأفسحوا لنا الدرب.

Twitter: @ketab_n

الإخوان المسلمون: خارج الثورة

وبعين مفتوحة على الحراك وتقويضه، يسهر الخارج ومعارضاته وأنواعها وأطماعها... في الغضبة السورية، للإخوان المسلمين أيضاً ضلع من الأرض. هناك إرث عاطفي وارتباط مذهبي ومشروع إقليمي. يحاول تنظيم «الإخوان المسلمين» الذي يمثل التيار «الإسلامي المسيّس» كنموذج مرحب به خارجياً أن يقف على العاطفة والطائفة بمشروعه. الإخوان كتنظيم هو الخاصرة الخارجية بامتياز، لكنه أمر واقع في تاريخ سوريا المعاصر. العالم وإعلامه العربي والأجنبي معه هو أيضاً ويسمع صوته هو أيضاً... وهو أيضاً لديه أدوات وعقول. في مؤتمر أنطاليا، وفي بروكسل، سمع صوته. وهذا الصوت، مثله مثل صوت «سميراميس»، نبض يغازل الشارع ويريدت رويضه.

ولكن من أنطاليا إلى بروكسل، لا تملك المعارضة الخارجية أن تجتمع بأبنائها في دوما مثل حسن عبد العظيم، ولا تملك أن تتظاهر في حيّ الميدان في دمشق مثل لؤي حسين. وغداً إذا كان للحموي خيار حزبي آخر، أو حرية تقولب مطالبه في مكان آخر ومفهوم اجتماعي آخر، فسيتخلى عن التطرف. الشارع السوري عطش إلى الحرية لا إلى التطرّف. الحقيقة السورية تريد الدولة، لا تريد الخلافة الإسلامية. العقل السوري يريد حصة من السلطة، لا يريد جلب الخارج. الوعي السوري يريد مخرجاً من عنق الزجاجة، لا يريد حصة لنفسه. هذا ما برهنته معارضة دمشق الواعية، القديمة الجديدة.

تحاول المعارضة الداخلية أن تتحدى مشروع الخارج وعقلية الموالاة والتخوين. فوق جسد الحراك السوري الجامح، هي الرأس الداخلي،

Twitter: @ketab_n

وعلى هذا الرأس أن يتصل بالجسد لتكتمل مسيرة بعث الحياة في سوريا السياسية.

التحدي بعد صفحة سوريا الجديدة، كبير. اليوم وغداً في الشارع، وحدهم المتظاهرون يملكون قوة تصنع القرار، من يروّضهم؟ إذا كان النظام مستعداً للتغيير، وإذا كانت المعارضة تقرّ بمخاطر الفوضى، فلدى الفريقين أرض للتلاقي. عيّن موعد الحوار الوطني في العاشر من تموز. وخرجت مبادرتان معارضتان، مؤتمر وبيان من قلب دمشق. وتحت السياسة وفرقائها الجدد والقدامى، يمشي الشارع سريعاً اليوم، وكل يوم جمعة. واللسان السوري يناقش كل الأشياء وكل الأسماء. منذ أولتظاهرة واليوم وغداً: الشارع السريع يمشي وتمشي خلفه المعارضة. أمس خرجت المعارضة الوطنية إلى التحدي المعلن والمواجهة، فهل يمشي الشارع خلفها؟

Twitter: @ketab_n

نقاش مع لؤي حسين وسلامة كيلة وريما فليحان
استفاقة الحياة السياسة السورية

على خط السؤال والجواب من منطقة إلى أخرى خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، كانت سوريا تتكلم في السياسة طوال الوقت وفي كل دار.

عند السؤال، اختلفت إجاباتها. كانت أحياناً تكشف عن فرز طائفي جديد، وأحياناً عن وعي وطني مميّز، وأحياناً عن أمراض اجتماعية خطيرة... اختلفت مواقفها وآراؤها. كانت تكشف وجهاً جديداً في كل منطقة. ولعل أهم النقاشات، كانت مع من لم ينزلق خطابهم إلى الدفاع العاطفي، لا عن أخطاء النظام ولا عن تشوّهات «الثورة». وهؤلاء كثر، ممتدّون من مكاتب المسؤولين إلى أوكار» المتظاهرين من درعا الجنوبية إلى حماه الشمالية، وما بينهما وما على جوانبهما.

تلك الشريحة المتسائلة المنتقدة المفكرة، سُميّت الأغلبية الصامتة، ولكنها ليست صامتة و لم تكن. لا بوق لها ولا مذياع، ولا إطار حزبياً أو سياسياً يُسمع الدنيا صوتها.. كانت ولا تزال تعايش يوميات الانتفاضة السورية وتداعياتها وتتقلب مع كل مرحلة جديدة. فيها وإليها وعليها مستقبل سوريا وساحة الاستقطاب السياسي خارج الخيارين المنتهيَي الصلاحية: «البعث» و«الإخوان المسلمين».

«أنا مع ميشال كيلو وبرهان غليون وطيب تيزيني وفايز سارة وهؤلاء المفكرين وذلك النوع من المعارضة» هكذا أجاب حسن حميدوش

Twitter: @ketab_n

في ساحة جامعة دمشق في البرامكة منذ ثلاثة أشهر، بينما كان رفاقه يتظاهرون تأييداً في كلية الهندسة.

وفي مقاهي حمص، وضع أحمد ولقمان ونجوى تلك الأسماء على الطاولة للنقاش، وكذلك سامر ونبيل في مكتبة حماه، وعمر في ملحمة دوما.. في اللاذقية، كان جورج زريق يترقب مقالات كيلو وسارة كضوء جديد في عقله السياسي الحزبي. في حلب، كانت معارضة المجتمع المدني ممثلة بالدكتور فارس إيغو. عند بيت الحجازي نفحة مشابهة لتلك الأسماء، وفي السويداء كانت الشاعرة أميرة أبو الحسن نموذجاً عن هؤلاء المعارضين. من دمشق تكلم بلسانهم الكاتب نجيب نصير منذ أول الأحداث. أفكارهم ومعارضتهم «متفشية». إنهم في كل مكان في سوريا، وأفكارهم على كل لسان.

وكان المؤتمر الأول من الداخل. وخرجت المعارضة الوطنية إلى الضوء، ودخلت في التاريخ من فندق دمشقي! فكان عليها هجوم مزدوج: التطرف على ضفتيه من الخارج والداخل. العاطفيون على نوعيْهم، المعارض والموالي، هاجموها، وشارع كبير استمع إليها وترقبها. شارع كان ينتظرها، وجد فيها «دواءً مهدئاً للعصفورية السورية»، لكنه يضعها اليوم أمام التحدي الأكبر مع الوقت والقدرة والفعالية في الإمساك بأرض الثورة. فماذا تقول اليوم؟

لؤي حسين: لا أحد يمثل أحداً

لو حالفتك الصدفة في يومياتك الدمشقية منذ أسبوعين لتعبر بفندق الفردوس ذات مساء، لرأيت طاولة تجمع ميشال كيلو ورلى ركبي وسمير

Twitter: @ketab_n

سعيفان ولؤي حسين وغيرهم من المعارضين. لن يطيلوا معك الحديث، فهم يتناقشون، يجتمعون للتحضير. يبتسمون مبتعدين عن الإعلام ويشرعون في نقاشاتهم حول الغد. لو كنت ناشطاً على «فايسبوك»، لصادقتهم لتطّلع على أطروحاتهم وأفكارهم اليومية وتعليقاتهم على الحدث. لو كنت طالباً شيوعياً أو قومياً أو ناصرياً منذ 30 عاماً، لناضلتَ معهم. لو كنت تقرأ الصحف اللبنانية والعربية، لتعرّفت أكثر إلى أفكارهم. منهم خرجت ثلة، في مقدمها لؤي حسين، وعزفت الخطوة الأولى في المعارضة في مؤتمرها العلني.

بعد قراءة تعليقه على حديث وزير الخارجية وليد المعلم، سألت لؤي حسين عبر «الفايسبوك»، «ماذا تمثل» من الشارع، فأجاب «لا شيء». بعد أيام في مقهى «عندنا» في الشاه بندر في دمشق، سألته السؤال ذاته، فأجاب مروحة أفكار مفادها: تمثل العقلاء، «هناك في الأغلبية الصامتة أرضنا».

منذ أول أيام استفاقة درعا، كان لؤي حسين المصدر الإعلامي الرئيسي لـ"الجزيرة» و«العربية» و«رويترز» و«بي بي سي» و«فرانس 24». ذهب إلى قلب الحدث ونقله إلى الدنيا، فاعتقله الأمن في 22 آذار جاعلاً منه أول معتقل سياسي في الثورة السورية. «كان اعتقالاً انتقاميا». ولكن أيام اعتقاله الثلاثة لم تكن صعبة، فقد عرف الاعتقال والسجن والأسر لمدة سبع سنوات متواصلة بتهمة «فكرية». فكان طالب فلسفة في السنة الرابعة، وناشطاً في حزب شيوعي معارض، فجعله القمع البعثي بطلاً عام 1984 وأطلقه إلى شوارع دمشق من جديد عام 1991. بعد الخروج من الأسر، افتتح دار «بترا» للنشر وعمل فيها على إصدار كتب علمانية

Twitter: @ketab_n

فكرية وبحثية. كتب في صحيفة «السفير» منذ 2003 حتى 2008 في الشأن السوري والوضع الإقليمي. يشرح حسين سبب توقفه عن النشر «في 2008 مع حرب غزّة، الوضع الأمني صعّب عليّ الكتابة».

لم يكن المؤتمر المعارض أول موكب جمعه مع رؤوس المعارضة الآخرين، ففي الأعوام الماضية نشر عدة كتب سياسية، وكانت عبارة عن حوارات في المعارضة الوطنية السورية مع المفكرين، ومنهم طيب تيزيني وبرهان غليون وجودت سعيد وصادق العظم وجورج طرابيشي.

كثير الحركة، كثير الكلام عميقه... والد آنستين صغيرتين تذوّقت يومياتهما نضال «بابا البطل». دخل الأمن على منزلهما، وأخذ حواسيبهما وخرّب منزلهما بحثاً عن «بابا ونشاطه» منذ ثلاثة أشهر.

في جلسة سمر بين ماضين ضاله ومستقبله، للؤي حسين شخصية تبهر جالسه... «في العمل الكتابي والشأن العام، كنت أحاول أن أسهم بثقافة سياسية، أبرز ما كتبت في انتقاد النظام كان عن موضوع السلام مع إسرائيل». يعبر لؤي هنا عن أنه ليس ضد فكرة السلام ولكن نقاشه في المقالات كان يدور حول أن السلام الخارجي يحتاج إلى سلام داخلي كمرحلة أولية، كما رفض فكرة التفاوض على الجولان. ثم حين يُسأل «حسين» عن فلسطين يجيب بسرعة المحسوم: «أنا سوري أريد الجولان، فلسطين للفلسطينيين أن يحرروها».

يتابع التظاهرات. يسمّيها «قرقة» تيمّناً بالدجاجة التي تجلس على البيضة لتفقس صوصاً. يقول لأصدقائه أيام الجمعة بينما يتجه نحو مواقع التظاهر «تارك قرقة بالميدان، بدي شوف وين صارت». لكنه يعرف ويقول إن المعارضة «النخبوية» المثقفة التي انطلقت من فندق

Twitter: @ketab_n

«سميراميس» ببيان تلاه هو، ودعوات أشرف عليها هو، لا تزال لا تمثل الشارع المتظاهر، وهي تدرك هذا الأمر. ولكن لؤي يشير بتحفظ «أمني» على الأسماء، إلى أن بعض «التنسيقيات» كانت جزءاً من اللقاء، وبعضها الآخر رحّب بها، وأن صفحة «اتحاد التنسيقيات» صفحة إلكترونية لا تعبّر سوى عن مؤسسها، بينما التنسيقيات بعضها أصبح معروفاً بالأسماء.

يرفض توصيف الشارع بالتيار الإسلامي، قائلاً «التيار يطالب بدولة، شارعنا التظاهري ليس سياسياً ولا إسلامياً، هو شارع منتفض لحقوقه، ولا يزال الوقت مبكراً لتصنيعه سياسياً لأنه لم يطرح سياسة ولا أفرز قيادات». أما عن السلاح والعصابات المسلحة، فيقول حسين: «أنا لا أقر للإعلام بوجود مسلّحين لأن ذلك يكون مادة لحرب إعلامية في يد السلطة». وهنا ينتقد المعلومة ووصولها والإعلام السوري «معلوماتنا يجب أن تكون عن طريق الصحافة لا الرأي، والصحافة لا تكون بتلاوة نشرة أمنية، أنا قلت إنني مقاطع للإعلام السوري، تضامناً ودفاعاً عن الصحافيين السوريين الذين تمسك بأعناقهم وأعناق وسائل إعلامهم أجهزة الأمن».

«ليس في سوريا أحد يمثل أحداً، فلا آليات لدينا لفرز الممثلين. مجلس الشعب زائف، وحتى السلطة لا ممثل لها سوى رئيس الجمهورية، علينا الانتهاء من كلمة «تمثيل» هذه، غداً سينتقدنا الشارع وهذا حق أي سوري على الأرض السورية لا يستخدم أسماء وهمية ولا يتكلم من خارج البلاد. لا يحق لمن هو في الخارج أن يأخذ المواقف، يحق له أن يبدي الرأي فالعمل السياسي يكون على الأرض. نحن الذين كنا في

Twitter: @ketab_n

اللقاء التشاوري نمثل كل من يؤمن بدولة ديموقراطية... بعض الرفاق الذين انسحبوا قبل المؤتمر (رلى ركبي، سمر يزبك، عارف دليلة، ياسين حاج صالح... وغيرهم) ربما خافوا من التخوين فنحن لسنا معتادين الحياة السياسية العلنية، ولدينا تقدير أن السلطة فاعلة في كل شيء، وهذا صحيح. لكن مؤتمرنا كان يشبه تظاهرات حماه. ففي حماه مثلاً، التظاهرات كلها كانت بمعرفة السلطة. أنا أجلس مع السلطة وأقول لها ما أقوله على المنبر العلني: لا بد من زوال النظام الاستبدادي الحاكم والانتقال إلى نظام ديموقراطي مدني. كل سوري قلق من مستقبل مجهول متضامن معي اليوم، لأن مؤتمرنا أتى في إطار صناعة المعلوم، وبعث الحياة في السياسة السورية». وقال «نحن معارضة تصالحية لا تسامحية، ولن نحاور قبل تنفيذ التوصيات التي طلبناها في المؤتمر، ونحن سنبقى في الشارع حتى تحقيق كل مطالبنا، ونعمل على تعزيز رؤانا في المناطق وتوسيع تيّارنا».

ريما فليحان: وجودنا يرفع السقف

كثر من الأسماء المعارضة اعتذروا أو قاطعوا المؤتمر، ثم رحبوا بتوصياته وطالبوا بالمزيد. بعضهم تردد كثيراً ولكن صمّم على الذهاب، وهكذا أصبحوا 300. وصلتها الدعوة لحضور اللقاء التشاوري الأولفي فندق «سميراميس»، فترددت ريما. منذ أول الأحداث وهي تحت المجهر، كتبت «نداء أطفال درعا» المشهور فشهر التخوين سيفه لأنها وصفت الحل الأمني بالحصار.

استطلعت كاتبة السيناريو الناشطة في المجتمع المدني آراء أصدقائها

Twitter: @ketab_n

على «فايسبوك» حين تلقت الدعوة، فشوّشتها، واعتذرت عن حضور المؤتمر علناً. ثم، في اليوم التالي، كانت على المنبر الإعلامي في فندق «سميراميس» تجيب عن أسئلة الصحافيين... ما الذي قلب رأيها؟

تقول ريما في مركز عملها في مكتبة «إيتانا» العصرية في الشعلان: خفت أن تستغل السلطة هذا الموضوع، ولكن قبل نصف ساعة من موعد المؤتمر كان يدور في رأسي الحوار التالي «إذا كان كل شخص مثلي مؤمناً ببلده ونفسه وبعدم خيانة الدم الذي أوصلنا إلى اللقاء لم يذهب، فمن الذي سيذهب؟... مضيت إلى «سميراميس»، ولحظة النشيد الوطني امتلكني شعور عارم أكبر مني، وبكيت وقلت لنفسي، سأقول ما أريد هنا أمام الكاميرات من دون خوف: دولة مدنية بشكل سلمي. السلطة طبعاً ستستغل، ولكن قلت لنفسي ربما وجودنا سيجعل البيان يوافق نبض الشارع...».

وعن الهجمة قبل المؤتمر وبعده، تقول فليحان «المعارضة بالداخل لم تهاجم المعارضة التي في الخارج، ولولا هجوم الخارج علينا، لما استطاع الإعلام السوري استغلاله»... رسالتي ورسالة المؤتمر للداخل الذي لم يحدّد موقفه ولا يزال خائفاً من الفوضى: هناك مفكرون وهناك كيان سياسي في الداخل قابل للنمو وهذا يجنب الفوضى، وهناك جهات معارضة ومستقلة في الداخل تساند الحراك الشعبي ولا تعمل بأجندات خارجية. أنا أريد أن يسقط النظام، ولكن ليس على رأسي، نريد انتقالاً سلمياً ديموقراطياً إلى الدولة المدنية، ويجب ألا ننسى أن جزءاً من هذا الشعب السوري مع هذا النظام. سوريا مختلفة عن مصر وليبيا وتونس واليمن، ولا قالب واحداً يمشي في كل الدول، لكل بلد شخصيته...

Twitter: @ketab_n

سلامة كيلة: مؤتمر الضمانة ضدالمؤامرة والفتنة

«كنت في ثورة مصر»، هكذا يعرّف المناضل ذو الشعر الأبيض عن نفسه فوق طاولة القهوة. وتتدرج التعريفات: «فلسطيني الولادة أردني الجنسية مواطن عربي من جيل الهزيمة في 1967 ساكن في سوريا منذ 30 عاماً... كاتب دفع ثمن حرية فكره ثمانية أعوام في الزنزانة، تزوّج صديقته في السجن، فكان عريس النضال السياسي في السجن منذ 1992 حتى 2000. وخرج من السجن كاتباً ومفكراً له مقالات في الصحف العربية واللبنانية حتى اليوم.

للمعارضة التي فيه أسبابها «النظم العربية فاشلة غير قادرة على أن تحقق لشعوبها، وبالتالي غير قادرة على محاربة الصهيونية. قبل صرخة درعا، كان تحليلي أن الأمور مقدمة على انفجار اجتماعي بسبب التحول الاقتصادي نحو قطاع الخدمات والمصارف والعقارات والسياحة على حساب الزراعة والصناعة. وحين صرخت شريحة الثورة الاقتصادية، قرر النظام أن يواجه بعنف لأنه مدرك لما فعله في المجتمع».

يدافع كيلة عن الحراك السوري، ويعتبر أن السلاح «كان رد فعل محدوداً على ممارسات فظيعة من النظام» كما يستبعد أخطار حروب طائفية في سوريا. يرى أن الجذور اقتصادية بحتة، وأن وعي الغضب ينتقل إلى وعي سياسي تدريجاً. «الوعي الديني التقليدي يطرح في هذا السياق، الشارع ليس مؤدلجاً دينياً بالمعنى السياسي. المشكلة في المعارضة بالخارج، الإخوان المسلمون ومن حولهم، إنهم يتكلمون عن مجلس انتقالي وتواصل مع الدول الغربية ووضع دستور من الخارج، وهذا طرح بديل ووُضع برنامج. وهؤلاء هاجموا مؤتمرنا الداخلي

Twitter: @ketab_n

لتشويه دوره. أتمنى على كل من انتقد المؤتمر وهاجمه أن يهدأ ويفكر.. هناك حاجة وحرص على تطور الانتفاضة ولا أحد يقفز إلى حوار مع السلطة».

مؤتمر جميل... ولكن

كل شيء مختلف في أحاديث دمشق ما بعد المؤتمر المعارض. كأن النقاش العام اكتسب جرعة إضافية من المعنى السياسي... تتكلم الألسنة عن قدرة العبور إلى الشارع، وعن هيكلية أحزاب المعارضة بالمقارنة مع المعارضة الجديدة. عن تدرّجات الوعي السياسي وامتداده إلى المناطق. في مذياع السيارة الصفراء، أصوات إعلامية تناقش مؤتمر المعارضة وتقيّمه وتقيّم سقفه العالي على مسامعالمواطن السوري. في الحياة السورية مادة جديدة تظهر في كل الوجوه، معارضة وموالية.

يتساءل الشارع عن قدرة المؤتمرين على ترجمة خطابهم في عمل ميداني سياسي في المناطق. الدكتور أحمد برقاوي من مكتبه في كلية الآداب ضحك ضحكته المعهودة لدى السؤال، وقال: «ما كان ليعقد المؤتمر لولا أولئك الذين يخرجون إلى الشوارع ويستشهدون... إذاً هو ثمرة من ثمرات الحراك السوري وبالمقابل وعي جديد للسلطة بالآخر وأهمية الحوار مع المختلف.

لكن لأنه مؤتمر «مثقفين وما شابه ذلك»، و«سياسيين وما شابه ذلك»، فهو عكس جملة تناقضات في هذا الجسد. لقمان الحمصي، الذي كان ينتظر مبادرة كهذه، كان بالأمس يمشي متذمراً باسم الشباب السوري الذي هو شارع العمل السياسي: كل ما قاله المؤتمر جيد ولكن

Twitter: @ketab_n

كأنهم حالة المعارضة العاطفية لا الفعلية، فلم يطرحوا برامج العمل. عليهم أن يتمددوا في المناطق، نعم خطوة تاريخية ولكن حان الوقت للخروج من نشوة انتصارهم والعمل على الأرض، فليس لدينا متسع من الوقت، أنا اليوم أجد نفسي أقرب إلى المعارضات التاريخية لا معارضة مثقفي المقاهي...

هذا لقمان، أما شادي الشاب الثائر الحاد، ورغم إعجابه بكل ما جاء في توصيات المؤتمر فقد سارع إلى اعتباره قيد «استغلال السلطة»... و لم تغب عنه مشكلة «الأنا».. هؤلاء الشباب الناشطون، هم شارع تلك المعارضات السياسية المستفيقة في دمشق، وهؤلاء يطرحون تساؤلات كثيرة ويريدون المزيد...

وفي الشارع مقارنة دائمة بين معارضة الأحزاب ومعارضة المثقفين... «الأحزاب قديمة أثبتت عدم قدرتها على لعب دور طليعي في السياسة»، هذا رأي لؤي حسين وغيره كثر... «الأحزاب المعارضة مع حسن عبد العظيم قادرة على العمل على الأرض، ولديها قدرة القيادة وبرامج العمل». هذا رأي بعض الشباب السوري المعارض... وما بينهما، نقاش سوريا السياسي في قمته، والجناحان متكاملان بمشروع واحد وأمامه التحديات وجمعة واحدة قبل مؤتمر الحوار الوطني. على مشارف أسبوع الحياكة السياسية الداخلية في سوريا، يقوم الشارع المثقف بأجمل أدواره: الحسيب والرقيب.

Twitter: @ketab_n

ماذا تفعل لو كنت بشار الأسد؟

في مكتب الأمن الدمشقي حيث اعتقلت لأنك تفكر أو تكتب أو تتحزب – أو ربما عن طريق الخطأ – للرئيس بشار الأسد صورة مكتوب تحتها «قائد مسيرة الحزب والشعب». في غرفة نوم، وفوق سرير طفلة حلبية، للأسد صورة كتب عليها «حامي سوريانا». فوق مكتب رئيس تحرير جريدة «الثورة»، للأسد صورة وأبيات شعر نشرت في الجريدة احتفالاً بـ«المبايعة للقائد والخالد المفدى بالدماء والعروق». تستيقظ دمشق القديمة على أصوات موالاته وتختتم سهرات المطاعم تحت صورته بأغنية «منحبك» مرّة أخرى.

بشار الأسد خطاب على لسان المقاومة ضد العدو الصهيوني، ودمعة على خد والد شهيد الثورة السورية. بشار الأسد ابن لوالد، ابن لحزب، ابن لعائلة، وابن لمنظومة أمنية ومسيرة سياسية عمرها 50 سنة محفوفة بالأخطاء والقمع والقوة. بشار الأسد وجوه لا تحصى لرجل واحد. فماذا تفعل أنت لو كنت مكانه اليوم؟

من كرسيّه، تبدو سوريا غاضبة ومستيقظة وملوّنة كعادتها. ينزل إلى الشارع ليتفقّدها، فتحجب عنه الحاشية غضب الأرض. يخنقه المرافقون والمصفقون، من عينيه، سوريا تعبر بهم أولاً. يعود إلى كرسيه، يتّصل به الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون، فيرفض أن يجيب... يخرج في كلمة للسوريين فيقول: أنا مستعد لأن أغيّر كل الدولة وأن

Twitter: @ketab_n

أقلب الدستور رأساً على عقب، ولكن كل شيء يمر عبر اللجان والحوار. تترقب عيناه الشارع، فتخرج له شخصيات معارضة داخلية من قلب العاصمة وترفع السقف: «لا أصدّق الحوار في ظروف كهذه»... يوم الجمعة، تنتفض حماه بآلافها الكثيرة، «الشعب يريد إسقاط النظام»، فيستجيب النظام بعزل الشخص الوحيد الذي كانت حماه راضيةعنه: المحافظ... تضحك المعارضة بغضب: أهذه هي خطواتكم؟ بالمناسبة، نحن لن نخرج من الشارع هكذا.

إذا كان لأحد ما أن يروّض غضب الشارع بالسياسة، فالأولوية لمن هم على أرض سوريا، سياسياً وميدانياً واجتماعياً، من أصحاب الفكر منذ سنوات. منهم الوجوه الإعلامية المعارضة كالمؤتمرين في «سميراميس»، والكتّاب والمفكّرون وأسماؤهم التي تلمع اليوم، ومنهم الأحزاب التاريخية المعارضة التي انضوت تحت لواء هيئة تنسيق في بيان حسن عبد العظيم، المناضل والحزبي القديم الذي عادت لمعته اليوم. ومنهم من لم يلمع في العلن ولا يزال يعمل على أرضه.

لو كان هؤلاء بشار الأسد، فماذا كانوا سيفعلون؟

حسن عبد العظيم: بطل بين جمال عبد الناصر وفلسطين

يلاقيك متأبطاً جريدة أمام محطة الحجاز، و«يسايرك» في السياسة سيراً إلى مكتبه. كأنه معلم آخر من معالم الشارع القديم.. شرق محطة قطار تاريخية كانت تصل سوريا ببقية بلاد العرب، مبنى ستيني قديم، يحضن رئيس اتحاد الأحزاب المعارضة. تبدو ملامح إعادة الحياة إلى نضاله السياسي على هاتف مشغول وفناجين قهوة كثيرة. لا جرس

Twitter: @ketab_n

لينادي لأحد ما ليخدمه كما في مكاتب البعثيين، بل فنجان يغسله بيديه مستخدماً مياه الشرب، وقهوة ساخنة في «ترمس» مناضل مثل صاحبه.. إلى يساره خريطة فلسطين قبل غزوة الصهاينة، وفوقه صورة للرئيس الراحل جمال عبد الناصر. وبين يديه، هيكلية حزبية قديمة يعاد ضخ الدماء في شبابها مع كل تظاهرة، وأرض وإرث في حماه وسواها من الشارع الاحتجاجي يبنى عليه. وهيئة تنسيقية أعلن عنها أخيراً. رأس الأحزاب المعارضة السورية الاشتراكي العربي يرفض التحاور مع أحد قبل وقف القتل.

«ماذا تفعل لو كنت بشار الأسد؟».

من خلف نظارته، وبيد ترتجف قليلاً، بين هاتف مع برهان غليون للتنسيق في أمور هيئتهما الجديدة التي رفضت التحاور قبل وقف العنف، وآخر مع إعلامية سورية رفض مقابلتها، يباشر حسن عبد العظيم في مقابلته الخاصة:

لو كنت أنا بشار الأسد، لتوافرت لديّ القناعة بعمق الأزمة الوطنية وعجز السلطة عن حلّها، وتصاعد الغضب الشعبي إلى حد المطالبة بإسقاط النظام بسبب استمرار الحلول الأمنية والتهرّب من حلول سياسية وعدم الاستجابة للمطالب. لو كنت بشار الأسد، لسارعت إلى معاقبة الذين هاجموا المتظاهرين السلميين بالنار والاعتقالات الواسعة... لاعتذرت للشعب وذوي الشهداء وأصدرت عفواً عاماً لكل المعتقلين السياسيين وسجناء الرأي والمنفيين.

ثم لعقدت مؤتمراً للحوار الوطني تحضره الأحزاب والقوى والشخصيات المعارضة وممثلون عن الانتفاضة الشعبية السلمية

Twitter: @ketab_n

والشبابية، وذلك لوضع ميثاق وطني واختيار هيئة لوضع مشروع دستور لنظام برلماني وديموقراطي يؤسس لبناء دولة مدنية لا احتكار فيها لحزب أو جهة، ويتم فيها تغيير ديموقراطي شامل سياسي واجتماعي واقتصادي وثقافي... وانتخابات ديموقراطية شفافة، لا مثل الانتخابات الشكلية المعلّبة.

ولعملت على حلّ الجبهة وقيادة حزب البعث وإعادة بنائه بصورة ديموقراطية، وفصله عن السلطة، وإعادة هيكلة الأجهزة الأمنية وتحديد صلاحياتها. وفي الختام، لو كنت بشار الأسد، لواجهت بإقالة كل مسؤول حزبي أو أمني يقف حجر عثرة في وجه التغيير الديموقراطي الشامل. وإذا عجزت: أصارح الشعب وأستعد للتنحّي، أو أطرح الثقة بشخصي لاستفتاء شعبي تشرف عليه سلطة قضائية نزيهة ومنظمات حقوقية وطنية وعربية وعالمية.

ميشال كيلو: «حلقوا من جنبي»

حسم ميشال كيلو موقعه في «سميراميس»، مع دعمه لتوحيد جهود المعارضة والتنسيق مع الأحزاب. بين كتبه الكثيرة في منزله يتابع الحركة الإعلامية ونشاطه السياسي المتنامي. الرجل مثل رفاقه في مؤتمر المستقلين في «سميراميس»، ظاهرة إعلامية ومعتقل سياسي سجل نضاله في تاريخ سوريا المعاصر. يكتب ويتابع نبض الشارع الذي يعلي شأنه يومياً، ويرفع السقف. يريد إسقاط النظام ولكن بخطوات تدريجية، يريد للشارع الشبابي الذي نبذ المؤتمر بصفته «عرضة لاستغلال السلطة» أن يهدأ كي لا ينزلق في «سحر الكلمات الكبيرة». فهو دعا من قبل إلى

Twitter: @ketab_n

تخلي الشارع عن حلم «إسقاط النظام في يوم وليلة» كما ناشد السلطة أن تتخلى عن القتل:

لو كنت بشار الأسد اليوم، لاعتبرت الحركة الشعبية الاحتجاجية بقيم الحرية والديموقراطية التي تحملها، وتحالفت معها. لأجريت إصلاحاً جذرياً في النظام يحوّله من سلطوي أمني إلى نظام يحمل سمات مجتمعية شعبية. أبني نظاماً انتقالياً. أقتنع بأن التغيير حتمي. أقول لمن حولي: «حلقوا إنتو يللي جنبي إذا كنتم ضد التغيير». أعلن شرعية أحزاب المعارضة ريثما يصدر قانون للأحزاب. أسمح بتشكيل وترخيص صحف حرة.

وهنا ينزلق كيلو في «الحالة الكردية» بعدما انزلق رفيقه من مؤتمر «سميراميس» لوأي حسين في موضوع السلام مع العدو إلى اعتبار فلسطين شأن الفلسطينيين. يطالب كيلو بثلاث صحف: «واحدة للمثقفين، وواحدة للأحزاب، وواحدة للأكراد» ثم يبرر عند السؤال عن اعتبار المواطنين السوريين الأكراد حالة خاصة...» الأكراد قالوا: ما دامت الأزمة قائمة نحن سوريون، وبعد أن تنتهي الأزمة نعود للمطالبة بحقوقنا كأكراد».

تيار «سوريا الغد»: قلنا له عام 2006 هذا الكلام

هناك شريحة سياسية أخرى لا تريد احتلال أي منبر أو التسويق لأسماء أي قيادات، ولا تبحث اليوم عن مساحة في امتلاك العناوين المتشابهة التي تطرحها المعارضة، والمتّفق عليها. شريحة مكونة من رجال اقتصاد وعمل اجتماعي لا يطمعون بحصة من المنبر السياسي الآني. «تكنوقراط

Twitter: @ketab_n

علمانية» لم تلمع بعد لكنها تعمل على الأرض وبين المناطق وفي صفوف نخبوية متراوحة من رجال فكر وأدب وفن وأعمال ومناضلين خارجين من أحزابهم الجبهوية اليسارية والقومية.

هؤلاء يشبهون خطاب الشاعر أدونيس، ويشبهون رسالة يوسف الاشقر المفتوحة إلى الرئيس، ويشبهون تيار الأغلبية الصامتة. هم مجموعة «سوريا الغد» العلمانية التي ولدت عام 2002 ثم تعثّرت واليوم تستعيد بحثها عن الغد.

من اللاذقية إلى دمشق إلى درعا إلى السويداء إلى الرقة والحسكة ودير الزور وحماه وحمص... اجتمعوا في بيت دمشقي واحد، بطوائفهم المتنوعة تحت شعارهم المعلن «نريد دولة علمانية».

في جلسة سمر مع حوالى عشرين من «سوريي الغد» في منزل حسان سلوم، المناضل السياسي الخمسيني، ينأى الشباب الذين دعوا إلى الحوار الوطني والتيار الثالث عام 2005 عن الحديث في العناوين اليوم. هم ينصرفون في جلسة نقاش مفتوحة، بأوراقهم وأقلامهم للبحث عن التفاصيل المنتجة لدولتهم السورية الحديثة. ماذا لو كنتم أنتم بشار الأسد اليوم؟

يجيب الخبير الإعلامي رامي عمران: لشاركت الناس في الرؤى قبل أن أشاركهم في التفاصيل.

يرد الجراح حسان سلوم: لأعلنت شكل الانتقال إلى إنتاج الدولة الحديثة، ولحددت صراحةً عقد الشراكة مع كافة الأطياف السورية في إنتاج هذه الدولة.

Twitter: @ketab_n

من جانبه يهمس كاتب السيناريو نجيب نصير: الحياة المدنية هي نتاج فعل تنموي ثقافي وليست قراراً سياسياً يجمّل الواقع من دون تغييره.

يضيف رجل الأعمال الحموي: لبنيت دولتي على إرث المؤسسات بدلاً من أن تتوجع المؤسسات تحت إرث النظام.

يجيب الدرعاوي: لو كنت بشار الأسد لانقلبت على نظام بشار الأسد.

يختم ابن دير الزور بمعارضته الفاقعة عن رفاقه: بكل بساطة، لو كنت بشار الأسد، لقدت انقلاب الدولة على النظام.

Twitter: @ketab_n

في مطبخ قانون الإعلام

بينما تنشر هذه الكلمات عن الحرية المقبلة، ثمة رقيب إعلامي يقرر ما إذا كانت «السفير»، أو غيرها من الصحف، ستدخل اليوم دمشق أم لا... سيقرأ ويحكم، وقد يحجبها عن «السوق»..بموجب «اللاقانون»، له أن يمنع ما يشاء ويسمح بما يشاء. ثمة إعلامي سوري من حاشية النظام، يحاول أن يفكك المؤامرة في المقال ليكتشف: أهذا قلم «لنا» أم «علينا»؟. تستمر الأجهزة الأمنية والإعلامية السورية في مؤامراتها المزدوجة على حرية التعبير... ويحكى في كفرسوسة عن التغيير!

بينما يعيش جهاز الاستخبارات داخل عقل الصحافي السوري، تصرخ له لجنة إعداد قانون الإعلام: أنا سأنتزعه من عقلك... وها قد جهزت المسوّدة الأولى من القانون... للعبور إلى الحرية، فيجيب الصحافي: حين يعتقلني الأمن، أين ستكون أنت؟

طبّاخ قانون الإعلام في كفرسوسة

بعد متابعة حواراتهم لثلاثة أيام على التوالي، تظهر شخصيات لأسماء اللجنة. الإعلامي طالب أمين يدير الجلسة ويضبطها، وهو الخبير الذي تابع شؤون وزارة الإعلام مع خمسة وزراء سابقين. بالتصنيف، سيتسلل السؤال أوتوماتيكيّاً: كيف لمعاون خمسة وزراء سابقين، أن يصنع التغيير؟.

Twitter: @ketab_n

لكن في المتابعة، سترى أن لا سلطة لأحد سوى الأفكار. مثلاً، بين الجمع وأصغرهم، لكلام عبد السلام هيكل دائماً صبغته الخاصة، فهو يمثّل الابن الثري، المتخرج من الجامعة الأميركية الذي اشتغل على نفسه وقدراته تحت جناح النفوذ والمال في خطاب «شبابي عصري»، حين يبدي رأيه واقتراحه بمواضيع الحصص من المؤسسات الإعلامية الخاصة، يكون له عبد الفتاح عوض في المرصاد: أنت تقول هذا لأنك رجل أعمال... يضحكون، لكن تسجّل الملاحظة في المحضر!

كل شيء مباح، والحديث يراوح بين الملاحظات الساخرة في محور علي جمالو والمبارزات الحادة في محور ثابت سالم إلى المداخلات العقلانية في محور أساتذة الجامعات مثل يحيى العريضي. كما يلفت دور دكتور صامت في غالبية الأحيان، يبدي رأيه عند الضرورة، اسمه ليس مسجلاً في لائحة اللجنة ولا في لائحة شباب الـ«undp» المشرفين. فلعميد الجامعة، الدكتور سام دلّة، مهمة معنوية استشارية في القوانين وشكلها.. وحين يدخل القاعة، يضفي بصمة حضوره على وقع النقاش.

حين يبدي إبراهيم ياخور رأيه بأن الإعلام سلطة مجتمعية، يسارع علي جمالو في ملاحظاته ليصار إلى إلغاء كلمة «سلطة». وهكذا تصبح المادة الثانية: «الإعلام حر ومستقل ولا تقيّد حريته إلا بالقانون»... حين تعرض تفاصيل إنشاء وكالات الأنباء وحصصها وامتدادها، يدور التنظير بتنوّع حاد... بين محور «اقتصاد الإعلام» ومحور «دوره المجتمعي». حين يحكى عن محطّات صغيرة مخصصة لثلاث محافظات على الأقل، تثور الأدبية ناديا خوست من خلف نظارتها الستينية: الجمع تحت العناوين الوطنية. يرد طالب أمين من كرسيه: ما دام همّ المواطن

Twitter: @ketab_n

أساس الإعلام، فهناك بعض الأمور الحياتية الصغيرة التي يمكنه أن يغطيها على صعيد مناطقي. وحين يختلفون يطول النقاش إلى أن ترسو التسوية نهائياً باتباع مبدأ التصويت.

وهكذا دواليك، لكل منهم حديثه ورأيه وخلفيته. منهم الليبرالي واليساري واليميني والماركسي من شتى المحافظات السورية. في جلستهم ونقاشهم الحر، تبدو أكثر الكلمات دقة في الوصف هي تلك التي يستخدمها علي جمالو عنواناً لسلسلة مقالات ينشرها هجوماً على «البعث»: «تمارين ديموقراطية».

نحن في عهد «ما قبل القانون»

لو دخلت قاعة اللجنة صبيحة حجب الصحيفة وسألت «كيف تعدّون قانوناً يحرر الإعلام وقد حجبت جريدة اليوم؟»، سيجيبك المجتمعون باستنكار بأن القانون لم يبدأ العمل به، وأن وزارة الإعلام التي تقوم بهذه الممارسات، سيقطع نفوذها بعد القانون. «مهلاً علينا، فقد أعددنا قانوناً يليق بالمعايير العالمية، لا وجود لوزارة الإعلام بعد اليوم، ولا منع ولا اعتقال. لكن ريثما يمشي القانون، اصبروا!».

وبعد انتهاء الحديث ورفع جلسة اللجنة، سيقوم أحد المجتمعين بمجهود إضافي عبر نفوذه واتصالاته الهاتفية، لمتابعة إدخال الصحيفة بعد الظهر إلى السوق، ساخراً من «الرقيب الإعلامي»... سيعتذر عن القمع ويجيب «نحن نريد العبور إلى الديموقراطية، ولا يمكننا التمسّك بهذه الممارسات. أمامنا حرب مع العقلية القديمة، ومعركة الحرية لن تكون سهلة، فالعقلية الشمولية قائمة منذ سنوات، والمشكلة متجذرة

Twitter: @ketab_n

في الجسد ولا أحد يساند طريق الحرية سوى الجسم الإعلامي. علينا أن نبث حماسة القول وإبداء الرأي ونصونها للانتقال من القول إلى الفعل».

إذاً، رغم أننا لا نزال في عهد «ما قبل القانون»، بدأ صراع الرؤى في النفوذ الإعلامي السوري يعلو. هناك من يريد فتح الأبواب، وهناك من يخاف من الآخر. بينما ترسل قنوات الأمن تحذيراتها للإعلاميين وضغطها المعنوي، ثمة إعلاميون في داخل اللجان يعكسون آراء المعارضين ويدافعون عمّن يستهدفهم التضييق، بغض النظر عن انتماءاتهم ومؤسساتهم وموقع خبراتهم، وبصرف النظر عن ثقل الأحكام المسبقة الكثيرة التي ربما تليق بأسماء اللجنة، الموجودة على طاولتها مسوّدة قانون. وقد حصلت على نسخة من ذلك القانون.

في المحصلة مفاجأة كبيرة: قانون إعلام حر، وسؤال أكبر: ماذا عن الأرض الآن هنا؟

نظرة على قانون الإعلام الجديد

حصلت على نظرة خاصة بقانون الإعلام الجديد المقترح. بموجب المسوّدة التي أصبحت في عهدة رئاسة الحكومة السورية:

لا سلطان أو وصاية على الإعلاميين في أداء عملهم لغير القانون.

لا يجوز أن تكون المعلومة والرأي الذي ينشره الإعلامي سبباً للمساس بأمنه وحريته.

لا يحق لأي جهة مطالبة الإعلامي بإفشاء مصدر معلوماته إلا أمام القضاء، وفي جلسة سرية.

Twitter: @ketab_n

يكفل القانون حصول الصحافي على أي معلومة يطلبها من الجهات العامة.

أي إهانة أو اعتداء على إعلامي أثناء أو بسبب قيامه بعمله يعتبر اعتداءً على موظف رسمي حسب القوانين النافذة.

حرية إصدار رخص وسائل الإعلام للأحزاب السياسية والأشخاص، ويمنح الترخيص للناشر من المجلس الوطني الأعلى للإعلام.

لا تزيد ملكية أي شريك في وسيلة إعلامية عن 20 في المئة للإعلام البصري السياسي.

لا تزيد ملكية أي شريك في وسيلة إعلامية عن 49 في المئة للإعلام البصري غير السياسي.

يكتفي الإلكتروني بتقديم «إخطار» إلى المجلس الوطني.

يلتزم المجلس بإعطاء وثيقة الاعتماد للموقع الإلكتروني.بمهلة 15 يوم عمل من تاريخ الاستلام.

وقد أنجزت اللجنة مسودتها الأولى، وسلّمتها يوم الثلاثاء إلى رئاسة الحكومة. وتستكمل جلسات البحث والنقاش والإعداد اليومي في مركز التدريب الإذاعي في كفرسوسة حيث تفصّل دور مهام المجلس الوطني للإعلام ومهامه، وتناقش شأن الشركات التي تخدم الإعلام. مهمتها الثانية في جدول الأعمال: إعادة هيكلة المؤسسات الإعلامية القائمة مثل وكالة الأنباء السورية (سانا) والتلفزيون... إلخ.

Twitter: @ketab_n

تباين الوعود!

في مسألة التغيير الحقيقي، يجيب علي جمالو: هذا أكثر من قانون منطقي طبقاً للمواصفات الدولية ويناسب المجتمع... لا نستطيع أن نضع العربة أمام الحصان... علينا الفصل بين الأفق الذي نعمل به والممارسات التي تعتمدها وزارة الإعلام. أخطاء وزارة الإعلام تنتمي إلى سوريا القديمة. «ما في وزارة إعلام بالأفق: هناك مجلس وطني» يتبع للبرلمان، ونحن باتجاه التعددية السياسية، وبالتالي سيكون هناك برلمان حقيقي.

لمستشار مجلس الإدارة السابق في «lbc» ومدير مكتب كل من «السفير» و«الجزيرة» و«أبو ظبي» السابق في دمشق، قدرة على صوغ التصريح بما يناسب الظرف ويراعي الرأي العام. يعترف بالصعوبة لكن يدفع للأمام، بناءً على معطياته ومعلوماته وتوقعاته: خاض التجربة الإعلامية نفسها اليمن، وكذلك الأردن ودولة الإمارات... في الفترة الأولى أتوقّع فورة جنونية لوسائل الإعلام وستكون فورة موقتة ثم تستقر. علينا أن نفهمها ونستعد لها لأنها تكون فوضوية في الانطلاقة ريثما تستحدث تقاليدها وتأخذ شخصيتها.

يفيد جمالو أن بعض أسماء اللجنة ستكون جزءاً من الحوار الوطني. ورغم قربهم من النظام، يبرّرون بأن ذلك لا يعني انعدام الرؤى الإصلاحية. يتابع علي جمالو: «هناك شرطي مركّب على عنق كل صحافي، وظيفتنا إخراج الشرطي وتحرير الصحافي... سنخطئ لكن سنتعلم من أخطائنا».

من ناحيته، يسرع إبراهيم ياخور بالإجابة حاسماً: «لم يتغيّر شيء

Twitter: @ketab_n

حتى الآن، ولا تزال الحياة الإعلامية كما هي، وعليها ملاحظات، وما زال الوقت مبكراً لنحصد ثمار ما نفعله. القانون له مراحل أخرى ليصدر ويطبّق ويعمل به. وحتى حين يصدر القانون، ستمضي سنوات بينما تتكيّف البيئة الإعلامية معه».

يتابع ياخور، المعروف بقربه وصداقته من بعض شخصيات المعارضة: «دعونا ميشال كيلو ولؤي حسين وحسين عويدات. أتانا مازن درويش ودار نقاش مهم، موجود في سجلات اللجنة على الموقع الإلكتروني. درويش هو رئيس المركز السوري للإعلام وحرية التعبير، ودار نقاش عميق جداً وحر حول الإعلام في الجلسة الثالثة. للمعارضين اعتبارات أخرى للتغيّب، كالموقف السياسي، لكن ذلك لا يعني موقفاً من القانون».

... يشرح «مايسترو» اللجنة، الإعلامي طالب قاضي أمين من مكتبه في مركز التدريب، بعد أن رفعت اللجنة جلستها، أن «اللجنة لا علاقة لها مع السلطة التنفيذية... أنا معاون وزير سابق لكن أعمل في منظمة عربية. في أمور اللجنة لم يتدخّل أحد: لا وزير الإعلام ولا رئيس الوزراء ولا السلطة الأمنية. وكل شخص في الاجتماع لا يمثل سوى نفسه، مهما كان منصبه».

وعن الغد، يقر أمين بأن لا بيئة متوافرة للقانون الآن، ويضيف «على كل الناس المعنيين أن يسهموا في صناعة بيئة لهذا القانون، فما تمّت صياغته يعالج ما كنّا نعانيه في الإعلام».

لطالب أمين خبرة في العمل الإعلامي القانوني يفصّلها باختصار: كنت عضواً ورئيس مجموعة من اللجان التي عملت على قانون

Twitter: @ketab_n

المطبوعات الجديد. عام 1949 ورثنا قانون المطبوعات الفرنسي، ومع ثورة البعث صدر فرمان عام 1963 وألغى قانون المطبوعات وصادرها، والتزمت سوريا الإعلام الحكومي إلى أن عملنا في 2001 على تعديل القانون القديم واستحداث قطاع خاص في الإعلام، وعملت بموجب قانون المنطقة الحرّة، فمثلاً جريدة الوطن، تلفزيون الدنيا، وسواهما من المؤسسات الإعلامية... تلك تصدر من مناطق حرّة تعفى من العمل وفق الشروط القديمة.

يختم أمين عند السؤال عن التحدي الأكبر: «الهاجس ألا يتم اعتماد القانون كما أصدرته اللجنة، وأن تتم تعديلات تنسف المبدأين الأساسيين في القانون: الحرية والمسؤولية».

من جانبه، لصاحب الرأي المختلف دوماً عبد السلام هيكل انتقاده الخاص، «إذا أردت انتقاد اللجنة يمكن أن أقول إنه كان بإمكاننا اختصار الوقت وأن تجري الأمور بطريقة أخرى، أي بتحديد المبادئ العامة: حرية الصحافي وحرية النشر، ثم ترك الأمور للقانونيين لصياغة الموضوع. ما لدينا اليوم نتيجة لعمل شهر ونصف الشهر، كان بإمكانه أن يأخذ أسبوعين. قانون الأحزاب الذي هو مسألة أعقد، أنجز بأسبوع... فبسبب كثرة النقاشات في لجنة الإعلام، تحوّلت إلى مؤتمر حوار حول الإعلام.. إلا أن العلنية والشفافية أدتا إلى بناء مصداقية معيّنة ومؤشر على أشياء أخرى. أهم ما أنجزته اللجنة هو إيمانها بأنها تصوغ قانون إعلام للمستقبل في جمهورية جديدة.

Twitter: @ketab_n

على الأرض المعركة!

مهما كانت فحوى القانون ومهما بدت ثمار اللجان منطقية وجيدة، فثمة من يصعّد خطابه ليوازي الشارع ويوازنه. ذلك قال في اليوم الأول، أطلقوا حرياتنا الإعلامية، ولمّا يستجب له النظام بعد. على سبيل المثال، في نقاش لاحق مع المعارض لؤي حسين، رفض حتى الاطّلاع أو البحث في القانون أو نصّه أو متابعة ما يحصل في اللجان. «بقول واضح، لن نقبل بأي قانون يصدر عن السلطة الآنية وسنغيّر كتابة كل قوانيننا لاحقاً بما تمليه علينا إراداتنا الحرّة». هذا رأي رافض، وغيره كثر. منهم من يعارض أن الإعلاميين يأخذون دور التشريع والقانونيين يأخذون دوراً استشارياً، عوضاً عن أن تكون الأدوار مقلوبة. هناك من لا يكفيهم إصدار قانون. في مكتبه في «تشرين»، ثمة شخص ما يقول: آمل أن يتحقق القانون، فمتى كان الأمن يتبّع القوانين؟ ومن سيردعه عنّي؟

لهؤلاء الصحافيين الشباب الذين ينتظرون فك الحصار عن الكلام، وعليهم المسؤولية، فلن تأتي الحرية الإعلامية بين ليلة وضحاها، وما دام الأمن في الشوارع، وريثما يحري «الحوار الوطني»، لا يزال السؤال الصباحي الأبرز في دمشق: «هل دخلت الجريدة؟».

Twitter: @ketab_n

زيارة السفراء وخصوصية حماه ولبننة سوريا

حين بدأت الأزمة السورية السياسية، أصبح للبنان رمزية خاصة على الألسنة وفي التصاريح والشاشات. لبنان في السياسة السورية، هو تلك الخاصرة الخاضعة لانتهاكات الخارج. لبنان هو المحاصصة الطائفية السافرة والخطاب التحريضي والفتنة... والسفارات المتآمرة! السفير الأميركي روبرت فورد في حماه، فهل بدأت «لبننة سوريا»؟

في «لبنان المخاوف»، يستطيع السفير الأميركي أن يزور أي منطقة وأي زعيم يريد، ويصرّح ويطلق توجيهات دولته. في «لبنان المخاوف» الرأي العام يهادن التدخّل بينما تتعامل بعض الجهات السياسية مع الخارج بعلانية وقحة إلى حد الاستقواء بأميركا.

هنا في دمشق، السياسة فتحت عهدها الجديد، المعارضة تجتمع وتصرّح، الخارج يبدي رأيه، التغيير الدستوري في طريقه... سوريا مقبلة على جمهورية جديدة. على باب هذه الجمهورية الجديدة في ساحة التظاهر الأكبر. قرع السفير الأميركي جرس الإنذار الأول، حمل نفسه وزميله الفرنسي إريك شوفالييه إلى حماه...

صبيحة رحلة انتهاك السيادة تلك، تباينت المواقف. لؤي حسين، باسم معارضة سميراميس «المستقلّة»، غازل في السياسة ولم يندّد. بدوره، «المعارض المستقل» ميشال كيلو اعتبر أن النظام يحمّل زيارة السفراء أكثر من حجمها. حسن عبد العظيم متكلّماً باسم الأحزاب

Twitter: @ketab_n

المعارضة حافظ على النفس الرافض في مخاطبة التدخّل الخارجي، أما النظام، فأخذها ذريعة أخرى، وقوة مضافة لمحاربة من يريد إسقاطه: «أرأيتم التدخّل سافر... المؤامرة... التواطؤ...».

في السياسة، ماذا فعلت زيارة الأميركي؟

الحموي الذي لا يحق لأحد سواه أن يتكلّم عن حماه ومنها، رفع لافتة في مدينته تقول: «الحرية تبدأ في حماه وتنتهي بتحرير فلسطين»...

كيلو ولؤي حسين: معارضة غير ممانِعة

منذ أن سطع نجم لؤي حسين في مؤتمر «سميراميس» للمعارضين المستقلّين، سادت دمشق همسات متنوعة وإشاعات، إما عن علاقته بالنظام وإما عن علاقته بالخارج. الأستاذ الجامعي لم يكتفِ باعتبارها علاقة بل بوضوح قال: لؤي حسين هاتف بثينة شعبان فقالت له إنها مشغولة، ثم اتصل السفير الأميركي بها مستنكراً وطالبها بلقاء حسين.

تلك شائعات، ومثلها شائعات كثيرة وتخوين كثير يطال كل من يقول لا للنظام السوري. لكن وائل السوّاح، موظف في السفارة الأميركية علناً... وصديق لؤي حسين علناً. ربما هذا سبب من أسباب الشائعات. وبالأمس في مكتبه الصغير في شارع العابد، سألت لؤي حسين «من هو أهم مسؤول زارك في هذا المكتب المتواضع؟»، فأجاب سريعاً: «سفراء»...

تعليقاً على زيارة السفير الأميركي وخليله الفرنسي إلى حماه، يرفض لؤي أن يقدم جواباً واضحاً سريعاً بالتنديد أو الترحيب، ويسلّم موقفه نصّاً على ورقة تقول: «كان من الأجدى لو ذهب إلى حماه عدد أكبر من

Twitter: @ketab_n

السفراء، وليكن بينهم أكثر من سفير عربي، ليشهدوا على أن تظاهراتنا سلمية وأنها تظاهرات سياسية وليست أعمال شغب. طالبنا دوماً بأن يتاح للصحافيين تغطية ساحات الاحتجاج، وبوجود مراقبين حياديين لمراقبة ما يجري على الأرض لتأكيد قولنا بأن ما تشهده ساحاتنا هو تظاهرات شعبية، ولتفنيد ادعاءات السلطة بأننا مجموعات شغب قليلة. لكن ربما رغبة الأميركيين والفرنسيين في إبراز دورهم أدت إلى محاولة النظام، كعادته، اتهام انتفاضتنا بالتآمر. وهذا كلام منافٍ للحقيقة والمنطق، فأهلنا في حماه لن يستجيبوا إطلاقاً لأي دعوة من الولايات المتحدة»... يفسّر لؤي موقفه: «يهمّني من كل هذه الزيارة أنها وفّرت شهوداً مهمّين على سلمية التظاهر في حماه».

وفي اتصال هاتفي، بصم ميشال كيلو على موقف لؤي حسين مضيفاً: «النظام يحمّل الموضوع أكبر من حجمه، فهذان السفيران ذهبا إما بصلاحية وإما بموافقة، وإما هم زاروا تلك المناطق في السابق من دون أن يستنكر أحد». لا رفض مباشراً في حديثه، إلا أن كيلو يختم: لا نحن ولا الحمويون نريد أن يتدخّل أحد في شؤوننا.

رلى ركبي التي سبق لها أن شاركت في تظاهرات حماه، بدورها بَصَمَت على حديث ميشال كيلو. ابنة البيت الحموي التاريخي علمانية، لا نقاب فوق رأسها، تدخّن سيجارها الثائر وتقول: نحن لا نريد دعماً خارجياً. نريد من الخارج أن يتوقّف عن دعم النظام وربما الزيارة تريهم أرض الواقع.

Twitter: @ketab_n

حسن عبد العظيم والأحزاب في حماه: ممانَعة ممانِعة

في حماه حيث إرث السياسة لا يمكن لأحد أن يصبغ الحراك صبغة إخوانية. رغم جرح الثمانينيات الذي لم يغب من ذاكرة الحقد الحموي على النظام، لا أرض للإخوان المسلمين كتنظيم. المستشفى اسمه أكرم الحوراني، والاشتراكيون العرب موجودون على الأرض. لهم حقوق مغيبة وأرض مسلوبة ومعارضة تاريخيةمع النظام. هؤلاء لن يقبلوا بالسفير الأميركي.

القوميون السوريون رغم سقوط تنظيمهم، لا يزالون في بيوتهم في جميع الأحياء الحموية... في ليلة ذكرى استشهاد قائدهم أنطون سعادة، هؤلاء لن يقبلوا بالسفير الأميركي. الشيوعيون واليساريون، على أنواعم وتفرّعاتهم المعارضة والموالية يقرأون الصحف ويتغلغلون في المجتمع المتشدد الحموي فنّاً وعلماً ويوميات، هؤلاء لن يقبلوا بالسفير الأميركي... الناصريون رغم ترهّل أحزابهم وغبار السنين فوق هيكلياتهم، لا يزالون يعلقون صورة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في بيوتهم، هؤلاء لن يقبلوا بالسفير الأميركي... لذلك فلا خوف على حماه.

حتى الآن، قيل إن أحداً من الحمويين لم يسمعه كلمة تعجب خاطره. السفير التقى الناس. بعضهم رفع لافتة تقول له إنهم لم ينسوا فلسطين... وبعضهم الآخر أجاب بوقاحة: «روح ساعد النظام، ما تجي تساعدنا».

ويفيد أحد الناشطين الصامتين في حماه أن السفير الفرنسي زار المدينة ثلاث أو أربع مرّات من قبل... لكن لا أحد يعوّل عليه، لأن الحمويين ليسوا نعاجاً.

Twitter: @ketab_n

بدوره، الاشتراكي العربي الأول في سوريا اليوم، قائد ما بقي من أحزاب معارضة بعد عقود الطمس والسجن، حسن عبد العظيم لا يزال يصرّح، لا بل يقاوم هجمة إعلامية عليه. المعارض السياسي الأبرز على أرض التظاهر يعزف على حماه من دمشق. في اتصال هاتفي صرّح باسم المعارضة: زيارة السفراء هي نوع من الضغط... دفع للنظام باتجاه حل سياسي. فهناك شعور بأن أميركا والغرب لا يعطون مواقف حاسمة. لكننا أعلنّا من قبل: نحن ضد التدخل الخارجي ولا نعوّل عليه كثيراً، نعوّل على أن الشعب السوري مصمّم على التغيير. هؤلاء السفراء يتصرفون وفق مشاريعهم. مواقفهم ترتبط بمصالحهم الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.

في السياسة: مدينة نهر العاصي

في السياسة وحديث السياسة، اختلفت تقديرات العقول المعارضة والموالية، اللمّاعة والصامتة، لزيارة السفراء إلى حماه. حماه هي نموذج ثورة الريف السوري. وفي زيارة سابقة إلى مناطق الشمال، كان البعض في حمص يرمي رائحة طائفية الخطر المذهبي، والبعض في جسر الشغور يحمل سلاح «الجهاد» ضد النظام هذه المرة، حلب كانت صامتة لأسبابها الخاصة الكثيرة، وبانياس كانت مقسومة «شرقية وغربية»... لكن حماه مختلفة!

حماه، ليست تظاهرات عشرات المندسين في جامع ما من فائض الجوامع التي أثمرها عهد البعث، وليست امتداداً للمشروع السني المسلّح من شمال لبنان، وليست امتداداً لمصالح الأتراك من جنوب

Twitter: @ketab_n

تركيا.. حماه هي الذاكرة والجرح، وهي المدينة الكبرى التي ليس فيها أحد معجب بالنظام. إذا كان حديث المعارضة في مقاهي اللاذقية يعرّض صاحبه لاضطهاد الأكثرية الموالية، فحديث الموالاة في مقهى حماه ومكاتبها هو الذي سيعرّض صاحبه للاضطهاد. في حماه، حين نزلت مسيرة تأييد، كسّر الأهالي سياراتها. في حماه، حين تنزل تظاهرة لإسقاط النظام، تنزل الآلاف المؤلّفة. ينظّم الأكل والمياه، يفرز الشارع قيادة تنظّمه وتحميه... في حماه، انتفاضة حقيقية يعرفها النظام جيّداً ويدرك طبيعتها... وعلى حماه، وصمة الإخوان المسلمين واغتيالاتهم... لذلك، لا الشارع حمل سلاحه القديم، ولا النظام اعتمد قسوته المعهودة معها. في اللحظة العاطفية الكبرى، قد توضع حماه في أي إطار سياسي، فلا حزب معارضاً أساسياً بعد عليها. الخيار عند النظام. إذا أرادوا تسمية حماه «حزب نهر العاصي» أو «حزب الإخوان المسلمين»، ذاك رهن بذكاء اللاعب والأوراق. حماه هي الساحة.

اليوم، يزورها السفير، فيرى محلل سياسي «من بطن النظام السوري»، أن في ذلك إفادة كبيرة: قدّم بزيارته خدمة كبيرة للنظام وكشف عن دور أميركي ما وبالتالي غذّى وضعنا هذا الجزء في سياق الأحداث حيث سنرى أن النظام يستفيد من أخطاء خصومه:

جسر الشغور وسلاحه كرّس صورة «مجرمين قتلة»، وهذه ورقة في يد النظام.

التدخل التركي شد عصب الوطنية السورية، وهذه ورقة في يد النظام.

العرعور كرّس صورة «إسلاميين ظلاميين»، وهذه ورقة في يد النظام.

Twitter: @ketab_n

واليوم، السفير الأميركي كرّس التدخّل الخارجي، وهذه ورقة مضافة في يد النظام.

لهذا السبب، قوة النظام السوري في أخطاء خصومه، وضعفه في أخطاء فريقه.

عشية مؤتمر الحوار الوطني الأول، الذي لن تحضره المعارضة... ذلك كان الحديث السياسي، السفير وزيارته إلى أرض المشكلة. هناك من مانع وهناك من رحّب وهناك من غازل وهناك من رفض... دمشق لا تعرف معالم حلّها بعد، كل ما تعرف أنها باتجاه مرحلة تغيير حزب البعث بالشكل الذي هو عليه... يحكى عن بعث «البعث» من جديد بحلّة مختلفة، يحكى عن تعيينات جديدة في القصر بدءاً من موقع المستشارة السياسية والإعلامية في الرئاسة السورية بثينة شعبان، يحكى عن تغيير ما.

وتحت صور ذلك التغيير، ما بين صورة تونس ومصر وليبيا واليمن، هناك سفير غربي يتدخّل في ما لا يعنيه. بعين بيروتية في دمشق، الخوف ليس من مشهد ليبي في حماه، الخوف من مشهد سياسي على الطريقة اللبنانية.

Twitter: @ketab_n

ارتفاع السقف بغياب الأعمدة
مؤتمر الحوار في صحارى

لم يعد هناك من جديد في المشهد السوري، لا الحوار ولا طاولاته تضيف شيئاً إلى اللغة السياسية السائدة: الحل الأمني خاطئ، البطل كسر الخوف، لكنه ليس طاهراً بالكامل، المؤامرة ليست هاجساً فقط، السلطة تغرق في الأخطاء، المعارضة خالية من البرامج. شارع الاحتجاج أكبر من أن يتسع في إطار أحد. السقف في ارتفاع، والأعمدة غائبة.

الخطاب يكاد يصبح واحداً، والاختلاف هو في موقع المنبر والوجوه... اللعب السياسي في أشدّ مواسمه والأقنعة وفيرة، ولا قائد أو بطل من أرض الغضب. ولا ملامح واضحة لآلية التغيير. التلفزيون السوري عرض «مطالبة بتفكيك النظام الأمني» على مسامع المواطن من جلسة الحوار أمس... إذاً دخلنا في مرحلة اللعب بالخطوط الحمراء.

الخطوط الحمراء

حين تتبادل «دكاكين النظام» التهم، نكون في مرحلة الخطوط الحمراء. حين يدور حديث الكواليس عن أسماء «المبعَدين» من النظام... حين تصبح مناصب النفوذ المتعددة كالدوائر الصغيرة... كديكتاتوريات صغرى تخاف من العاصفة... حين تصبح «الدبلوماسية الخبيثة» خطاباً من الداخل معارضة وموالاة... حين يبدأ صراع انفصام

Twitter: @ketab_n

الشخصية في العلن... حين يرتدي الفاسد قناع «الإصلاحي»... حي نيلبس «العسكري» حلّة «الفيلسوف»... حين تصبح اللعبة مرتكزة على الأقنعة، نكون تجاوزنا الخطوط الحمراء، أصبحنا نلعب في المنطقة الحمراء.

تغيّرت سوريا في آذار. بعد أربعة أشهر تكاد تلتاع حريقاً.. شهوة.. صراخاً.. نشوةً، ولا يزال ناظرها يفتّش عن إطار وبراغماتية وتذاكٍ في الحلول والتفاصيل. يصنع أبطالاً في الإعلام والاعتقال والسياسة، يصنع من «الأدوات» نجوماً قبل أن يعترف بنجومية الشعب السوري الصارخ. هي تغيّرت، وهو لا يزال في مرحلة تأطير تغييرها قبل إدراكه.

في موسم السياسة السورية الكل يكيل الانتقادات نفسها، والكل يجلس مع السلطة. البعض يجلس معها في قاعاتها الكبيرة وحول موائدها المستديرة، والبعض الآخر يحرّم هذه القاعات ويجلس معها على الطاولات المنفردة الصغيرة. المعارضون السياسيون جميعهم، باستثناء القلة، يعيشون «نشوة» أحلامهم السياسية فوق أزهار الربيع العربي، تصريحات ومواقف وآراء واتصالات هاتفية...

وتحت كل هذا المشهد، ثمة «خدمة» دبلوماسية حصلت في حماه... وثمة تغيير حصل: للمرة الأولى منذ سنوات يأتي النظام لحماه بمحافظ حموي. «أنس عبد الرزاق ناعم» كان قد عيّن أميناً عاماً لفرع حزب البعث في حماه منذ شهر ونصف الشهر. اليوم، نقيب الأطباء السابق أصبح محافظاً، ويُحكى عن رواجه «شعبياً»... تعليقاً على التعيين الجديد يقول الحموي: كأنهم يقولون لنا «حلّوها بين بعضكم يا حمويّي"! حمويّ نعم، لكنه بعثي. بعثي نعم، ولكن محبوب. ومن يدري، امتحانه

Twitter: @ketab_n

الأول لن يتأخر، ففي كل أسبوع هناك يوم جمعة.

وفي كل يوم جمعة هناك بطل ومندسّ ومجرم وفاسد وثائر وطائفي وعلماني وعميل وخائن ووطني ومثقف وجاهل ومتشدد ومنفتح وانتهازي وصادق ومؤمن ومنافق في ساحة حماه، وفي كل سوريا. في كل جمعة هناك أرض، وفي كل حوار وتصريح هناك تصعيد... لكن أياً من المصرّحين لم يطرح بعد ملامح الغد.

متابعة الحوار من الخارج مع المعارضين

رغم أن اللقاء التشاوري الأول للحوار الوطني بضيافة النظام خلا من وجوه المعارضة «النجومية»، حمل الخطاب بكليّته لغتها. في منزله بينما يتناول قهوته مع رئيس تحرير صحيفة «لوموند» الفرنسية آلان غريش، كان ميشال كيلو حائراً بجهاز التحكم بالتلفاز. يرى الطيب تيزيني، فيرفع الصوت. تنتهي مداخلة تيزيني، فيهزّ رأسه موافقاً. يرى ذاك الناطق الفصيح الخطيب باسم الشباب «يعلك»، فيخفض الصوت معلّقاً «ما الجديد في أننا سوريون؟». يلمح قدري جميل وعلي حيدر، فيسمع موافقاً... لا بد من الخلاص من الحل الأمني: «طلع الشعر على لساننا». يتابع نقاش ربيع التغيير العربي مع الصحافي الفرنسي على ضفاف «حوار وطني ينقل كل مطالبه بوجوه مختلفة».

فلعلّ أبرز ما حدث، سياسياً، ولادة «جبهة شعبية للتغيير والتحرير» بين الشيوعي المنشق قدري جميل والسوري القومي الاجتماعي المنشق علي حيدر بخطاب معارض واعٍ.

فبعد مداخلة حيدر اقتنص جميل الفرصة الإعلامية لإعلان هذه

Twitter: @ketab_n

الجبهة بين الحزبين مضيفاً بذلك شرعية لفرع الحزب المنشق. فانتفض مسؤول الفرع في الحزب القومي في الجبهة صفوان سلمان، حيث قصد سلمان (الدكتورة بثينة) شعبان معاتباً: عملياً، أعطى فرع الحزب المعارض مع علي حيدر، شرعية تفوق شرعية فرعه الجبهاوي مع صفوان سلمان ممثلاً عصام المحايري التسعيني. فجأة هوى حزب وصعد آخر أمام الإعلام. هكذا الجبهة وعقليتها الخائفة على الدور والحصة بينما تنزف سوريا.

بالعودة من فروع الأحزاب إلى فروع المعارضة. لو قبل ميشال كيلو الدعوة، لكان نجم الحوار ربما، لكنه جلس مستمعاً في منزله. وفي الخلاصة قال معلّقاً: «ما قيل في المؤتمر ليس لغة حل وسط بل هو فعلياً لغة المعارضة بأشكال مختلفة. كان واضحاً في المؤتمر أثر ومعنى غياب المعارضة عندهم. أنا أعتقد أن المشكلة الفعلية، أن المعارضة لم تكن هناك. حكى لغتنا وأفكارنا... غيابنا كان ظاهراً. لكن الواضح أن مطلب التغيير الديموقراطي أصبح مطلب الجميع، ولا يمكن القفز من فوقه».

أما سلامة كيلة، الموقّع على «سميراميس 1» في المعارضة المستقلة، فيدير ظهره لشاشة الإخبارية السورية في مقهى الشعلان إذ يتابع نظريته الاقتصادية السياسية: «الأميركان تخوّفوا من انحراف النظام في حل عسكري على حماه، حاولوا إيصال رسائلهم للنظام لا للشارع: لا تتهوّر. التنسيقية في حماه أخرجت بياناً يؤكد أنها ضد التدخل الخارجي».

الزيارة رغم ترحيب الأهالي هنا أو هناك، وتهليلهم لفرنسا أحياناً

Twitter: @ketab_n

في بعض الأحياء، هي «استثارة لتشويه الوضع» برأي كيلة. ويضيف: الحراك يتطوّر، السلطة تحمل أزمات، إحداها اقتصادية، بدأت تظهر بوضوح. القوة العسكرية لن تبقى بهذه الفعالية. إنها مرحلة تغيّر ميزان القوى. لا يستبعد كيلة أن يبدأ ظهور شخصيات تغيّر مواقفها. لا شيء يكبح هذا سوى عنصر مفاجئ ما. طبقة التغيير الذي طرأ على سوريا أثمرت «رؤوس الأموال الجدد» راكموا أموالهم، وأصبح الجهاز الأمني يجيّر مصالحهم. الفساد المستشري في السلطة ودكاكينها من يزيله؟ الحل الوحيد خارج الحوارات واللجان والتمييع السياسي للتغيير: الحل الوحيد بالقرار الرئاسي. فليأتِ برئيس حكومة تكنوقراط ويقل له: تفضّل نظّف البلد.

مساء الجمعة، جلس لؤي حسين وفايز سارة إلى يسار الطاولة، وحسان سلّوم ورامي عمران على يمينها. معارضتان، واحدة تحاور النظام في العلن، وواحدة تحاور النظام بالهواتف والتصعيد والتصريح فوق الشارع. حين احتدم النقاش عن حماه، رد حسان سلوم على فايز سارة «أنا معارض قبلك». هكذا هو شعورهم، أولئك الذين ولد وعيهم السياسي بالمطالبة بدولة مدنية وضعت لها أسس وهوية وعقيدة.

رامي عمران، الذي خرج من حزبه السوري القومي الاجتماعي حين دخل إلى الجبهة خلف البعثيين، له قوة ما في النظام نواتها عمله في الشأن العام. فهذه القوة وضعت اسمه على لائحتي فاروق الشرع وبثينة شعبان للحضور إلى الحوار. في مكتبه، وخلف حاسوبه، رامي قاد حملة «أنا سوري» الإعلانية.. منذ اللحظة الأولى هو المختلف عن حزبه وعن النظام وعن المعارضة. انتهت السهرة بأن رامي حسم بالحديث

Twitter: @ketab_n

مع لؤي: «أنا أرى أن الذهاب إلى الحوار سيوصل رأيي وإن اختلف، يختلف هناك» فيرد لؤي حسين: «أنا أعضّ على أصابع النظام ليأتي هو إلى طاولتي».

ذهب رامي إلى الطاولة في فندق صحارى. جلس واستمع إلى خطاب أعجبه، وغاب المضمون والبرنامج، فخرج منتقداً اللمحة الأولى من الحل السياسي.

رامي عمران في طريقه إلى الخارج: لم آتِ بحثاً عن منبر!

خلع رامي سترته الرسمية ظهر الأحد، وعاد إلى مكتبه بعد الاستراحة الأولى من الحوار في فندق صحارى. لم يكمل جلسة اليوم الأول. لكنّه لم يحدث «انسحاباً دراماياً».

في مكتبه العصري في المنطقة الحرة يعقّب رامي على انسحابه «الصامت» بالقول «في هذا الزمن حيث تزداد وتيرة الأزمة خنقاً على عنق الوطن... كان على اللقاء التشاوري أن يخلص أولاً بمهمته الوظيفية بالتحضير لمؤتمر حوار وطني».

يوافق عمران على ما قاله ميشال كيلو إن بعض النقاط التي قيلت في الجلسة الافتتاحية كانت مهمة وصارمة، لكنه يضيف إنها كلمات كان من الممكن تشاركها وتداولها مع الرأي العام قبل المؤتمر، عبر فتح أي منبر صحافي في سوريا لكل الآراء مهما تنوّعت ومهما ارتفع سقفها. وبالتالي لا يكون اللقاء التشاوري المعني بالتحضير لمؤتمر حواري منبراً لإعلان المواقف، على أهميتها.

«أثبت اللقاء التشاوري في جلسته الافتتاحية أن معظم أسباب

Twitter: @ketab_n

الخلاف في الرأي السياسي السوري تعود إلى المنابر واللافتات، لا إلى المحتوى والمضمون. حيث تصنّف المعارضة والموالاة على قياس المكان، لا على قياس الرأي».

في «صحارى» قيل ما يشابه ويزيد عمّا قيل في «سميراميس» وفي بيان الأحزاب المعارضة، فهل ينتقل الرأي السياسي السوري باتجاه البناء على الرؤى بدلاً من احتكار المنابر؟

أعفى اللقاء التشاوري نفسه من المهمة الأساسية التي كان عليه أن يناقشها ويسدّدها، حيث إن الغرض الوظيفي من اللقاء التشاوري هو تحديد ماهية مؤتمر الحوار الوطني وماهية الهيئة التأسيسية المالكة لأدائه وإيقاعه وتفاصيله، فهل ستكون ملكاً لأصحاب الدعوة أم تكون كما يجب عليها، ملكاً للمجتمع السوري بكامله، عبر هيئة تجمع فيها كل أطيافه السياسية التي تمتلك مساحة ندية من قرارها؟ هل سيكون مؤتمر الحوار الوطني استشاري الطبيعة أم تقريري الوظيفة. هذا ما يدعو إلى السؤال الأساس، هل يذهب النظام السوري حقاً إلى شراكة مع الأطياف السياسية السورية كافة لإنتاج شكل الدولة الجديد أم هي شراكة يحتفظ فيها لنفسه بحق النقد.

إذا كان غرض مؤتمر الحوار الوطني، الاتفاق على شكل الدولة السورية المدنية التعددية الحديثة، فكيف يناقش اللقاء مجموع القوانين التفصيلية المؤدية لبناء هذه الدولة قبل أن يتفق على شكلها في مؤتمر وطني شامل.

إن معظم القوى السياسية في سوريا تشترك في شعاراتها ومواقفها تجاه الدولة المدنية الديموقراطية الحديثة التعددية، وتنأى بنفسها عن

Twitter: @ketab_n

التفاصيل المؤدية إلى هذه الدولة.

لا أجد قيمة في أن أضيف خطاباً أو موقفاً إلى الخطابات والمواقف التي قيلت، لا سيما أنه في العناوين العامة نلتقي مع مجمل الآراء داخل اللقاء وخارجه. لكن إذا لم يتم التدارك السريع لمنهج إيجاد خطة عمل لتحقيق هذه الشعارات، يمكن الاتفاق على أن يكون الشعار لغماً مؤجلاً يختبئ في التفاصيل.

وتحت الحوار وفوقه وقبله وبعده... أجمل ما في شوارع دمشق ومقاهيها اليوم، أن كل شيء، بما فيه الطاولة، عرضة للبحث فوق الطاولات.. والأقنعة تهوي سريعاً... وكذلك الأحزاب. وربما تعطى الحرية السريعة للشارع أن يفرز نفسه تيارات وأحزاباً جديدة، يبقى الحلم السياسي السوري بسقفه العالي من دون أعمدة... كبالون الهواء.

Twitter: @ketab_n

حماه

للحرية غضبها ومواجعها

منذ شهر، حضنتنا حماه، بتعاضدها الاجتماعي حول جراحها. كانت التظاهرات السلمية في أوجها، وكانت المطالب المحقة تقرع الحق في كل النفوس. لم يكن باستطاعة الزائر ألا يعود مغرماً بهذه النهضة الحموية.

أمس، بعد جولة ست ساعات في المدينة، كانت طريق العودة ترسمها الدموع والقلق: حماه تحت حصار أهلها... نوافذ البيوت مقفلة... مئات العائلات فرّت خوفاً من المجهول الآتي. السواطير تلف المدينة... وهذه ليست أي مدينة. هذه حماه، وجراح حماه وذاكرة إبادة جماعية. هذه حماه وآلاف حماه وزيارة حماه الدبلوماسية. هذه حماه التي تتذرّع بتاريخها... لتعزف لحناً خاصاً من دون قيود.. كانت في عقاب منذ 30 عاماً، وخرجت من العقاب بفائض حقد يكفي لإشعال ثورة، ويدوس على بوصلتها.

في البيت الذي كان يدافع بغضب عن الثورة الحموية منذ شهر، ثمة شاب لا يريد أن يترك أهله وحدهم. لم يعد يعلم ممن يخاف على من.. يرى الحرية التي انتفضمعها، تشوّه حياته ومدينته ومستقبله وعمله، ولا يستطيع ان يدعو للقوة او لقمعهم، فهو يفهم جراحهم... «الوضع سيئ... الوضع سيئ جداً، وقد خرجوا عن السيطرة».

Twitter: @ketab_n

في بيوت أخرى، أقفلت الأبواب ولجأت العائلات إلى تخوم المدينة أو المحافظات القريبة. ولم يقتصر النزوح على «الأقليات الطائفية»، بل إن أهل حارة «الشريعة» و«غرب المشتل» أغلقوا النوافذ الحديد والخشب وخرجوا من المدينة هم أيضاً. فلم يعد مسموحاً أن تفتح المتاجر، ولم يعد مسموحاً أن تتجول، ولم يعد مسموحاً أن تقصد المقهى، ولم يعد مسموحاً أن تعيش... حماه تمارس هوايتها الجديدة وتلبس ثوب «قندهار» سوريا، كما يردد البعض لوصف بعض أحيائها، وتحيّي السفير الأميركي وتلف عنقه بالزهور.

بعد قيام الجهاز الأمني باعتقالات في المدينة، نزلوا وأغلقوا الطرق لمنع الأمن من الدخول. «عصيان مدني» في عرض الطرق، جميعها. يقولون إنهم لن يخرجوا قبل إطلاق سراح هؤلاء، لكنهم لم يقولوا أسماءهم أو أعدادهم. اللجان الشعبية تستمتع بالسلطة الجديدةالمكتسبة وتتعرّف إلى لباسها الجديد: «شبيحة ضد النظام». وفي هذا الوقت، تتصاعد علامات الاستفهام الحموية: لا أحد يفهم ما الذي يجري...

من سيارة حموية إلى أخرى، هنا رحلة الساعات الست في مدينة الغضب المحرر.

حامل الساطور الصغير

تحت إبطه ساطور أضخم من زنده. ينظر من فوق لحية سوداء من دون شاربين إلى لائحة بأرق امالسيارات المسموحة... يتفقّد السيارة، فيطلق المراهق سراح الأسرة الحموية في طريقها نزوحاً إلى السلمية. هذا حاجز من أصل الحواجز الكثيرة. أحجار وحديد وسواتر وسكاكين وسيارات

Twitter: @ketab_n

محترقة في كل الشوارع... من أول المدينة وصولاً إلى حي الجراجمة، لا تكاد تستطيع السيارة أن تعبر في خط مستقيم واحد. كأنها ميدان لعبة جديدة مفادها: حصار أهل حماه المفروض بالقوة والترهيب على حماه.

هناك أكثر من مئة حاجز في كل أنحاء المدينة، وعشرات الشبان والرجال يتكوّمون حول السيارات والأفراد لتفقّد الهويات. سلاح أبيض، لكنه سلاح، وتحت ذراع شاب لم يبلغ العشرين من العمر، عصيّ في أيادي الأطفال والمراهقين. الأكبر سناً يجلسون على كنباتهم أو يفترشون الأرصفة... بينما ينهمك الشبان في مهمتهم الجديدة: لعب دور الأمن السوري البشع، وهذه المرّة بلحى طويلة ومن دون صفة رسمية ولكن بتهذيب.

وصولاً إلى الجراجمة، يفرض «العراعرة» البسّامون حاجزاً مغلقاً قرب بيت شيخ الفتنة الذي يحاضر في الثورة من منفاه السعودي «عد أدراجك» مع ضحكة حموية بسيطة...

نعود صعوداً في أحد الأحياء البائسة في الجراجمة. ولد صغير في خلاء الشارع يلعب تحت حرّ الظهر بالمياه. يهددنا «بالرش» ممازحاً. تقترب منه السيارة، فيرفع إبهامه من يمناه على شكل مسدس ويصرخ ضاحكاً «حرية».

بعد لعبة «الحرية» نصل إلى مفرق أسود بآثار العصيان المدني المستمر منذ الاثنين الماضي. هنا الطريق ليس مسدوداً بالرجال أو الحجارة، بل عملت «اللجان الشعبية» على غرز رؤوس الحديد في الطريق لإتلاف أي سيارة تحاول المرور. شتائم لآل الأسد وحزب البعث طبعت على

Twitter: @ketab_n

كل الحواجز. العلم السوري يظهر هنا أو هناك... واللحى الطويلة تلبس «جلابياتها» وتفترش الطريق... حواجز «سوداء» عند كل المفارق... وتفقّد مستمر لبطاقة الهوية الحموية. يمازح السائق «لو قلنا له معنا السفير الأميركي، لما أوقفنا».

«كوماندوس» للقاء شباب التنسيقية

هنا، الخوف بالمقلوب. إن كنت صحافياً في دمشق، فستكوّن ملاحظاتك على النظام وسيعيش في رأسك رجل استخبارات صغير. ستخاف من أي كلمة تكتبها في انتقاده. أما في حماه، فستخاف من أي ردة فعل ثأرية إذا انتقدت الثورة. وسيكون رجل الاستخبارات الصغير في رأس «التنسيقية»، سيقول لك «هذه ليست للنشر»، «وهذه ستكشف لهم من أنا»... سيعطيك اسماً «وهمياً».. وسيكذب كثيراً في تصريحه...

في إحدى سيارات الثورة الحموية، نلتقي بمسؤول الإمدادات في أحد أحياء العصيان الحموي. عند السؤال يفيد أن الإمدادات هي الأكل والشرب والمواد التموينية والطبية... إلخ. وطبعاً لدى السؤال عن مصدر التمويل يقول «معك 200 ليرة، نأخذها، معك مليون نأخذه... وإلخ».

يقول الحاج الأربعيني، الجميل بعينيه الخضراوين وكلماته البسيطة، «لقد ولدت على كره حافظ الأسد، ثم حين أتى ابنه أحببته لأنه مختلف. ما كنا نحلم يكون عنا «موبايل» بسوريا، وسيارات من الوكالة، ومشاريع سكنية... بعدين طلع الموبايل لقرايبينو (أقاربه) مو إلنا، والسيارات مو

Twitter: @ketab_n

إلنا، والشقة مو إلنا... أنا مسجّل عشقة وما طلعلي شقة لأن ما عندي واسطة».

كيف تخرجون من الشارع؟ يجيب الحاج أن مطالب الحمويين هي الإفراج عن المعتقلين وضمانة بعدم اعتقال غيرهم. من هم أولئك المعتقلون؟ هنا يجيب «فليفرجوا عمن لديهم في الأول ثم نتحدث عمن لا يزال لديهم».

كيف يسقط النظام؟ يتخيّل الحاج أن ذلك بتسليم السلطة إلى نائب الرئيس وتشكيل حكومة جديدة... يترجّل قرب بيته.. فنرمي عليه سؤالاً أخيراً بالمزاح «ماذا لو لم يسقط النظام؟»...فيجيب سريعاً بالضحك «بلى سيسقط».

في سيارة حموية أخرى، ننطلق من حيّ «الشريعة» حيث الأغنياء. هنا للحصار شخصية خاصة تليق بسكان الشارع. فلم تغلق بعد أواصر كل المفارق وما زال «العصيان المدني» على المداخل الأساسية. صعوداً إلى إحدى ضواحي المدينة، نصل إلى حيث «اللقاء الأمني المرتقب مع ثلاث من قيادات الثورة الحموية».

حوالى 10 دقائق تفتح للعقل أن يتخيّل أشكالهم. يسأل نفسه المترقب «هل يسلّمون باليد أم هم إسلاميون؟ هل أنظر في عيونهم أم ذلك «حرام»؟ هل «التنسيقية» هي حقاً تملك أن تتكلم باسم الثورة ام هم مجموعة ناشطين على الإنترنت؟ كيف ينشطون ولا إنترنت في كل المحافظة؟ يستمر السؤال في طبخة العقل إلى أن تصل إلى «المكان السري» سيارة التنسيقية بوجوهها الثلاثة. تكاد تضحك من أسئلتك لدى رؤية نموذجهم.

Twitter: @ketab_n

فالتنسيقية الحموية تلك، ثلاثي شبابي يكثر استخدام «الفايسبوك» وما زال يتعلّم الحياة السياسية. أكبرهم يبرّر لهم أخطاءهم الدائمة ويقطّبها «نحن كنا في موت سياسي منذ 30 سنة لذا لا نعتب على الشباب... إذاً ماذا يمثّل هؤلاء الشباب الذين سمّوا أنفسهم أسماءً مستعارة أجملها «سعيد».

يجيب «سعيد» العشريني: نحن في التنسيقية نقوم بدور التشاور مع الكتل والمجموعات التي على الأرض، نصوغ البيان، ونعرضه على الباقين.

والكتل تلك هي مجموعات الحارات الحموية. وهنا يعددها سعيد ويشرح انتماء كل واحدة:

«كتلة أحرار حماه» تشكّلت بداية في حي الجراجمة، «أحرار حماه» و«تجمّع نادي الحرية» و«فجر الثوار الأحرار» للمنطقة الشمالية أي شارع الحاضر وحوله، و«أحرار مدينة حماه» في المنطقة الغربية.

يقر الشباب بأنهم لا يمثلون الشارع، كما يقول أحدهم إن هناك تجمعات كبيرة لا أسماء لها، ولا يمكن لأحد سوى أمراء الشوارع أن يجيّروا الناس إلا أن «مهامنا تنسيقية بحتة، برسم الخطط وإعداد البيانات»...

واحد له خال مقتول في الثمانينيات وواحد له أعمام قتلوا، وواحد قتلوا والد زوجته... الجرح الحموي القديم متفشّ في جميع العائلات... والحقد نفسه حتى في صفوف الشباب الذين ولدوا بعد الأحداث. ماذا تهتفون في التظاهرات؟: «يلعن روحك يا حافظ»، أهذه هي قضيتكم؟ يضحكون!!! لا ولكن الهتاف طيّب. أطيب شيء أن تصعد في التاكسي

Twitter: @ketab_n

وتقول «خذني على التظاهرة».

حين تسأل التنسيقية عن رؤيتها لسقوط النظام، يسرع واحدها للإجابة «سينهار الاقتصاد، ويفقد شرعيته الدولية»، وهكذا. أما العرعور، فيعتبرونه مهماً ويلقبونه «بوق الثورة» إلا أنهم حين رأوا صورته في التظاهرة، منعوها سريعاً: «قلنا له منخلص من صورة منعلّق صورة!».

حين يسألون عن مدى صحة مزاعمهم «الحرة» تحت غيمة العصيان المدني السوداء الذي أخرج ما لا يقل عن مئات العائلات الحموية من المدينة تكون الإجابة... «لن تستمر الأحوال هكذا، الجمعة ستكون تظاهرة كبيرة لنبرهن أننا لم ننزل من أجل السفير أو سواه. والسبت ستبدأ الأسواق بحياتها... وربما تبدأ اللجان الشعبية بتقليص عصيانها إلى الإحياء السكنية».

في حديثهم تقرع الأخطار الاجتماعية على أنواعها: أولها العرعور وثانيها السلفيون الأتراك الجميلون، وثالثها تصنيف الطوائف وفرزها، ورابعها الاستعداد للفوضى. لكنهم شباب بأحلام قيد البناء، ليسوا تركيا وليسوا أميركا وليسوا العرعور. حلمهم بحاجة لأمر من اثنين: إحباط كبير... أو نصر. وإحباط أحلامهم لن يكون سوى لغم مؤقت ينفجر حين تولد أحلام أولادهم.

فيلم حموي طويل

فقط في حماه، تطلب سيارة أجرة، فيأتي السائق بأمه وابنته وابنه الصغير لإمتاعك في الرحلة. انطلقنا باتجاه دمشق، عبوراً بالحواجز

Twitter: @ketab_n

الكثيرة، لنعرّج أولاً إلى «الضاحية» حيث بيت الحاجة الوالدة. تنزل الستينية بنقابها الأسود وولدين صغيرين. السائق، يداوم نصف نهار في «اللجان الشعبية»... والدته محللة سياسية تداوم على تلفزيون «الوصال» دواماً كاملاً، وأولاده: حماسة طفلين جميلين، «آلاء» و«محمد» سيشاهدان الشام للمرة الأولى في حياتهما.

تبدأ الحاجة في «تذاكيها السياسي» بتقييم زيارة السفير الأميركي روبرت فورد: لو لم نستقبله هكذا لكانوا قالوا إن الحمويين قتلة ومجرمون... ثم لولا السفير الأميركي لنزلوا علينا بالدبابات، الله لا يوفقهم... والسفير كريم وجميل و... يستمر الدرس السياسي ثم تبدأ المساءلة الطائفية: من أين من لبنان...

بعد العبور من حماه والرستن قرب آثار تمثالين أزيلا... نصل إلى تلة عالية يقف فوقها تمثال لحافظ الأسد يحيّي القرية من اليسار، فتدل الطفلة بأصابعها لتلفت نظر جدّتها «انظري يا تيتي»، لترد الحاجة «لسه ما شالوه من هون؟ وين هون يا عمر؟ فيرد السائق: دير عطية».

بعد دقائق طويلة من هذا السرد والحوار الملتبس ببساطة الأسرة الحموية المحببة... يعلو صوت «إليسا» تغني: لو ماتجي عنوم عينيي... كيف لهذه الحاجة التي حرصت على تغطية معظم وجهها باستثناء النظارة أن تحلل لنفسها سماع الأغاني بصوت مرتفع، ما هو هذا الإسلام الحموي المنفصم الشخصية. متشدّد ومنفتح في الوقت نفسه.

ننسى تحت الموسيقى وجود بعضنا لبعض، فتنزلق للحديث عن حصص الأكل والتموين التي حصل عليها «عندي 20 كيلو بالثلاجة» يشتكي عمر من فائض باذنجان وبندورة... تسعل الحاجة، لترد بصوت

Twitter: @ketab_n

مرتفع «لو بتشوف الرز عم يبيعونا ياه أغلى 10 ليرات ليه؟» فيرد ابنها «استغلال». السكر.... فيرد الابن «استغلال»... ونعود إلى الدرس السياسي على لسان الحاجة التي زارت دمشق ثلاث مرات طيلة سنوات حياتها الستين. هناك بطل للثورة، تؤكد الحاجة ولكن «في حدا كبير أكيد بس ما منعرفو...» نسأل «هل هو العرعور؟» فترد: أكيد لا، العرعور ما منعرفو ولا بدنا ياه.

«هل ستحررني أنا هذه الحاجة؟» وصولاً إلى دمشق، يثقل انفصام حماه كاهل الزائر... إسلامية لا إسلامية، سلمية لا سلمية، حرية لا حرية، أميركية لا أميركية، يدخل علينا الجيش أم لا يدخل؟

يحكى عن وفد حموي قابل آصف شوكت، وتفيد المصادر المطّلعة عن لقاء جمع مجموعة تجّار بأحد المقربين من الرئيس. يحكى عن دور المحافظ الجديد ومحاولة إفشاله، ويحكى عن تغيير ما بعد يوم الجمعة. وتحت كل ما يقال، ليس في وجه حماه ما يدلّ على قدرة التحاور أو الإقناع... فربما ما زال التحاور في المكان الخطأ. لم يكن في حماه وحواجزها أي ممنوع من رؤوس الدولة و لم توقّر أحداً... لكنها تخاف كثيراً لأنها تشعر للمرة الثانية في التاريخ، بأنها قد تدفع الثمن وحدها. تنظر إلى الشام وحلب، فتشعر بوحدتها أكثر.

هكذا هي حماه اليوم، لا تشبه أحداً سواها في سوريا، وعلى وجهها ملامح «قندهار». بعد قهر عقود ثلاثة، تذوّقت ما يشبه طعم الحرية، وقد تسيء استخدامها. بعد قمع عقود ثلاثة، تذوقت طعم السياسة، وقد تنزلق البوصلة... وبعد جرح العقود الثلاثة مهما فعلوا، لا يستطيع النظام أن يفتح جراح الحمويين من جديد، ولكن إلى متى يستطيع أن

Twitter: @ketab_n

يشاهدها تبتعد وتخرج من القلب؟!

وبينما يستفيق المجهول في عيون الشباب على الحواجز، تستطيع بكلمتين أن تطيّب خاطرهم وتقلب «الغضب» الذي فوق الساطور إلى ابتسامة. الحموي أكثر من صارع الأنظمة في تاريخ سوريا، ولذلك هو أكثر اللاعبين مهارة... ولكنّه لم يربح يوماً.. بل دفع جراحه عن كل سوريا.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

الفراق

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ساعات الأمن الجنائي
تجربة من واقع سوري

أجمل ما أحدثته الانتفاضة العربية في حياة كل واحد منا أنها أدخلتنا في تحدّ مع حقيقتنا. الصراع يدور، الغضب هناك، الشعب يثور. إلى أي مدى نريد أن نقف ونشارك في هذا الحدث؟ من نريد أن نكون؟ على ضفاف المشاركة الصحافية في الانتفاضة السورية، كانت لي تجربتان مع أجهزة الأمن وكذلك وزارة الإعلام. هنا اعتقالي الأول عند الأمن الجنائي.

الساعة الثانية ظهراً من يوم الجمعة 6 أيار في دمشق... كيف لصحافية أن تهدأ؟

صعدت في سيارة صفراء من صبحية مقاهي الشعلان. قلت ببراءة مواطن، لا صحافي، «باب شرقي». ثم حين مشينا، بعد ثانيتين بدأت تتسلل الصحافة إلى السيارة. كنت دائماً أتذكر نصائح الأصدقاء: «ضبّي لسانك بالسيارة، شوفيرية التاكسي مخابرات». كان حظي يومها أن السائق مخبر ومستعد للمغامرة.

علمتني يوميات السيارات الدمشقية الصفراء المزركشة بالألوان والأنوار والأزهار الاصطناعية والصور والقلائد، أنهم بشر من لحم ودم ولسان سوري، وأن بينهم والد شهيد وتلميذ الجامعة وشبيحاً ومندساً...

Twitter: @ketab_n

كان رهاني على نيّة أحمد. فالسائق بطل دمشق من دون منازع. هو، كما هي المدينة، يصادف أن يكون من فلسطين وتأتي طبريا إلى السيارة، ويصادف أن يكون جولانياً، فينبض فيك مقاومة. يصادف أن يكون ابن الميدان أو مصياف أو السويداء. كانت خطيئتي وسذاجتي يومها أنّي رأيت في سائق تلك السيارة الصفراء أخاً ومواطناً وصديقاً وسورياً طيّباً، هو رأى فيّ صيداً يبحث عنه.

«رايقة اليوم مو؟»، فيرد السائق «لا والله ما في شي، بعدني جاي من المعضمية». هناك، استسلم المواطن، واستفاقت الحاسة الصحافية، «يعني فيك تاخدني عالمعضمية، مو؟». وخرجت من المغامرة بجمع شهادة عين وأذن وصور من وضع ريف دمشق بعد ظهر ذلك اليوم: السومرية، المعضمية، داريا، التل، حرستا، دوما، وختاماً عند الميدان، لقاء أربعة آلاف ليرة سورية، أي نحو 80 دولاراً.

في تلك «الجمعة»، استهجنت القدرة الهائلة التي رافقت رحلتنا، فقد مررنا على عشرات الحواجز بين جيش وأمن. ووصلنا إلى ساحة الغضب في عزّها في «التل». كانت تدرّجات الأمن والشبيحة والأهالي والمتظاهرين تفترش الشارع عارية. عصي وهتاف ودواليب مشتعلة وأجهزة. «غضب الأهالي»، كما قالها زياد الرحباني، ولم يتعرّض لنا أحد. ثم مررنا على يسار شاحنات الجيش الكثيرة عند مدخل دوما، ولم يتعرض لنا أحد أيضاً. كانوا يأخذون الهوية، ويعيدونها، ونعبر بإعانة حجج يخترعها أحمد ويكذب على الحواجز. لم يذكر لأحد أن في سيارته عين صحافية.

انتهت الرحلة، وبفضل إمكاناته المتميّزة، اتفقت مع أحمد: «غداً إلى

Twitter: @ketab_n

السويداء؟» وأخذت رقم هاتفه... بعد الجولة، كنا قد تعارفنا، ورأيت صورة ابنه الصغير على هاتفه. توقفنا واشترينا المياه والعصير، ومزحنا وتكلّمنا في كل شيء... ظننتنا أصدقاء، شعرت بأمان، أردت أن أذهب معه إلى السويداء في اليوم التالي، لكنه قرر أن يأخذني إلى الأمن الجنائي.

هاتفت أحمد لكي نذهب إلى السويداء. ما إن ركبت سيارته حتى بان لنا حاجز أمني مفاجئ في قلب العاصمة أمام فندق فور سيزونز. كان هجيناً أن يستوقفنا، ثم سارع أحمد إلى القول «هذه صحافية»، بعدما حجب تلك المعلومة عن كل الحواجز يوم الجمعة. هناك قلت «أكلناها». وفعلاً تبيّن لاحقاً أن الحاجز كان على شرفي وبالتنسيق مع السائق، الذي رفع تقريره مساء الجمعة وكُلّف بجلبي... الضابط الدرعاوي، وجدي، ورجاله كانوا بانتظاري.

دقائق من سؤال وجواب وبطاقات، أخذوا هاتفي وأصبحت في سيارتهم، وانطلقنا إلى باب مصلى، حيث فرع الأمن الجنائي، والتهمة: صحافية. أمسيت في المقعد الوسطي الخلفي، بين أربعة رجال من صمت. صمت يقاطعه هاتف الضابط: «نعم سيدنا، جايين». وهناك بدأ صراع علامات الاستفهام في عقلي، «ماذا سيحدث الآن؟ إلى أين نذهب؟».

وصلت إلى فرع الأمن الجنائي، بمزيج من الحشرية والقلق والغضب والشوق في آن واحد. هذا الفرع يختص بالدعارة والمخدّرات إجمالاً، لكنه في مثل هذه الأيام، يعيش ربيع ازدهار نشاطه لتطهير الشارع من المندسّين، ومنهم الصحافيون... فهو الفرع نفسه الذي احتجز «مثقفي» الميدان قبل أسابيع. وهو الفرع نفسه حيث كان «المندس الحمصي»

Twitter: @ketab_n

معلّقاً بالمقلوب ليصبح لاحقاً بطلاً من أبطال «اعترافات الإرهابيين» على التلفزيون السوري الرسمي.

وجه الأمن الجنائي، الذي يستقبل الصحافة، مختلف. الضابط المكلّف بمجالستي تلميذ دكتوراه في العلوم الاجتماعية. منذ اللحظة الأولى، عوملت باحترام وتفهّم. كان لا بد من أن يراني «المعلّم» كي يقرر مصيري، فانتظرنا. بمزيج من وقاحة وغضب وصمت وحزن، كنت أتعرّف أكثر إلى الضابطين المتناوبين على مجالستي، بينما ينسخان مقالاتي السابقة عن الإنترنت ليراها «سيدنا». المشكلة أن المقال الأخير كان من حمص وعنها...

صعوداً إلى مكتب المعلّم، تتألق الصور العملاقة على مدخل من زجاج أسود. خلف المكتب رجل سمين، يحمل نظارته ويطّلع على مقالاتي من خلفها.. إلى عناوين، آخرها «حمص: في الشارع...».

يطلق حكمه على مسمع ضيف في مكتبه وضابط وأنا: «اصطحبها إلى الفندق وخذ الحاسوب واكشف على الكاميرا وعد، لا ترخيص من وزارة الإعلام ليوضح ماهية عملها ولا المقالات تبيّن أنها مع البلد».

من مكتب العميد، عبوراً بآليات التبجيل للقائد وعشرات الرجال المتوزعين في المبنى وأمامه، ننطلق إلى غرفة الفندق: «علينا أن نجلب الحاسوب ونكشف عليه، بعدما أصبح الهاتف بعهدتنا، والكاميرا لاحقاً». هذه المرة استقللنا حافلة صغيرة. الضابط في المقعد الأمامي على اليمين، وأنا بين الشباب في الخلف، والآلية الأمنية معروفة عن بعد، وزحمة دمشق القديمة تلفّنا. عيون الناس تنظر إليك في تلك الشاحنة بمزيج من تعاطف وكره ملتبسين. لا شيء يدعو إلى الخجل، لكن تخجل

Twitter: @ketab_n

من عيونهم، فأنت في عهدة الأمن: متهم.

إلى الحارة الضيّقة، ترجلت والضابط من الحافلة وسرنا باتجاه البيت القديم الذي كان يؤويني. لم يسمح لي الضابط بأن أسلّم على أصدقائي في الحيّ، لكنني سلّمت. كان سلاماً سريعاً و لم أقل شيئاً. حاولت أن أتمتم كلمة الحروف الثلاثة «أمن». أكملنا إلى دار النحّات. لم يتركني أختلي في غرفتي في الفندق – البيت، أصرّ على أن آتي فقط بالحاسوب وبقي باب الغرفة مفتوحاً. دقائق، وأصبحنا في الحافلة مرة أخرى. وفي المسير والحديث يصبح الضابط صديقاً متعاطفاً مع موقفي.

كنت أسائله وأدينه، كأنه هو القرار الذي أوقفني. أحاكي رئيس الدولة ورئيس الجهاز ووزير الإعلام في وجهه، وهو كان يتعاطف معي أكثر ويبدي تفهّمه. للحظة ظننته هو الموقوف وأنا الضابط. عدنا، هناك استقررت في غرفة احتجازي. مكتب الضابط واسع، تزيّنه صور الرئيس ووالده وأخيه الراحل.. واحدة في «برواز» وكتب عليها: «قائد مسيرة الحزب والشعب»، وصورة أخرى في ساعة معلّقة في صدر المكتب، وصورة ثالثة للرئيس مع طفلته... وعلم حزب البعث. كنت أنظر إلى الصور المعلقة ولا أتعب، كأنني أتابع حواري معها. وقاحتي لم تأتني بعقاب. كنت أغضب، أطلب هاتفاً لأكلم والدي وأشرح له أنني «لم أمت»، وكان الضابط يرفض قائلاً «تعليمات علينا تطبيقها»، متمنياً لو كان بإمكانه إعانتي.

أبشع ما في الانتظار أنك لا تعرف متى سيفرج عنك، والرجال يؤجلون سؤالك كل الوقت: «ساعتان على الأكثر وتنتهي الإجراءات»، «بعض الوقت ونرفع الإفادة»، «ليس الوقت بيدي». هكذا مضت

Twitter: @ketab_n

ساعات العصر، ومن بعدها المساء. يدخل إلى المكتب ضابط ويخرج آخر، يدخل عنصر ويخرج آخر. وزّعت وجبات العشاء أمام عينيّ على الشباب المتعارف عليهم بلقب «شبيحة». أعاقر السجائر والمياه. عرض الضابط عليّ العشاء فرفضت. يسايرني فأجيب بوقاحة. أهدأ قليلاً. نتكلّم في السياسة ووضع الشارع والناس وإخفاق الأجهزة. كنت ألومه فيستمع دون أن يعاقب لساني السليط. سمّعني على حاسوبه صوت موال جوزيف صقر، «عندن بإسمي سبع ملفّات». كان طريفاً وواسع العقل. غريب أنه ضابط أمن.

عشت على أعصابي رحلة الهبّات. أهدأ، أستمع، أدخن، أتكلم، أنظر إلى الصور، الساعة، ويجن جنوني. أفكر بأبي وأمي وأصدقائي وأخي في الخليج وأخي في أميركا. أفكر بما قد يدور في عقولهم، وفي قلقهم. أفكر بأمي التي ترتجف في بيتها ولا تعلم أين أصبحت. أنفجر بكاءً. تعود العصبية والشتيمة.

نظرت مرات عديدة إلى الأعلى حيث الرئيس أعاتبه... وقلت بصوت عال على مسمع الضابطين: «الله يعينك يا بشار الأسد على التخلّف اللي حاكم»، ولم يفعل لي شيئاً، كسرت المنفضة قطعاً صغيرة، ولم يفعل لي شيئاً. في هبة أعصاب أخرى، أمسكت قميصه ودفعته إلى الخلف بقوة، «هاجمته جسدياً»، ولم يحرّك ساكناً. سرقت هاتفي من جاروره، استرده فقط، انتقدت الأمن والإعلام والبعث و«سيدنا»، ولم يقم بأي رد فعل. لم أتذوّق شرف الاعتقال، بقيت قيد «تدقيق أمني» وسهرت 24 ساعة متواصلة بين مكتبي الضابط والضابط الثاني.

انتظرت وانتظرت بين غضب وهدوء: إنها الرابعة فجراً، السادسة

Twitter: @ketab_n

صباحاً. بدأت أبواق السيارات الصفراء تنادي مستديرة باب مصلى، وأنا أراقبها من نافذة مكتب الضابط. دون أكل، بلا نوم، ودون أن أعرف «ماذا سيحدث؟». إنها التاسعة، استفاقت الدوائر. حان وقت الظهر، أنقذني وزير الإعلام.

أي تغيير؟

قصة من قصص كثيرة في المدّ والجزر مع الأحداث السورية تحدث كل يوم مع كل من يكسر الممنوعات الصحافية والسياسية والحياتية. ثمة آلاف المعتقلين السوريين الذين يتلقون معاملة أقسى كثيراً من معاملة الصحافي اللبناني. ثمة مئات المفكرين والكتاب السوريين الذين قطف السجن سنواتهم. لا يمكن أن يعد هذا الموقف أو ذاك مشهداً عاماً أو حادثاً بطولياً. لا يجوز التعميم. هو نموذج عن أزمة الحرية في البلاد.

بين الاعتقالين الأول والثاني والترحيل والمنع، جلست في قاعة إعداد قانون الإعلام الجديد، ورأيت بأم عيني أن هناك مسعى حقيقياً لإحداث تغيير ما، لكن لم ألمس فاعليته. ثلاث مرّات قلت للجنة الإعلام إنني أتعرّض للمضايقة. تعاطفت معي، وحاولت أن تغيّر شيئاً ولم تستطع. إذا كان القرار الأمني هذا وذاك أقوى من لجنة صناعة القانون، فأي تغيير سيحدث؟

Twitter: @ketab_n

ترحيل وحرمان من بلادي

في المرة الأولى، سلمت الجرّة. أما في المرة الثانية، فانتهى بي المطاف موقوفة على الحدود اللبنانية مع كتاب من الأمن السوري الحدودي، «مطرودة وممنوعة من الدخول لأسباب أمنية». وحتى الساعة، لم ينقذني بعد وزير الإعلام، بل هو ووزارته طلبا مني الرحيل قبل أن ينفّذ رجال المخابرات مشيئتهم. و لم تستجب لمناشدتي لجنة إعداد قانون الإعلام الجديد، أو لم يُسمح لها.

يوم الاثنين 11 تموز طفح الكيل من نشاطي ومقالاتي «الوقحة» من دون إذن وزارة الإعلام. كنت في سيارة صفراء أخرى في طريقي إلى فندق الشام للقاء رسام الكاريكاتير علي فرزات. رنّ الهاتف، رقم غريب: «ممكن أن نراك لعشر دقائق فقط، اعتبريني موظفاً رسمياً». قلنا: «أكلناها». بدأت جبهتي تتعرّق وأفكر في السيناريو المقبل. كنت حينها أتلقى اتصالات تهديد غريبة وأسمع صدى صوتي بسبب التنصّت. كان محل الإنترنت في حارتنا في باب شرقي قد طلب مني عدم استخدام أجهزته لأن تنبيهاً أمنياً أتاه. كان وهم الأمن قد بدأ يلاحق خطواتي جميعها من البيت إلى المقهى إلى دور المعارضين إلى لجنة الإعلام. كنت أشعر بخطواتهم خلفي.

حل على طاولتي المخابراتي: أنا المقدم فلان الفلاني من جهاز المخابرات، رسالة المعلم «خففي عنّا شوي». تسلمت الرسالة ورددتها

Twitter: @ketab_n

بوقاحة وانتهى فنجان القهوة المتوتر. لم أعلم ما الذي كان عليّ أن أفهمه، كما لم أكن أعلم أي جهاز هو هذا، وأي مخابرات وماذا تعني تلك الرسالة.

توجّهت بارتياح إلى الطاولة الأخرى حيث جلس الرسام الكبير، وأخبرته كما أخبرت جميع أصدقائي أن مقدماً أبلغني رسالة. بعضهم نصحني بالمغادرة، لكنني أصررت على البقاء في دمشق.

في اليوم التالي، اتفقت مع صديق مفكر من السلمية، على أن أسافر معه بحثاً وأملاً بالوصول إلى حماه. من دمشق إلى السلمية فحماه، تغطية صحافية أخرى بمساعدة أصدقائي من أهل المدينتين. نشرت المقالة في اليوم التالي، حجبت الجريدة وتلقيت اتصالاً من «مسؤولة العلاقات العامة» في وزارة الإعلام. طلبت مني المغادرة ولقيت رداً وقحاً «لن أرحل عن بيتي وأصدقائي تلبية لرغبة أحد، فلتأتِ القوى وترحّلني». لم تكذب الإعلامية خبراً.

مر الوقت العصيب بهدوء نسبي، توجهت إلى لجنة الإعلام وقلت إن الوزارة طلبت مني الرحيل إلى بيروت لأنني أعمل من دون ترخيصها. لم تستطع لجنة إعداد القانون أن تحميني. صباح اليوم التالي، عاد الرقم الذي سجلته على الهاتف «مخابرات». رنّ هاتفي وأنا أتسلم فنجان القهوة من يد زوجة ميشال كيلو. أجبت الهاتف.

«ماذا؟ أتريد اعتقالي؟»، أجابني مقدّم المخابرات: «لو كنت أريد اعتقالك لجئتك على الجزماتية (الميدان) أو ربما حين كنت في برزة». كان يراقبني طوال يوم الجمعة. «حسناً، سآتي». للصدفة، إن فرع المخابرات ذلك كان قريباً من بيت ميشال كيلو في شارع بغداد.

Twitter: @ketab_n

نصحني الأستاذ ميشال بأن أترك حاسوبي في منزله، وأن أذهب لأرى ما يريدونه مني. كفكف دموعي وطمأنني. وصلت، وبشّرني المقدّم: «على الأرجح سيجري ترحيلك ومنعك من الدخول». جن جنوني مجدداً. ففي صباح ذلك اليوم، كنت أظن أن بعض المعارضة وحدها تهاجمني وأن النظام مهما فعلت، لن يستجيب لها. كيف سيتفق مع معارضيه؟ ثم إن التلفزيون السوري كان يردّد اسمي ويعرض جزءاً ضيّقاً من مقالتي. «كيف يستعين بها، ويرحّلني بسببها؟»

علمتني اللقاءات الدمشقية أن بعض المعارضة كما بعض النظام. كنت أؤمن بقانون الصدق السوري: اِكره الجميع وأحب سوريا الصادقة، بعيداً عن السياسة. انظر إلى المتظاهر لا إلى العرعور، انظر إلى الدولة وسيادتها لا إلى النظام وسيطرته. انتقِ ما تحب وما تكره من الجميع، ذاك يريح الضمير أمام مشهد العصفورية السورية. لم أكره المقدم الذي رحلني، فقد كان يستمع، لكنني كرهت «المعلم» كره الشياطين.

أعطاني المقدم أملاً: حالاً يراك «المعلّم» ويقرر. في الطبقة الثانية كان المعلّم بانتظاري، لا ليسمعني بل لأسمعه. و لم يكن سيعدّل قراره. كان معه على الهاتف «سيدنا» آخر مجهول، يتابع تفاصيل عقابي. كان واضحاً أن القرار محسوم.

في تلك الغرفة مفروشات باهظة وصور كثيرة وعلم بعثي، ورجل مستفز خلف مكتب مليء بالهواتف. سمين أسمر بشعر أبيض، تحته آلة لتدليك القدمين. طلب الجريدة من معاونه، حمل قلمه الأصفر وأخذ يعلّم «كلمات لا تجوز». لوّن المقالة بالأصفر، نادى للمقدم مرة أخرى: «تعامل معاملة موقوفة حتى الحدود مع منع دخول، يللا روحي».

Twitter: @ketab_n

نظرت إليه وإلى آلة تدليك قدميه المستفزة. «كيف ستمنعني من بلدي؟»، رد بعينين مستديرتين وصوت ضخم: «هذا بلدي أنا»، مشيراً بإصبعه إلى صدره. بكيت، وبكيت، وبكيت عالياً وغضبت وخبطت يدي على الأبواب والطاولات. بلا جدوى!

عدنا في المقعد الوسطي الخلفي بين أربعة رجال، إلى غرفتي في باب شرقي. هذه المرة لم أكن أخجل، كنت أمشي كعلامة استفهام كبرى مع دموعي. كل شيء حدث سريعاً قبل أن يتسنّى لي ابتلاعه. بينما توجّهنا لترحيلي، ذهب أحدهم إلى منزل كيلو، وأتى بحاسوبي.

صعدت والمقدم إلى غرفتي. حزمت أمتعتي وأوراقي بإشرافه. انطلقنا مرّة أخرى نهائية. مع احترام وهدوء ومعاملة حسنة. غنيت في سيارة الأمن وبكيت وضحكت «يا مال الشام».

في هذه السيارة لم يكن للصمت مكان. كانت رحلة أخيرة. لم أكن في حالة عصبية تراعي أحداً، شتمت وأنّبت الرجال «أنتم سبب سقوط نظامكم». وتمتمت بالأسماء الكبيرة شاتمة. لم يفعلوا لي شيئاً. كانوا يضحكون ويصمتون. وأحياناً يتمنّون بتعاطف «إن شالله بترجعي». هناك أيضاً في تلك السيارة، أصبح لي أصدقاء تفهّموني.

وصلت معهم إلى الحدود، انتظرت الكتاب الذي سيرافقني إلى لبنان: «مرحّلة لأسباب أمنية». ثلاث ساعات عند الأمن اللبناني لتوضيح أن الأسباب الحقيقية صحافية لا أمنية وللتوقيع على «سند إقامة». حتى الساعة لم ينقذني وزير الإعلام ولا لجنة إعداد قانونه، ولا المخابرات «باعتباري شبيحة» ولا المعارضة «باعتباري مندسة». حتى الآن ممنوع على صحافي يعدّ نفسه سورياً أن يدوس أرض بلاده.

Twitter: @ketab_n

سلسلة «ولاه حقير»

«ولاه حقير 1»

أنا بقرر إمتى بسمّي حماس مقاومة وإمتى بسمّيها إخوان مسلمين

«ولاه حقير 2»

إنت معارض يعني إنت إسرائيلي

«ولاه حقير 3»

عم تبعت «إيمايل» فيو سياسة من محل «النت»

«ولاه حقير 4»

بتحضر العرعور وما بتحضر البوطي

«ولاه حقير 5»

مو مسموح تحكي عن إستاذ رامي بنوب، شنو إستاذ رامي بيشرّف أبوك

«ولاه حقير 6»

عم تقول إنو التلفزيون السوري كذّاب

Twitter: @ketab_n

«ولاه حقير 7»»

أنا علّمتك عالجهاد، بتقلب على معلمك؟

«ولاه حقير 8»

شلون بتسلّم على ابن الجيران اللي عم ينزل مظاهرة إسقاط نظام

«ولاه حقير 9»

عملتلك قانون إعلام وقانون احزاب، وبس تصير آدمي وتسمع الكلمة، بخليك تحكي

«ولاه حقير 10»

خليتك تهرّب مازوت صرت تهرّب سلاح

Twitter: @ketab_n

قانون أصول الثورة

المادة الأولى من قانون أصول الثورة

أنت مختلف إذاً أنت العدو

...

المادة الثانية من قانون أصول الثورة

ممنوع تفتح تملك إلا إذا سبيت متلي بنفس الحروف على الديكتاتوريات. وأنا ديموقراطي وإنت واطي

...

المادة الثالثة من قانون أصول الثورة

إذا تذكرت أن إسرائيل موجودة ونشيطة ومحتلة، فأنت تضلل الثوار بكلام في غير حينه

...

المادة الرابعة من قانون أصول الثورة

لا داعي للإدلاء بجراحك كبراهين على عقاب النظام، مجرد أن تفتح تملك بما لا يحلو لي، أنت بعثي

...

Twitter: @ketab_n

المادة الخامسة من قانون أصول الثورة

إذا كنت من النظام حقاً، ومن المستفيدين، لكنك ردّدت هتافي، أعطيك تأشيرة «الثورة»

وننتقل إلى مرحلة تقسيم الجنة

...

المادة السادسة من قانون أصول الثورة

إن في انهيار الاقتصاد الوطني كل نعيم. حتى لو كانت أموال الحيتان بأمان، انهيار الاقتصاد مؤشر عافية للثورة

...

المادة السابعة من قانون أصول الثورة

إن رأيت أو سمعت عن حادثة حصلت لكنّها لا تفيد «الثورة» اطمسها، تلك من مصلحة النظام

الكذب نبيل للثورة في زمن الثورة

...

المادة الثامنة من قانون أصول الثورة

الناتو جلب الحرية فلنطالب بمزيد من الدماء. الدماء توقد الثورة

...

المادة التاسعة من قانون أصول الثورة

يحق لنا أن نخوّن الإعلام ونقاطعه ومن يخالفنا نعاقبه بعد سقوط

Twitter: @ketab_n

النظام

...

المادة العاشرة من قانون أصول الثورة

فاتحة الربيع العربي بدأت في ساحة الشهداء ببيروت في الرابع عشر من آذار 2005

Twitter: @ketab_n

فهرس الأعلام

-أ-

أبو الحسن، أميرة 213
أتاتورك، كمال 187، 204
أدونيس 45، 227
الأرمنازي، علي 52
أردوغان الطيب 182، 183، 188، 192، 193
الأسد، بشار 12، 13، 35، 47، 49، 55، 77، 93، 109، 120، 129، 150، 153، 163، 166–168، 173، 182، 183، 186–189، 191، 196، 202، 203، 222، 223–228، 270
الأسد، حافظ 55، 121، 139، 153، 169، 178، 256
الأسد، ماهر 153
الأشقر، يوسف 227
الأطرش، حسن 123
الأطرش، سلطان باشا 52، 119، 123، 126، 131
أمين، طالب 230
إيغو، فارس 213

-ب-

بان، كي مون 222
بخيتان، محمد سعيد 195
برقاوي، أحمد 220
بن جدو، غسان 58
بن علي، زين العابدين 11
بن لادن، أسامة 101

-ت-

تيزيني، الطيب 43، 207، 212، 215، 247

-ج-

الجابري، سعد الله 186، 190
جديد، صلاح 186
جعجع، سمير 13
جمالو، علي 230، 234
جميل، قدري 247

-ح-

حاج صالح، ياسين 217
الحاج، يسار 57، 58
حسين، لؤي 15، 207، 210، 212–216، 221، 235، 237–240، 249، 250
حمادة، مروان 13
حمدون، مصطفى 138
الحمصي، لقمان 220، 221
حميدوش، حسن 42، 212
الحناوي، حمود يحيى 127، 130

Twitter: @ketab_n

حنيظل، حسام 57، 58
الحوراني، أكرم 138، 241
حيدر، علي 247

–خ–

خليل، أنطون 58
خوست، ناديا 230

–د–

الدردري، عبد الله 187
درويش، مازن 235
درويش، محمود 42
دلة، سام 230
دليلة، عارف 217

–ر–

الرحباني، زياد 266
ركبي، رلى 213، 217
الركبي، فيصل 138

–ز–

زهر الدين، لينا 58

–س–

سارة، فايز 15، 207، 212، 249
سعادة، أنطون 241
سعيد، جودت 215
سعيفان، سمير 213، 214
سفر، عادل 187
سكرية، محمد 34
سلمان، صفوان 248
سلوم، حسان، 45، 227، 249
السواح، وائل 239

–ش–

الشرع، فاروق 16، 249
شعبان، بثينة 244
شوكت، آصف 261
الشيشكلي، أديب 138، 152

–ط–

طرابيشي، جورج 125
طلاس، مصطفى 15، 19

–ع–

العادلي، عمر 151، 190
عبد العظيم، حسن 155، 210، 221، 238، 241، 242
عبد الناصر، جمال 186، 224، 241
عبود، عيسى 82
عجان، محمد 49
العطري، محمد وضاح 189
العطري، ناجي 186، 187
العظم، صادق 215
العظمة، يوسف 52
العلي، بشار 83
علي، مصطفى 77
عمران، رامي 227، 249، 250
عوض، عبد الفتاح 230
عويدات، حسين 235
عيد، أحمد 57
عيروت، أنس 76
عيسى، سمير 44

–غ–

غليون، برهان 43، 207، 212، 215

Twitter: @ketab_n

—ف—

فرزات، علي 15، 272
فليحان، ريما 217، 218
فورد، روبرت 238

—ق—

القذافي، معمر 11
القرضاوي 33، 58، 71، 84
قرقناوي، حسن 191

—ك—

كيروز، عبد الله 149
كيلو، ميشيل 43، 69، 107، 108، 172، 212، 213، 225، 226، 235، 239، 240، 247، 248، 250، 273—275

—م—

مارتيني، رامي 188
الماغوط، محمد 139
مبارك، حسني، 12، 199
المتنبي 143
المحايري، عصام 248
محمد، أحمد 87
محمود، عدنان 98
مخلوف، رامي 167، 169، 187
مخلوف، محمد 169
مخيبر، صالح 49
المعري، أبو العلاء 52
المعلم، وليد 214
مناع، هيثم 43

—ن—

ناصيف، سالم 134
نصير، نجيب 213، 228
نعمان، لورا 79
النقشبندي، رنا 77
نمور، جمانة 85

—هـ—

هيكل، عبد السلام 236

—ي—

ياخور، إبراهيم 230، 234، 235
يزبك، سمر 217

Twitter: @ketab_n

فهرس الأماكن

–أ–

الاتحاد السوفياتي 140
إدلب 65، 83، 92، 179
أذربيجان 188
الأردن 179، 234
إسرائيل 54، 62، 199، 202، 204، 278
إسطنبول 193
الإمارات العربية المتحدة 234
أميركا انظر الولايات المتحدة الأميركية
أميون 73
ألاناضول 148
أنطاليا 180، 210
أنفة 73
أنقرة 182
أوروبا 143، 152، 190
إيران 197

–ب–

بانياس 61، 62، 75، 76، 92، 105، 138، 159، 160
بحر قزوين 188
بروكسل 210
بيروت 17، 33، 44، 50، 52، 174، 199، 273، 280

–ت–

تركمانستان 188
تركيا 53، 178، 179، 185، 186، 188–190، 192، 193، 204، 243، 259
تلكلخ 260، 179
تونس 11، 199، 218، 244

–ج–

جبل الدروز 119، 122
جبل العرب 123، 127، 128
جبل قاسيون 95، 163
جبلة 61
الجزائر 189
جسر الشغور 179، 181، 185، 186، 242، 243
جورجيا 188
الجولان 92

–ح–

حرستا 266
الحسكة 227
حلب 15، 19، 57، 143–156، 171، 173، 182–186، 190، 200، 202، 203
حماه 15–17، 38، 57، 64، 135،

Twitter: @ketab_n

138، 139، 160، 167، 181،
185، 202، 203، 213، 217،
223، 224، 238، 239، 241–
244، 254، 256، 258، 259،
261، 273
حمص 16، 19، 24، 39، 53، 57،
59، 61، 62، 73، 82، 87، 106،
138، 146، 159، 160، 173،
181، 208، 213
حوران 92، 119، 123، 128

–خ–

خان شيخون 179، 185

–د–

داريا 109، 112، 115، 266
درعا 13، 27، 32، 34، 39، 42،
53، 56، 59، 68، 107، 109،
110، 119، 123، 124، 126،
128، 160، 168، 200، 202،
214، 217، 227
دمشق 13، 16، 18، 24، 26، 32،
34، 35، 41، 42، 44، 48، 50،
52، 56–62، 77، 91، 92، 94،
95، 98، 99، 101، 105، 110،
111، 143–145، 147، 159، 161،
163–167، 171، 173، 174،
176، 178، 179، 181، 182،
184، 193، 195، 197، 201،
202، 208، 210، 211، 214،
219، 220، 221، 227، 229،
234 ، 237، 242، 244، 252،
256، 259، 261، 265، 266،
268، 273
دوما 33، 53، 56، 59، 96، 97،
109، 111، 112، 123، 133،
210، 213، 266
دير الزور 179، 181، 227

–س–

السعودية 190
سقبا 109، 113، 114
سوريا 13–17، 19، 31، 33، 41،
46–48، 50–58، 63، 68، 69،
74، 79، 80، 82، 84، 86، 91،
95، 99–101، 108، 109، 113،
121، 126، 131، 137، 140، 142،
145، 148، 150، 151، 156،
159–164، 169، 171، 178،
180، 183، 184، 187–190،
192–194، 196–198، 201–
203، 207–209، 211–213،
216، 219، 221، 222، 225،
227، 234، 236، 238، 242،
246–251، 254، 262، 274
السويداء 16، 25، 36، 45، 120،
122، 124، 126، 128–131، 134،
146، 171، 173، 200، 213،
227، 266، 267

–ش–

الشام 19، 24، 28، 119، 160،
164، 260

Twitter: @ketab_n

-ص-

صفد 44

-ط-

طرابس 73
طرطوس 61- 62

-ع-

العالم العربي 68، 99، 190
العراق 43، 54، 74، 136، 140، 179
عكار 73

-ف-

فرنسا 101
فلسطين 26، 43، 197، 215، 224، 226، 239، 241، 266
فنزويلا 129

-ق-

القدس 44
قطر 190

-ك-

كازاخستان 188
كفرحبو 73
كفرسوسة 229
الكورة 73
كوسبا 73
كيليكيا 182، 190

-ل-

اللاذقية 32، 49، 60، 64-67، 70، 72-74، 79-81، 138، 159، 193، 213، 227، 243
لبنان 25، 53، 54، 82، 179، 182، 192، 199، 201، 238، 242، 275
ليبيا 27، 188، 218، 244

-م-

المزة 173
مصر 188، 190، 218، 219، 244
معرة النعمان 185
المعضمية 109، 112، 115
المغرب 188

-هـ-

هيكل، عبد السلام 230

-و-

الولايات المتحدة الأميركية 54، 152، 242، 270

-ي-

اليمين 218، 234، 244

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n
13.4.2012

صحافية وصلت إلى الشام لتغطّي الانتفاضة. وإذ تجد نفسها متمزّقة بين موالاة ومعارضة، تبدأ بمساءلة قناعاتها وأفكارها.

دارت على المناطق السورية، من بيوت رجال الدين إلى أوكار المعارضة إلى شوارع الثورة، وعادت بكلام يكفي ليعاديها الطرفان. وفي النهاية اعتُقلت ورُحّلت ومُنعت من دخول سوريا.

تجربة غدي فريدة لأسباب عديدة، ليس أقلّها أن قراء مقالاتها تابعوا تحوّلاتها الشخصية، إضافةً إلى أخبار الانتفاضة.

هذا الكتاب شهادة حيّة لأحداث هامّة وقصّة عشق تحمل الحب والألم والانكسار.

غدي فرنسيس صحافية لبنانية تعمل مراسلة في تلفزيون الجديد وكاتبة في جريدة الأخبار. مواليد الكورة - لبنان 1989. درست علوم الحياة والعلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية.

ISBN 978-1-85516-845-9
9 781855 168459 >

DAR AL SAQI
دار الساقي